



المشروع القومي للترجمة

دراسات أندلسية وموريسكية

تأليف: نخبة من أبرز المتخصصين

ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن

المركز القومي للترجمة

1192

دراسات
أندلسية وموريسكية

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف: **جابر عصفور**

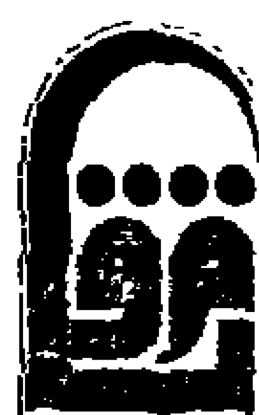
- العدد: ١١٩٢
- دراسات أندلسية وموريسكية
- نخبة من أبرز المتخصصين
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة لمجموعة مقالات
كتبها باحثون بارزون حول عدة جوانب تتعلق
بقضية مسلمى الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 - 27354526

دراسات أندلسية وموريسكية

تأليف: نخبة من أبرز المتخصصين
ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دراسات أندلسية وموريسكية

ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحمن

ط١ -القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨

٢٧٦ ص ، ٢٤ سم

١ - الآدب العربى - تاريخ - العصر الأندلسى .

٢ - الآدب العربى . تاريخ ونقد .

(أ) عبد الرحمن ، جمال (مترجم ومقدم)

(ب) العنـوان ٨١٠,٩٦

رقم الإيداع ١١٧٠٥/٢٠٠٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 765 - 6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتوى

شكر واجب

لم يكن ممكنا للترجمة العربية لهذا الكتاب – ولغيره من الكتب التى ترجمتها أو راجعت ترجمتها وتتناول التاريخ الأندلسى والموريسكى– أن ترى النور لولا العون الذى قدمه لى أساتذة وزملاء وتلاميذ وأصدقاء كثيرون، أذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر:

إحسان على، إنغريد بيخارانو، خابيير رويث، خوان بيرنيت، خوان كارلوس بيابيردى، دولورس برامون، رفائيل أو عمى إدريس الإشبيلى، سعيد عطية، صلاح رمضان، عبد الجليل التميمى، عمرو عبد الباقى، فاطمة مكى، فيديريكو كورينتى، فيرناندو دى أغريدا، كارمن أورتيث، لوثى لوبيث بارالت، ماركيث بيانوبيا، ماريلو بيريث، مانويلا مارين، محمد السبعاوى ، محمد نور الدين عبد المنعم، محمود على مكى، مرثيديس غارثيا أرينال، مريم سعادة، مناع عبد المحسن، ميغيل أنخيل بونيس إيبارًا، أسرة باروخا، أسرة غالميس دى فوينتيس، أسرة غوثالبيس بوستو.

كلهم ساعدنى وكان كريمًا معى إلى أقصى حد وبذل من وقته وجهده الكثير، وقد أثقلت على بعضهم بأسئلة لم يكن يستطيع أن يجيب عنها غيره، فإليهم جميعًا أسمى آيات شكرى.

المترجم

تقديم المترجم

من بين الكتب التى أصدرها المشروع القومى للترجمة هناك كتب عبارة عن مقالات جمعها أصحابها ونشروها فى كتب (انظر كتابَى غوثالبيس بوستو "الموريسكيون فى المغرب" و"المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان"، وكتاب ماركيث بيانويبا "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى") وفى بعض الأحيان يعد الباحث دراسة موجزة ثم لا يتمكن من نشرها فى كتاب (انظر حالة مقال غارثيا أرينال حول الوضع الحالى للدراسات الموريسكية. هذا المقال يندر أن تجد كتابًا يؤرخ للقضية الموريسكية دون أن يعود إليه). ما العمل مع مقال كهذا؟ رأيت أن أضع أمام القارئ العربى مجموعة دراسات قصيرة لكل منها أهميته، وقد حاولت قدر الإمكان أن تكون للكتاب وحدة موضوعية. لا أزعم أن المحاولة كللت بالنجاح تمامًا، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

الكتاب الذى نقدم له إذن عبارة عن دراسات موجزة لمؤلفين عديدين، لم تتح لبعضهم فرصة نشر دراسته فى كتاب كامل.

القسم الأول من الكتاب يتحدث عن موضوع لم يطرقه الباحثون كثيرًا، وهو تأثر الإسلام الأندلسى بالمسيحية، وكان أسين بالاثيوس قد أفرد لهذا الموضوع كتابًا مستقلا وضع له عنوانًا معبرًا *El Islam cristianizado* "الإسلام المتنصِّر" أو"الإسلام المتأثر بالمسيحية"، غير أن الباحث المتخصص فى الفكر الإسلامى ميغيل كروث إيرنانديث ذهب إلى أن بالاثيوس أخطأ فى اختيار عنوان كتابه، وقال – فى محاضرة ألقاها فى جامعة القاهرة – إن بالاثيوس تحدث فى كتابه عن المسيحية التى تأثرت بالإسلام. حديث كروث إيرنانديث إذن يعضد رؤيتنا للموضوع ويجعل اختيار مقالات فيرناندو دى لا غرانخا عملا مشروعًا تمامًا.

تبين مقالات فيرناندو دى لاغرانخا أن تسامح المسلمين مع مسيحيى الأندلس لم يقتصر على السماح ببناء الكنائس والأديرة، أو توليهم مناصب عليا فى الدولة، بل امتد ليشمل مشاركتهم فى الاحتفال بعيد الميلاد وعيد العنصرة -المعروف حاليًا بعيد القديس خوان أو ميلاد النبى يحيى عليه السلام - وخميس أبريل. لسنا بصدد تحديد ما إذا كان السبب فى ذلك يعود إلى أن كثيرًا من مسلمى الأندلس تزوجوا من مسيحيات، أو أن أسبابًا سياسية - تتمثل فى المحافظة على ولاء مسيحيى الممالك الإسلامية - هى التى كانت وراء مشاركة المسلمين فى الاحتفالات. المهم هو أن تلك الاحتفالات كانت واقعًا ملموسًا فى الأندلس كان له رد فعل من جانب بعض الفقهاء.

القسم الثانى من الكتاب يدور حول الموريسكيين، ويتناول الجانب الدينى بالتحديد، وأحسب أن الدراستين الموجزتين للمترجم توضحان أن تأثر الإسلام الأندلسى بالمسيحية واصل خطاه حتى بعد سقوط غرناطة: لم تكن "رسالة الشيخ أحمد" إلا عملا موريسكيا أراد الحفاظ على ما تبقى من دين إسلامى فى شبه الجزيرة مستغلا ما فعله المسيحيون فى العصور الوسطى حين ظنوا أن دينهم يتعرض لخطر الفناء. ثم كانت دراسة ثقافة لاجئ تونس الموريسكى فرصة للتعرف على استغلال الموريسكيين لأساطير مسيحية تزعم اشتراك سانتياغو بعد مماته فى الحروب ضد المسلمين، وهو الأمر الذى تأثر به مسلمو إسبانيا فاخترعوا أسطورة مناظرة، وزعموا أن على بن أبى طالب لا يزال يشترك فى المعارك الدائرة بين مسلمى إسبانيا ومسيحييها.

قبل أن نواصل الحديث أريد أن أتوقف قليلا عند تأثر الإسلام الأندلسى - قبل سقوط غرناطة وبعده - بالمسيحية. كان التأثر فى المرحلة الأولى نموذجًا لتسامح الإسلام مع الديانات الأخرى. إن سماح ملوك الأندلس بالاحتفال بأعياد مسيحية لم يكن سوى دليل على ذلك التسامح الذى اتصف به العصر الأندلسى. أما

بعد سقوط غرناطة وتعرض الإسلام الأندلسى لخطر حقيقى فكان الدافع وراء ذلك أمرين مختلفين:

١- محاولة أخيرة للتمسك بالدين (الزعم بأن النبى صلى الله عليه وسلم جاء فى المنام وأمر بأن يصوم الناس ثلاثة أيام).

٢- التقرب من أصحاب دين الغالبية إذا كان ذلك لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية (يتحدث الإسلام عن مريم فيذكر أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، لكنه لا يذكر أن السيدة مريم احتفظت بعذريتها بعد أن وضعت، وعليه سار الموريسكيون على نهج الكاثوليك وقالوا بعذرية السيدة مريم لأن ذلك لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية).

يتضمن القسم الثانى كذلك دراستين لعلمين من أعلام الدراسات الموريسكية أحدهما ألمانى هو الدكتور رينولد كونزى والأخرى للدكتورة لوثى لوبيت بارالت من بويرتو ريكو، وهى التى تعتبر دون جدال عميدة الاستعراب فى الأمريكتين. يتناول مقال كونزى المخطوطات الألخميادية التى تعرضت للإسراء والمعراج، ويبين أنها تتناقض فيما بينها، وأن الحل يكمن فى الرجوع إلى الأصول العربية لهذه المخطوطات. وللحقيقة نقول إن غالبية الأدب الألخميادو لم يكن سوى ترجمة لأصول عربية، وعليه فإننا نتفق مع البروفيسور كونزى فيما ذهب إليه. أما بارالت فهى تتحدث عن الأدب الألخميادو الذى كتبه الموريسكيون بحروف عربية وبلغة إسبانية. تقول بارالت إن ذلك الأدب يقدم صورة صادقة للواقع الذى عاشه الموريسكيون، فى مقابل "الأدب المتعاطف مع المسلم" الذى كتبه بعض كتّاب إسبانيا المعاصرين للمشكلة الموريسكية، ذلك أن الأدب "المتعاطف" كان يقدم صورة "ما يجب أن يكون"، لكنها صورة وردية لا تمت للواقع بصلة، وإن كانت تعبر عن أمانى يرغب البعض فى أن تكون واقعًا معيشًا. ولعل من يطالع رواية "ابن سراج" وما فيها من وصف خيالى لمسلم غرناطة، يدرك البون الشاسع بينها وبين المأساة التى تعرض لها الغرناطيون بعد سقوط دولتهم الإسلامية، حيث لم

ينج من المعاناة فقير أو غنى (تأمل قضية كوسمى بن عامر الذى كان من الوجهاء، لكن مكانته الاجتماعية لم تقف حائلا دون تعرضه للمضايقات).

القسم الثالث يتحدث عن جانب آخر من جوانب القضية الموريسكية ويعرض وثائق لم تتح الفرصة – على حد علمنا– لنشرها فى كتاب كامل. الدراسة التى نشرها فيرنانديث نييبا تبين إلى أى مدى كان تعنت السلطات الكاثوليكية مع الموريسكيين، أما دراسة بونيس إيبارا ودراسة كابريانا فتوضحان أن الإسبان قد اهتموا بالتوثيق منذ البداية، وهو ما يدعونا إلى البحث فى الوثائق العربية علَّنا نجد فيها ما يقدم وجهة نظر أخرى للقضية الموريسكية، أو – على الأقل – الاهتمام بحفظ الوثائق التى لم تضع بعد. وعلى ذكر تقديم وجهة نظر أخرى أقول إن ماركيث بيانوبيا جمع كتابا كاملا عبارة عن مقالات كتبها فى هذا الموضوع وقد نشر المجلس الأعلى للثقافة ترجمته العربية منذ عامين. من هذا الكتاب تحديدًا اخترنا دراسة كان بيانوبيا قد أعدها للمشاركة فى مؤتمر للدراسات الموريسكية، ولا يختلف مضمون هذه الدراسة فى شىء عن الدراسة التى أدرجها المؤلف فى كتابه المشار إليه. الأمر لا يعدو أن يكون تعديلا فى صياغة بعض العبارات ومراعاة الفرق بين دراسة مستقلة ودراسة تشكل جزءًا من كتاب. أما دراسة خيل غريماو حول موريسكيى المغرب فهى تخطو خطوة أخرى على طريق إيضاح الأثر الموريسكى فى المغرب، قد نفيد منها فى محاولة رصد الأثر الأندلسى فى مصر وما يكون له من تأثيرات قد تتمثل فى إدخال نمط من العمارة أو فى وجود مخطوطات خلفها أندلسيون هنا أو هناك. ويبدو أن الأثر الأندلسى فى مصر يزيد عن التصور المبدئى لأحدنا. لاحظت ذلك من خلال متابعتى لسلسلة محاضرات نظمها معهد ثيربانتيس بالقاهرة حول هذا الموضوع ألقاها أستاذانا مختار العبادى ومحمود على مكى وغيرهما من الأساتذة المتخصصين. أعود إلى دراسة خيل غريماو فأقول إن الأبحاث التى نشرت حديثًا تجاوزتها تمامًا. يكفى أن نعرف أن غوثالبيس بوستو قد نشر كتابًا موثقًا عن الموريسكيين فى المغرب، وأن لدينا

للمؤلف نفسه كتابًا كاملا عن المنظرى مؤسس تطوان، وقد ترجم الكتابان إلى العربية، والكتاب الثانى على وشك الخروج إلى النور ضمن إصدارات المركز القومى للترجمة، إن لم يكن قد صدر بعد. هناك أيضًا كتاب ميكيل دى إيبالثا بعنوان "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى"، وهو يتحدث بشكل جزئى عن الوجود الموريسكى فى المغرب. من ناحية أخرى، لا نستطيع أن نوافق المؤلف فى كل ما ذهب إليه عند حديثه عن عائلات أندلسية وموريسكية استوطنت المغرب، فلا يمكن أن تكون عائلة العطَّار وعائلة السرَّاج حكرًا على الأندلس، فهذه مهن موجودة فى أماكن عديدة وبالتالى فهناك عائلات تحمل الاسم نفسه وتنتمى إلى أماكن مختلفة.

هناك دراسة لفتت نظرى بشكل خاص. أتحدث عن محاضر اجتماعات المجلس البلدى فى إحدى مدن إسبانيا (مالقة) فى غمار الثورة التى قام بها الموريسكيون. إن المحاضر دقيقة فى تسجيل وقائع الجلسات حتى إن أحدنا ليشعر وكأنه كان من بين الأعضاء يتابع تطورات ثورة الموريسكيين. هذا التسجيل الدقيق للجلسات (نتحدث عن أداء السلطات الإسبانية فى القرن السادس عشر) لا يملك المرء معه إلا أن يتساءل: متى سنتعامل مع تاريخنا المعاملة اللائقة من حيث دقة التسجيل ومن حيث المحافظة على الوثائق؟

أعود إلى الحديث عن مقالات فيرناندو دى لاغرانخا فأقول إنها تضمنت حشدًا من فقرات من نصوص قديمة، بعضها غير معروف للقارئ غير المتخصص. رأينا ألا نترجم الترجمة، بل أن نعود إلى النص الأصلى ننقل منه الفقرة التى أوردها المؤلف، وقد كلفنا هذا العمل جهدًا يعلمه تمامًا كل من تعامل مع أمهات الكتب غير المتاحة للعامة، بل إننا فى بعض الأحيان كنا قد انتهينا من ترجمة نص ما، فلما عثرنا على النص الأصلى آثرنا أن نورده كما هو. أما النصوص التى لم نتمكن من العثور عليها فلم يكن أمامنا سوى ترجمتها. وقد استعنا فى كتابة أسماء الأعلام بالشبكة العنكبوتية (الإنترنيت) وقد عثرنا على

الجزء الأعظم من أسماء الشخصيات والأماكن الجغرافية وعناوين المؤلفات، أما ما لم نتمكن من العثور عليه فقد اجتهدنا فى كتابته ولم ندخر وسعًا فى البحث عنه.

هذا الكتاب إذن – بما يتضمنه من دراسات لا تكاد توجد فى كتاب كامل- يضيف الكثير لمن يريد معرفة تاريخ الأندلس ولمن يريد أن يتابع تاريخ المسلمين فى إسبانيا بعد سقوط دولة المسلمين فى غرناطة.

اعتدت فى مقدمة ترجمة أو مراجعة كتاب أن أشكر عددًا محدودًا ممن ساهموا فى خروج الكتاب الإسبانى فى لغة عربية، أما هنا فأصحاب الفضل كثيرون، لهذا رأيت أن يكون تصدير الكتاب تعبيرًا عن امتنانى لهم جميعًا.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

القسم الأول

دراسات أندلسية

الاحتفال بأعياد مسيحية فى الأندلس
(مصادر لدراسة الموضوع)
الجزء الأول: "الدر المنظم" للعزفى

فيرناندو دى لا غرانخا

كان هناك فى إسبانيا الإسلامية، كما فى بلاد إسلامية أخرى، احتفالان دينيان كبيران فى كل عام: عيد الفطر وعيد الأضحى. كان يحتفل بالعيد الأول عند ظهور هلال شهر شوال الذى ينتهى معه صيام رمضان، وكان يحتفل بالعيد الثانى فى العاشر من شهر ذى الحجة(١).

هذان العيدان، بالإضافة إلى الشعائر الدينية البحتة وصلاة الجماعة التى يؤمها "صاحب الصلاة"، كان لهما نفس الطابع الذى يميز كل الاحتفالات الشعبية: كان الناس يخرجون من الشارع فى ثياب حسنة أو جيدة وفى البيوت كانت تقدم، طبقًا لإمكانيات كل أسرة، أشهى المأكولات.

لدينا وصف للعيدين فى مختلف العصور وحتى اليوم تمثلان صورة حية فى مختلف بلاد الإسلام خاصة فى الريف (٢).

وكما كان التاريخ الميلادى لهذه الأعياد يتغير عامًا بعد عام، كانت هناك أعياد أخرى غير إسلامية يحتفل بها المسلمون والمسيحيون معًا فى أيام محددة.

أحد هذه الأعياد – وأصله فارسى– هو النوروز أو النيروز، وهو يوافق بداية التقويم الشمسى الفارسى، وقد تعرض لبعض التغييرات من حيث تاريخ الاحتفال به بعد الإسلام (٣) .

ويبدو أن المؤلفين الأندلسيين قد نسوا أن يخبرونا بموعد الاحتفال به كما يقول ليفى بروفنسال الذى يرجح أن يكون تاريخه هو اعتدال فصل الربيع (٤)، ويحدده هنرى بيريز بدوره، بشىء من التحفظ، فى أول يناير (٥).

لدينا بيانات قليلة ومتفرقة عن عيد النيروز فى الأندلس. كانت الليلة التى تسبقه يعتبرها الأندلسيون أفضل ليلة للزفاف، فى هذا اليوم كانوا يعدون فطائر على شكل مدن، وكانوا يتبادلون الهدايا ويوجهون المديح شعرًا إلى الشخصيات البارزة (٦). وحول اليناير، وهو كما سنرى نفس العيد، لدينا زجل رائع لابن قزمان سنشير إليه فى حينه.

كان العيد الثانى هو المهرجان، وهو ذو أصل فارسى أيضًا، ويوافق تاريخه اعتدال فصل الخريف، واختلط فى النهاية بعيد العنصرة (٧) الذى يوافق ٢٤ يولية، وهو اليوم الذى يحتفل المسيحيون فيه بالقديس خوان*.

كان النيروز أو اليناير والمهرجان أو العنصرة هما العيدان اللذان يصفهما ليفى بروفنسال بأنهما "كوكبيان" لكنهما كانا فى إسبانيا دينيين أيضًا رغم أن أصلهما ليس إسلاميا.

إن البيانات التى لدينا حول هذين العيدين قليلة لا تكاد تزيد عما عرضناه، ورغم ذلك يمكن دراستهما رغم أنهما اتخذا أشكالا جديدة بين سكان شمال إفريقيا.

وهناك عيد مهم أصله مسيحيى هو عيد الميلاد الذى كان المسلمون يحتفلون به، ولا أعتقد أن أحدًا تحدث عن ذلك حتى الآن، بالإضافة إلى عيد آخر (*).

منذ سنوات طويلة أحاول جمع المادة العلمية لكى أنشر دراسة شاملة عن هذه الأعياد المسيحية التى كان المسلمون والمسيحيون يحتفلون بها معًا فى الأندلس. إنه موضوع لم يسترع انتباه من أرَّخوا لإسلام الأندلس. حتى سيمونيت فى كتابه الضخم عن "تاريخ نصارى الأندلس" لم يخصص للموضوع المساحة التى يستحقها، ومع أنه قد وفق فى العثور على أخبار مهمة فإنه لم يشأ استغلالها(٨).

(*) هو النبى يحيى عليه السلام كما سيأتى ذكره. (المترجم)

أعتقد أن الموضوع مهم جدا لأنه يمكننا من التعمق فى دراسة أحد المجالات المهمة فى تاريخ الأندلس الاجتماعى: مجال التعايش بين النصارى الخاضعين والمسلمين المسيطرين وهم يحتفلون معًا بالأعياد المسيحية. لقد فرض المهزوم نفسه على المنتصر كما حدث فى مرات عديدة، وجاء ذلك بالتحديد فى المجال الذى يفصل الجانبين: المجال الدينى. من هنا تجيء حسرات الفقهاء التى سنستمع إليها وهم يدعون المتدينين المسلمين إلى التخلى عن تلك الأعياد المسيحية ولفتهم الأنظار إلى تنامى "الإلحاد" على جانبى مضيق جبل طارق. كان يجب عليهم ذلك، وكأتباع متحمسين لمذهب الإمام مالك توجهوا إلى السماء وهم أمام أمر يهدد سلامة معتقدات أبناء دينهم. كان الأمر عبارة عن قدر مبالغ فيه من الحمية الدينية إذ إن ذلك لم يكن معناه إطلاقًا اقتراب المسلمين من العقيدة المسيحية، وكان الفقهاء أول من يعلم ذلك. وقد كان لهذه الظاهرة سابقة فى الشرق لاحظها آدم ميز وعرضها باقتدار:

"إن مقدار هشاشة قشرة الطلاء الإسلامية – التى كانت تغطى حياة الشعب – تؤكده الأعياد. كان المسلمون يحتفلون مع المسيحيين بالأعياد الدينية المسيحية، إذ أن معظم الأعياد المسيحية كانت تعكس عادات شعبية قديمة، وهكذا فإن كثيرًا من أماكن الحج القديمة فى مصر والعراق كانت مراكز لعبادات وثنية، ولم تكن الأيام المخصصة للاحتفال بقديسى الأديرة المسيحية القائمة هناك، سوى أسماء جديدة لاحتفالات تخص الآلهة القديمة. إن مسلمى البلد لم يرفضوا متعة الاحتفال بهذه الأعياد التى أسعدت حياة الجدود من الوثنيين والمسيحيين. لكنهم – على العكس من المسيحيين – رفضوا تأسيس أساطير جديدة واقتصروا على أن يُترك للمسيحيين الاحتفال الدينى وأن يشتركوا معهم فقط فى الجانب البهيج كما كان يفعل الآباء" (٩).

بالفعل، وبرغم التحذير الموجود فى الأحاديث النبوية – أو تلك التى لم تتأكد صحة نسبها إلى النبى– التى تمنع المسلمين من المشاركة فى الأعياد المسيحية فإن

عامة الشعب وأصحاب المناصب العليا بل الخليفة نفسه كانوا يندمجون تمامًا فى تلك الأعياد التى تخلو– بالنسبة لهم – من المضمون الدينى.

وكانت الأعياد التى يحتفل بها فى الأندلس – بالإضافة إلى رأس السنة الميلادية– تحتفل بمولد اثنين من الأنبياء المعترف بهم فى الإسلام: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا. ففى روح الشعب كان هناك شعور بالحب نحوهما وكان المضمون الدينى للاحتفال بهما – باستثناء تغييرات طفيفة حسب ثقافة الأشخاص– متماثلا سواء بالنسبة للمسيحيى أو بالنسبة للمسلم. ولم يكن بمقدور العلماء القضاء على هذه الأعياد من جذورها لأن عيسى وزكريا كانا بالنسبة لهم نبيين مبجلين. لكنهما كانا أيضًا ابن الله والقديس خوان بالنسبة للمسيحيين. إذا كان عيد النيروز لم يسبب قلقًا فى المشرق لأنه كان احتفالا شعبيا يخص كل الأديان والطبقات الشعبية فإنه فى الغرب قد اكتسب عداء الفقهاء لأنه عيد دينى رغم اختلاطه ببعض الأمور الوثنية.

لم يكن المسلمون فى الشرق يشاركون المسيحيين احتفالاتهم بشكل روحى لكنهم كانوا يشتركون معهم فى البهجة والخمر والغناء. فى الغرب كان من الصعب الفصل بين المجالين.

فى الصفحات التالية من هذه الدراسة التى تبدأ سلسلة من المقالات حول الموضوع أحقق وأترجم فقرة مطولة تعتبر أهم وأكبر شاهد وجدته فى هذا الإطار. حول كتاب "الدر المنظم فى مولد النبى المعظم" قدمت دراسة فى جامعة غرناطة فى أكتوبر ١٩٦٢ فى إطار جلسات عن الثقافة الإسبانية الإسلامية واستخدمت هذه الدراسة أيضًا وأنا أتقدم لشغل وظيفة أستاذ للغة العربية والأدب العربى فى جامعة سرقسطة فى ديسمبر عام ١٩٦٣. منذ ذلك الحين لم أتوقف عن جمع أخبار عن هذا الموضوع، ولا يتناسب الحصاد مع الجهد المبذول، لأننى كنت أهدف إلى نشر كتاب عن الأعياد المسيحية فى الأندلس. ومع ذلك، فمنذ أشهر قليلة عندما سلم أستاذى إيميليو غارثيا غوميث إلى المطبعة كتابًا عن ابن قزمان (١٠) – وهو عمل

عظيم بكل المقاييس وسيمثل علامة بارزة فى الدراسات العربية داخل إسبانيا وخارجها- أطلعته على فقرة من كتاب "الدر المنظم" تعتبر شبيهة بالزجل رقم ٧٢ لديوان ابن قزمان القرطبى، وعندما قرأ دراستى شجعنى على نشرها بأسرع ما يمكن.

كتاب "الدر المنظم":

اهتم المثقف العظيم جامع الكتب المقرى بإمدادنا بأخبار عن هذا الكتاب وأصوله وبأن ينقل لنا فقرات من مقدمة العمل الذى ألفه أبو القاسم العزفى الذى انتهى من تحرير الجزء الذى جمعه أبوه الفقيه المحدث أبو العباس [١١].

قام أبو القاسم العزفى بدور مهم للغاية فى تاريخ سبتة اعتبارًا من النصف الثانى من القرن الثالث عشر خلال سنوات الاضطراب التى انسحب فيها الموحدون من الساحة السياسية على جانبى المضيق لكى يتركوا المجال لبنى مرين.

إن شخصية أبى القاسم العزفى ملك سبتة المستقل وذريته تستحق دراسة أخرى أشعر أحيانًا بالرغبة فى القيام بها. وقد استعمل دوفورك Dufourcq فى دراسته عن قضية سبته[١٢] المصادر المسيحية فقط أو المصادر العربية التى استطاع هو أن يقرأها. وهناك بيانات أخرى عن الموضوع فى كتابه الجديد الموثّق[١٣]. ورغم أننى سأعتمد عليه منذ الآن كنقطة انطلاق فإن المصادر العربية التى لم تترجم والتى نشرت خلال السنوات الأخيرة والمصادر التى لم تنشر بعد تشكل كلها إضافات لدراسة الأسرة.

إلى جانب أهمية أبى القاسم العزفى فى مجال التاريخ السياسى - وهو الجانب الوحيد الذى درس حتى الآن- فإن نشاطه الدينى ليس أقل أهمية، فقد أرسى فى غرب الإسلام عيد المولد النبوى الذى يحتفل به حتى الآن فى قلب الإسلام فى المغرب. لهذا الغرض بالتحديد وكإعداد له انتهى من تحرير كتاب "الدر المنظم فى

مولد النبى المعظم" الذى بدأه أبوه أبو العباس أحمد (٥٥٧ – ٦٣٣هـ ١١٦٢١ – ١٢٣٦م) وكرس جهده كله خلال سنوات حكمه (٦٤٧ – ٦٧٧ هـ \ ١٢٤٩ – ١٢٧٨ م) لكى يأخذ الاحتفال بعيد المولد النبوى صفة طبيعة وأن يقضى بذلك على معظم الأعياد المسيحية التى كان المسلمون يعتبرونها أعيادهم.

يبدأ الكتاب بمقدمة طويلة يبرز فيها أبو القاسم العزفى الغرض الذى دفعه إلى تكملة الكتاب الذى بدأه والده. المقدمة جزء صغير من الكتاب ولكنها تعتبر أهم جزء فيه. عن المقدمة بالتحديد سنتحدث فى هذه الصفحات.

لم يقم أحد على حد علمى بلفت الأنظار إلى أهمية كتاب العزفى بالتأكيد لأن أحدًا لم يكلف نفسه بمراجعة المخطوطات الخاصة به. حتى سيمونيت الذى كان له حظ العثور على فقرات من الكتاب لم يدرسها بعمق، لأنه لو استخدمها بعمق لاستخرج منها نتائج مهمة حول هذا الموضوع فى كتابه عن نصارى الإسبان. ويتحدث بونس بويغس عن هذا الكتاب فى دراسة له بعنوان "مقال عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين" ويصفه (ربما استنادًا إلى فهرس قائمة المخطوطات الموجودة فى المتحف البريطانى التى تقدم تحليلا جيدًا لكتاب الدر المنظم) لكنه لم يوفق فى التوصل إلى اسم المؤلف، إذ ينسب الكتاب إلى ابن هشام (صاحب كتاب لحن العامة)[١٤]. إن كتاب الدر المنظم يرد ذكره فى مقال لأحمد سالمى نشر منذ سنوات، لكن المقال يستند إلى ما يورده المقرى عن الكتاب والمؤلف[١٥].

توجد مخطوطات لهذا الكتاب يذكرها بروكلمان: مخطوطة المتحف البريطانى رقم ٩١٩ ومخطوطة الإسكوريال رقم ١٧٤١ ومخطوطة مسجد يِنِى Yeni فى إسطنبول رقم ٨٥١ وهناك مخطوطة أخرى لا يذكرها بروكلمان موجودة ضمن مجموعة متفرقات فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد [١٦].

هذه المخطوطة الأخيرة التى وجدت فى الموناثيد تحتل رقم ١٠ فى مخطوطات المجموعة [١٧]، وطريقة الكتابة مغربية وهى بلا شك أقدم مخطوطات

الكتاب ويرجع تاريخها إلى عام ٨٤٦ هـ - ١٤٤٣م. ومن سوء الحظ فإن حالة المخطوطة مؤسفة، فهناك عدة ورقات تالفة، واعتبارًا من ص ٦١ وحتى نهاية المخطوطة فإن كل الورقات ينقصها جزء من الأسفل بفعل الرطوبة، ولهذا فإن جزءًا كبيرًا من المخطوطة لا يمكن قراءته كما يقول أسين بلاثيوس فى وصفه للمخطوطة (١٨). إن كتاب العزفى الموجود فى المخطوطة المتفرقة المذكورة (وهو هنا كتاب ناقص يتضمن الفصول الستة الأولى فقط) موجود اعتبارًا من ص ٤٨ حتى نهاية المخطوطة أى فى الجزء التالف الذى أشرنا إليه.

ومخطوطة الكتاب الموجودة فى الإسكوريال كتابتها مغربية أيضًا (حررت عام ٩٣٥هـ \ ١٥٢٨) وتتضمن العديد من الأخطاء، أما مخطوطتا لندن وإستانبول فحالتهما سليمة وخطهما شرقى جميل، ويقدمان نصًا سليمًا أمكن لى من خلالهما تصحيح بعض الأخطاء الموجودة فى مخطوطات المكتبات الغربية.

كنت قد أعددت طبعة نقدية للجزء الأول من كتاب "الدر المنظم" تحتوى على أربعمائة ملاحظة، لكننى فى النهاية اختصرت عدد الملاحظات وحذفت بعض فقرات ليس لها علاقة مباشرة بالموضوع. عدلت عن الإشارة إلى أخطاء فى قراءة بعض المخطوطات.

عدلت عن الإشارة إلى أخطاء فى قراءة مخطوطة ما إذا كانت القراءة سليمة فى بقية المخطوطات والإشارة إلى الاختلاف فى استعمال الأدوات أو أسماء الأفعال والمترادفات، ولم أشر كذلك إلى اختصارات الكلمات والجمل فى مخطوطة ما إذا وجدت تلك الكلمات والجمل كاملة فى بقية المخطوطات، وعمومًا فإننى لم أشر إلى النقص الذى يعترى مجموعة ما إذا كانت المخطوطات الأخرى كاملة ولم أشر إلى خصائص إملائية معروفة تميز المخطوطتين الغربيتين مثل كتابة الهمزة أو تغيير الألف بألف مكسورة أو العكس، وباختصار فإننى قد اقتصرت على الإشارة إلى تلك الاختلافات الجوهرية وقد علقت على بعضها فى الترجمة الكاملة للنص.

ولأن النص تعقبه الترجمة ولكى نسهل عملية الطباعة فإننى قد استغنيت عن تشكيل النص حتى فى الكلمات التى يتغير معناها طبقًا للتشكيل، وهناك مخطوطتان من المخطوطات الأربع – مخطوطة مدريد ومخطوطة لندن (وهى الأفضل بكل المقاييس)– مضبوطتان بالشكل، وعليه فإنهما سليمتان من هذه الناحية.

وقد وجدت فقرات لبعض المؤلفين المذكورين فى النص وأشرت إلى ذلك فى الترجمة. هناك بعض الفقرات لبعض المؤلفين وجدتها مصادفة واحتفظت بها لمقالات أخرى ضمن هذه السلسلة.

واستعملت أيضًا – لكن دون فائدة كبيرة – المخطوطة التى ذكرها سيمونيت فى كتاب "تاريخ النصارى" وهى برقم GG-76 فى المكتبة الوطنية بمدريد [١٩]

وهى برقم LXXI فى كتاب غيين روبليس ورقمها الحالى ٥٣٢٤ [٢٠] وهى عبارة عن مجموعة متفرقات حررت فى نهاية القرن الخامس عشر بها فقرات لفقهاء غرناطيين فى ذلك العصر. تتضمن العديد من القضايا الفقهية حررت واحدة تلو الأخرى بلا ترتيب محدد ويتخللها أخبار عجيبة لا علاقة لها بالموضوع وأشعار وفقرات نثرية مجهولة المؤلف وحِكَم مكانها المناسب هو كتاب أدب. وفى الصفحات ٦٣ – ٦٤ وبعد فقرة من كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالى وبلا مناسبة تأتى تحت عنوان "مسالة" فقرات متفرقة بها أخطاء كثيرة وبها سطور من كتاب العزفى [٢١] وبمقارنة هذه السطور بالنص الذى حررته عن الكتاب لم أجد ما يدعو إلى وضعها فى الاعتبار، خاصة وأننى كنت قد قررت اختصار الجزء النقدى، أما فى الترجمة فقد علقت على بعض الاختلافات التى رأيت أنها مهمة.

يبقى لنا فقط – قبل الدخول فى الموضوع – أن أقدم شكرى القلبى للبروفيسور محمد حميد الله الذى عرض – وهو فى زيارة إلى مدريد منذ سنوات – أن يرسل لى ميكروفيلم يتضمن الصفحات الأولى من مخطوطة مسجد يني فى إسطنبول وقد وصلنى الميكروفيلم بالفعل بعد وقت قصير بفضل جهود البروفيسور

صالح توغ وصديقي وزميلي البروفيسور ج.أ.ب هو بكنس الذى أمدني بميكروفيلم عن صفحات طلبتها من مخطوطة المتحف البريطاني.

وكما يدل العنوان فقد حرر الكتاب لإبراز صفات نبي الإسلام وتبرير إرساء الاحتفال بمولده في الغرب، وقد كان يحتفل به في الشرق اعتبارًا من القرن الثالث عشر. (٢٢)

إن الغرض الديني – والمؤلف لا تخفى عنه أخطار ذلك – كان يمكن أن يصطدم بصعوبات كثيرة، فالأمر عبارة عن إدخال بدعة في الغرب الإسلامي. من المناسب هنا أن نتوقف لحظة لشرح هذه الكلمة للقارئ غير المتصل بالثقافة العربية (٢٣). كلمة "بدعة" التي ترجمت كثيرًا على أنها "كفر" هي عبارة عن تجديد أو اعتقاد أو عادة لا تستند إلى سابقة يرجع تاريخها إلى عصر محمد وبالتالي فهي مخالفة له إذن، و تعارضها كلمة سنة.

وكانت البدعة دومًا موضوعًا بارزًا في الإسلام، ورغم أن الكثيرين من المسلمين يقتنعون بأن كل بدعة ضلالة في الجوهر فإنه قد تعين عليهم التنازل وفقًا للظروف، وقد وصلنا هكذا إلى التفرقة بين البدعة الحسنة أو المحمودة والبدعة السيئة أو المذمومة، وهناك درجات بين هذه وتلك. إن المتفقهين في هذا المجال قد عارضوا باستمرار أية بدعة ناظرين إليها بعين الشك ولم تخرج كلها من وصفها بأنها محرمة بمرور الوقت.

كان على العزفي إذن أن يحارب بقوة دفاعًا عن هذه البدعة حتى يمكن اعتبارها بدعة حسنة، وقد انصب الجزء الأعظم من دفاعه على أن هذه البدعة الحسنة سيكون من شأنها القضاء على بدع سيئة انتشرت بين المسلمين كأعياد المسيحيين واحتفال المسلمين بها. إن حديثه المطرد عن ذلك وعن الحالة التي انتشرت في الأندلس وفي المغرب وإشارته إلى الشرق كل ذلك دعانا إلى القيام بهذه الدراسة.

من المعقول إذن أن نترجم الفقرات الأولى من الكتاب وأن نرى كيف أن المؤلف (أو المؤلفين) يقدم سلسلة احتجاجات لكى يوضح سلامة عقيدته حتى لا يهتم بأنه شيعى وهو أمر يبدو أنه قد حدث بالفعل [٢٤] وفيما يلى كلماته [٢٥]:

قال سالك سنن السنة، القائم من أعمال البر بما يضيق عنه وسع المنة المعتصم بجبل الله القوى المتين، المعتمد على لطفه الشامل وفضله العميم المبين، الشيخ الفقيه الأجل، العلم الأكمل، أبو القاسم بن الشيخ الفقيه الإمام، العارف العالم، علم العلماء العاملين المتقنين، ونخبة الفضلاء الصالحين المتقنين، أبى العباس أحمد بن الشيخ الفقيه القاضى العالم المحدث، أبى عبد الله اللخمى، ثم العزفى، من أهل سبتة حرسها الله وأجزل قسمه من عفوه ورضاه، وأنجح عمله وقوله وقصده، وجعل فى ذاته وسبيل مرضاته صدوره ووروده:[٣]

قرأت بإرشاد من أبى (عفا الله عنه ونضر الله وجهه) فى أوائل شهر رمضان المعظم عام ٦٣٣ ما يلى:

أحمد الله حمدًا يليق بجلاله وكماله، فهو الأول والآخر، وأثنى عليه ثناء من يعرف منَّه... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنجينا من عذاب النار يوم القيامة، ونشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وأفضل خلقه، جعله خاتم المرسلين،... وجعل أصحابه يسيرون على نهجه،... وحذرنا من البدع فى السنة والشريعة، فهى محرمة، ورضى الله عن آله الكرام وأنزلهم درجتهم فى الفردوس الأعلى.

يقول المؤلف (رحمه الله وأجزل له الثواب) : إن الخلفاء الراشدين، والصحابة والتابعين وتابعيهم... لم يتوقفوا عن التحذير من البدع، فانتهى المسلمون عن الأمور التى لا أصل لها فى سنة خاتم النبيين... يقول النبى صلى الله عليه وسلم... عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ.

بعد هذه المقدمة يقدم لنا أبو القاسم العزفى نماذج من البدع معروفة، ابتداء بالبدع التى حرمها محمد ويذكر طائفة من الأحاديث النبوية، وهذا أمر لا يهمنا لأنها مادة معلومة، وهناك دراستان لاثنين من أهل أندلوثيا نشرتا حديثًا [٢٦] بعد ذلك يعرب عن أسفه لإهمال مسلمى عصره فى دراسة السنة والعمل بها وهذا هو النص الذى أنشره وأترجمه فى الصفحات التالية بعد حذف بعض الإضافات التى لا تفيد موضوعنا.

ماذا كان بالضبط دور أبى العباس أحمد الملقب بابن أبى عزفة؟ وما كان دور ابنه أبى القاسم فى تأليف الكتاب ؟ ترك لنا المقرى مجموعة أخبار عن الموضوع بل ونقل فقرة طويلة من نسخة من كتاب "الدر المنظم" حررت فى حياة أبى القاسم[٢٧]. تؤكد أخبار المقرى ما جاء فى مخطوطات "الدر المنظم" من أن أبى العباس "شرع فى تأليف" الكتاب لكنه "مات ولم يكمله"، وكان ابنه أبو القاسم هو الذى أكمله و"أوضح فيه قصده"[٢٨] ونعرف أن قصده كان إدخال عيد المولد فى الغرب الإسلامى والتخلص بشكل نهائى من الأعياد المسيحية.

فى أى مرحلة من التأليف كان الكتاب عندما مات أبو العباس؟ لا يذكر لنا تلميذه الرعينى – الذى تحدث عنه باستفاضة فى كتاب البرنامج[٢٩] عن أساتذته – لا يذكر أى شيء عن الكتاب رغم أنه يذكر كثيرًا من الكتب التى يدرسها. مات أبو العباس – كما يذكر الرعينى – فى السابع من رمضان عام ٦٣٣هـ ١٥\ مايو ١٢٣٦م).[٣٠] إلى نفس هذا التاريخ يشير أبو القاسم العزفى فى مقدمة الكتاب التى ترجمتها فيما سبق فى جملة "قرأت على أبى رحمه الله تعالى ورضى عنه ونضر وجهه – فى غرة شهر رمضان المعظم سنة ٦٣٣ فلتم" وهى الجملة التى لم أفهمها بشكل تام لكن يبدو أن معناها أن الكتاب كان فى مرحلة متقدمة من النسخ قبل أيام قليلة من وفاته وأن أبا القاسم قرأه مع والده [٣١] قبل موته بأيام قليلة وتلقى منه دون شك الأمر بإتمامه وهذا ما فعله كابن بار وبحماس حقيقى إذ إن دوره لم يقتصر على إتمام الكتاب بل وضع فكرته موضع التنفيذ.

أعتقد أن أبا القاسم قد اقتصر على وضع الصورة النهائية للكتاب ومحاولة نشره. والأخبار المتعلقة بالعزفيين التى حاولت العثور عليها ليس بها معلومات أخرى عن هذا الموضوع، فلأسباب واضحة لا أعتقد أنه يجب التركيز على ما قاله الأنصارى (القرن الخامس عشر) عن أبى العباس عند الحديث عند نقل رفاته إلى سبته قال إنه (صاحب الدر المنظم فى مولد النبى المعظم) دون أية إضافات أخرى(٣٢)

لن أضيف شيئًا إلى ما قلته عن نشر النص لكننى أريد أن أقول بعض كلمات متعلقة بالترجمة. النص صعب عمومًا لأن المؤلف يفتخر بأسلوبه ويستعمل النثر المقفى باستمرار تقريبًا. إن أهم شيء فى هذه الصفحات بعيدًا عن الأخبار المحدودة عن الأعياد المسيحية فى ذلك العصر – هى فقرات طويلة لمؤلفين أندلسيين آخرين، خاصة ابن بشكوال الذى كان أستاذًا له. علقت على هذه الترجمة بإيجاز وإذا خرجت عن الدقة أحيانًا فذلك لأننى وضعت فى الاعتبار القارئ غير المتصل بالثقافة العربية الذى قد تهمه هذه الدراسة.

وتظهر فى النص مجموعة أسماء لأشخاص ومحدثين شرقيين وغربيين، وأنبه إلى أن بعضهم معروف جدا لقارئ هذه المجلة، لكن أسماءهم قد لا تضيف شيئًا للقارئ العادى. أقدم عنهم فكرة مختصرة وأحيانًا أنوّه إلى دراسات أدبية أو ترجمات من العربية. معظمهم غير معروف إلا للمتخصصين فى الفقه الإسلامى، وقد حاولت الرجوع إلى المصادر الأقرب أو إلى مصادر أخرى عربية. لم أتمكن من التحقق من كل الأسماء المذكورة إذ لم يكن ذلك بالأمر السهل ولا بالأمر الذى يستحق العناء.

كنت قد فكرت فى البداية فى عمل ملحق يتضمن كل الأسماء مرتبة حسب الحروف الأبجدية لكننى فى النهاية فضلت – تسهيلا على القارئ – إعطاء فكرة عن كل مؤلف فى هامش الصفحة لكى يتمكن من متابعة القراءة. حذفت فى

الترجمة الصيغ المعهودة "رحمه الله" "رضى الله عنه" وهى صيغ مستمرة فى النص بالنسبة للشخصيات المذكورة.

وهناك قضية أخيرة: هل حقق العزفيان – الأب والابن – غرضهما من نشر كتاب الدر المنظم؟ ذكرنا أن الهدف كان مزدوجًا: الاحتفال بمولد محمد والقضاء على الأعياد المسيحية. الهدف الأول تحقق تمامًا فى حياة أبى القاسم العزفى رغم أن الاحتفال بالمولد لم يكتسب صيغة رسمية فى المغرب حتى عام ٦٩١هـ ١٢٩٢م فى عهد أبى يعقوب يوسف وفقًا لما ترويه المصادر(٣٣) وهذا معناه أن الأمر كان مقبولا دون أى تحفظ بين الناس. عندى أخبار سأنشرها قريبًا تؤكد أن المولد النبوى كان يحتفل به قبل هذا التاريخ بكثير بشكل غير رسمى فى مملكة غرناطة.

هل قضى المولد على عيد الميلاد؟ نعم وبسرعة دون شك، فحين أصبح للمسلمين مولدهم الخاص لم يكن هناك سبب للاستمرار فى الاحتفال بميلاد المسيح. وظل الاحتفال بالليلة الطيبة قاصرًا على المسيحيين، وهؤلاء تعين عليهم الاحتفال بها خفية فى منازلهم دون أن يشارك المسلمون فى روعتها.

الأعياد الأخرى – الينابر أو النيروز وليلة "العجوزة" وحتى القديس خوان أو العنصرة، وهى احتفالات لها طابع شعبى، استمر المسلمون والمسيحيون فى الاحتفال بها فى الغرب.وعندما كانت المراكب تحمل مسلمى إسبانيا الأواخر إلى إفريقيا حملوا معهم هذا التراث الذى لا يزال يحتفظ به رجال الريف المغاربة بحب. وحتى الآن يحتفل بالعنصرة فى شمال إفريقيا كما يحتفل بالينابر بأشكال جديدة وشعائر جديدة(٣٤).

فى كل القرون الأخيرة للإسلام الأندلسى حتى سقوط غرناطة كان الشعراء يتنافسون فى نوع شعرى جديد: ذكر صفات محمد فى يوم مولده. إن المولديات ستحل محل أهازيج عيسى بالنسبة لنبى الإسلام.

النص العربى
من كتاب " الدر المنظم فى مولد النبى المعظم" للعزفى

نقلا عن المخطوطة رقم ١٠ فى المجموعة، ص٨٤ إلى ٨٥ ظهر، والمخطوطة رقم ١٧٤١ فى مكتبة الإسكوريال، ومخطوطة المتحف البريطانى رقم ٩١٩، ومخطوطة مسجد يِني بإسطنبول.

وانظروا إلى ما جرَّ على أهل هذا الزمن الغيبة عن مجالس العلماء، والمزاحمة بالركب لأهل التقوى، وعصابة الهدى حاملى السنن القائمين بالحق لا يضرُّهم منْ خالفهم فافتتن، لتمسكهم بمناهج السلف اللاحبة(*) السنن. ولا تغترُّوا بمنْ يُنسب إلى العلم وقد اتَّبع فى طاعة النسوان والصبيان هواه، فصدَّه ذلك عن أن يكون قوَّامًا لله بالقسط ولواه، والله تعالى يتداركنا بتوبة نصوح تلحفنا برداء تقواه.

وإن تعجب أيها الناصح لنفسه فعجبٌ من إحصائهم لتواريخهم والاعتناء بمواقيتها، فكثيرًا ما يتساءلون عن ميلاد عيسى (على نبيِّنا وعليه السلام) وعن ينِّير، سابع ولادته، وعن العنصرة، ميلاد يحيى (على نبيِّنا وعليه السلام) فما أعانهم التوفيق، ولا القرين المرشد، ولا الرفيق، أن يكون سؤالهم عن ميلاد نبيِّهم محمَّد (صلى الله عليه وسلم)، خيرة الله من خلقه، وذلك من شكر نعم الله علينا بعض واجبه وحقِّه، هاديهم من ضلالتهم ومرشدهم من غيِّهم، العزيز عليه عنتهم، الحريص على هديهم، الشديد عليه ضلالتهم وفتنتهم، الرءوف الرحيم، شفيعهم الذى ضوعف لهم به ثواب محسنهم وتجووز عن مسيئهم، بل جماهير عامَّتهم ودهمائهم، بل الذين يدعونهم بطلبتهم وعلمائهم لا يعرفونه ولا يتعرَّفون، بل يقتنعون بأنه عندهم فى كتبهم ويكتفون، والحمد لله.

(*) أى الواضحة، انظر "لسان العرب" لابن منظور. (المترجم)

فقد انتهى اليوم إلى العذراء فى خدرها، والحرَّة المصونة فى سترها، ليهلك منْ هَلَكَ عن بيِّنة ويحيا من حيى عن بيِّنة بقيام حجَّتها وانقطاع عذرها، والله يعيذنا من الفتن ويقينا غوائل شرّها، آمين.

قال المؤلف (رضى الله عنه): وأضافوا للتخفِّى عنها بالسؤال، والمحافظة عليها والإقبال، من بدع وشنع ابتدعوها، وسنن واضحة أضاعوها، بموائد نصبوها لأبنائهم ونسائهم وصنعوها، وتخيَّروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التى انتخبوها، والمدائن التى صوَّروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذوو اليسار نصبات فى الديار، كما نصب أهل الحوانيت، فنضَّدوها، فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب، وفى منصَّتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها، ثم باعوها.

ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أنَّ النصبة ببعض بلاد الأندلس (جبرها الله وأمنها) يبلغ ثمنها سبعين دينارًا، أو يزيد على السبعين، لما فيها من قناطير السكَّر وأرباع الفانيذ وأنواع الفواكه، ومن غرائر التمر وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلُوز والقسطل والبلوط والصنوبر إلى قصب السكَّر ورائع الأترجّ والنارنج والليم. وفى بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين درهمًا، إلى نحوها. ولقد شاهدت فى بعض الأعوام سدَّ الحوانيت ممن لا يبيع ما يحتاجون إليه، كسوق القيسريَّة والعطَّارين وغيرها من الأسواق، وفى ذلك لضعفائهم من الدَّلالين وغيرهم قطع المعايش وتعذُّر الأرزاق. ويطلقون الصبيان من المكاتب ويُشربون بذلك قلوبهم حبَّ البدع الرواتب. فهذه أفعالنا، فهل منا من تائب لائم لنفسه معاتب؟

وكان هذا فى ينّير، ثم صنعوا نحوًا منه فى العنصرة وفى الميلاد، فكيف ينشأ على هذه الفتنة إلا مصرٌ عليها مائل إليها من الأولاد، إذ يلقون إليهم أنه من عمل مثل هذا العمل، لم يخل عامه ذلك من رغد العيش وسعة الرزق وبلوغ

الأمل. وربما جعلوا جمَّارةً تحت أسرَّتهم تفاؤلاً وأمارة ليكونوا فى عامهم ذلك أكسى من الجمَّارة، فهل سمعتم يا أولى الألباب بأعجب من هذا العجاب، طاعة ذوى النهى والأحلام من الرجال إلى الولدان وربَّات الحجال.

وأرى أنه ما جرَّ على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى (دمَّرهم الله من جيران) ومخالطتهم لتجَّارهم، ومكاشفتهم عند الكينونة فى إسارهم، ولذلك حذَّرنا من ترائى النيران. قال النبى (صلى الله عليه وسلم)، أنا برئ من كلٍّ مسلم مع مشرك لا تراءى ناراهما. وما سرى ذلك إلى هذه العدوة، إلا بالاتباع لهم والقدوة، وما عبر من ذلك البَّر، إلى هذا البَّر بدعة أشنع منها ولا أضر.

قال المؤلِّف (رحمه الله ونضَّر وجهه وأجزل ثوابه)؛ فإن قيل، فإن كان الأمر كذلك ونبعت هذه العين المالحة من هنالك حتى مدَّت أسيالها وبسطت أطنابها وجرَّت أذيالها، وسقت البطالة، ذوى الطول والاستطالة، حميًا الفتنة وجريانها حتى أشبهوا أجناس النصارى وأجيالها، وقد استقر فى الأنفس أنَّ قرارة علم المغرب الأندلس، وبصائر أهل المغرب فى ذلك مستبينة، وعمل قرطبة عندهم كالعمل بالمدينة، فما للراسخين من علمائها، والنحارير من حكامها، والصالحين من دهمائها، لم يصدعوا فى هذه البدع بالإنكار، بالمواعظ والتذكار، بالعشىِّ والإبكار، والعادة قاضية فى الأمور الكبار، أن تفشو بها الأحاديث ويستفيض بها الأخبار.

فالجواب، والله الموفق للصواب، أنَّ الأخبار قد استفاضت وامتلأت منها الأسماع وفاضت بالزجر والإنكار، والبكع(*) لفاعلها بالتقريع والتبديع بل بالتضليل والإكفار، لكل من أعرض عن رواية الآثار، وتعاطى الفقه وتعرَّض للفتوى، فلا تسأل عن السقوط لليدين والفم والعثار، وقد جمع فى ذلك شيخنا الفقيه الراوية الثقة التاريخى المسند أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصارى القرطبى جزءًا حسنًا هو مما أذن لنا فيه، وكتب به غير مرة إلينا. قال فى باب كراهية

(*) هو الضرب الشديد المتتابع، انظر لسان العرب. (المترجم)

النيروز والمهرجان والميلاد وذمّ الاحتفال لها، وترك تعظيمها والاستعداد لدخولها (وكان يمنع أكل ما يُذبح لها): كان السلف (رضى الله عنهم) وأهل الخير والفضل والدين والورع يكرهون هذه الفصول المذمومة ويعيبونها على فاعلها والمستعمل لها والمحافظ عليها، لأنها أعياد النصارى. وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): منْ تشبَّه بقوم فهو منهم. ثم قال بعد ذلك: فإنى رأيت (عصمنا الله وإيَّاك من مضلاَّت الفتن، وأعاننا على إحياء السنن) الجمهور اللفيف والعالم الكثيف من أهل عصرنا قد تواطأوا على إعظام شأن هذه البدع الثلاث: الميلاد وينّير والمهرجان، وهو العنصرة، تواطؤاً فاحشًا، والتزموا الاحتفال لها والاستعداد لدخولها التزامًا قبيحًا، فهم يرتقبون مواقيتها ويفرحون بمجيئها، ولعمرى لقد نشبوا فى فتنة هوى، أوقعتهم فى بدعة عمى، وشاقُّوا الله ورسوله من حيث لا يعلمون، واستسهلوا هذه البدع حين ألفوها وعظَّموها حتى صارت عندهم كالسنة المتَّبعة، وسكت العلماء (رضى الله عنهم) عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها، وتأنّى السلطان فى تغييرها، وتمكَّن الشيطان من تزيينها، فوقع الناس من هذه البدع فى أمر عظيم، إلا أن يتداركنا الله برحمته.

ثم قال: قال أحمد بن زياد: قال لنا ابن وضَّاح: جاء الحديث أنَّ عمر بن الخطَّاب (رضى الله عنه) قال: اجتنبوا أعياد اليهود والنصارى، فإنَّ السخط ينزل عليهم فى مجامعهم، ولا تتعلَّموا رطانتهم فتتخلَّقوا ببعض خلقهم. قال: وبلغنى أن ناسًا من أهل العراق قالوا لعبد الله بن عمر (رحمه الله): كيف تقول فى النيروز، فإن أهل بلدنا يعظِّمونه ويهدون لنا فيه، كأنهم يسألون عن تعظيمه. قال: لا أدرى ما نيروزكم هذا، منْ تشبَّه بقوم فهو منهم. وذكر الدورقىُّ أنَّ عمر بن عبدا لعزيز (رحمه الله) نهى أن يذهب إليه فى النيروز والمهرجان بشىء.

قال ابن وضَّاح (رحمه الله): حدَّثنا محمَّد بن سعيد بن أبى مريم ومحمد بن يحيى الصدفىّ المصرى قالا: حدَّثنا أسد بن موسى عن الربيع بن صبيح عن أبان بن أبى عيَّاش قال: لقيت طلحة بن عبيد الله بن كريز الخزاعى، فقلت له: قوم من

إخواننا من أهل السنّة والجماعة ما يطعنون على أحد ويجتمعون يوم النيروز والمهرجان ويصومونهما. فقال طلحة: بدعة من أشدّ البدع والله، أشدُّ تعظيمًا للنيروز والمهرجان من غيرهم، ثم استيقظ أنس بن مالك (رحمه الله) فرقيت إليه فسألته كما سألت طلحة، فردَّ عليَّ مثل قول طلحة كأنما كان معه على ميعاد.

وخرَّج فيه عن ابن وضَّاح: قلت لسحنون: إنهم عندنا إذا كان أعياد النصارى قالوا للصبيان: جيئونا ببيض وهدايا نقلبكم إلى الكنائس. قال: أيُّ شيء هذا. قلت: مثل الميلاد والعنصرة يقلبونهم ويأخذون منهم الهدايا. قال هذا بئس الرجل، لا يصلَّى خلفه ويقدَّم غيره إن قووا على ذلك. قال ابن وضَّاح (رحمه الله): وسألت أبا زكريًا يحيى بن سليمان عن إمام يقبل هدايا الصبيان فى أعياد النصارى ويعظِّمها. قال: ما أراه مسلمًا. قلت: لا يُصلَّى وراءه. قال: أنا أقول لك ما أراه مسلمًا وأنت تقول لا يصلَّى وراءه. قال ابن وضَّاح: وسألت سحنون عن ذلك. قال: رجل سوء. قال ابن وضَّاح (رحمه الله): وحدَّثنا بهلول بن راشد عن سفيان الثورى قال: دعى حذيفة بن اليمان (رضى الله عنه) إلى طعام، فلمَّا دخل من باب البيت رأى شيئًا من زى الأعاجم، فرجع وهو يقول: يحذر الرجل أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا وهو لا يشعر. ثم قيل له: وكيف ذلك، أصلحك الله. قال: من تشبَّه بقوم فهو منهم. قال أحمد بن زياد (رحمه الله): سألت محمَّد بن وضَّاح عمَّا يصنع الناس فى أوَّل ليلة من ينَير فقال: بدعة. فقلت له: أفأردُّ ما أهدى إلىَّ. قال: ما أحسن ذلك. قلت له: حسن. قال: نعم، لو استشرتنى فى أن تتصدَّق بمائة دينار، ثم قال: بمائة دينار لا إلا ألف دينار(كذا) أو ترد ما أهدى إليك لأشرت عليك أن تردَّ ما أهدى إليك وتمسك ألف دينار قلت: ويبلغ به هذا كلُّه. قال: نعم.

وسأل محمد بن خميس المعلِّم محمد بن وضَّاح عن ليلة العجوز والذى يفعله أهل بلدنا فيها، فكره ذلك وعابه عيبًا شديدًا، ونزع بآى من القرآن منها قوله تعالى: "ولا تتَّبع سبيل المفسدين"، "ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون". ثم قال محمد بن وضَّاح: لقد أعجبنى أنَّ ابن خميس المعلِّم جعل الصبيان يأتونه فى هذه الليلة

بالهدايا كما يفعل الصبيان، فردَّها وأعجبه ذلك من فعله. قال ابن وضَّاح (رحمه الله): وروى زياد بن عبد الرحمان قال: سمعت عثمان بن عيسى بن كنانة يقول: لا بأس أن يضيِّف مشركًا إذ لم يجد بُدًّا من ذلك. وأكره أن يعظِّم من أعيادهم. قال الله تعالى: "لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون مَنْ حادَّ الله ورسوله" وأكره أن تجمّلهم بثيابكم إلى أعيادهم.

قال ابن وضَّاح (رحمه الله): قلت لسحنون: أرأيت ما كره أيؤكل ممَّا أعدُّوه لأعيادهم، أرأيت الميلاد والمهرجان والنيروز ممَّا يعدُّون لمثل هذا لا يؤكل. قال: نعم، هو من ذلك لا يؤكل كلُّ ما أعدُّوه لهذه الأعياد. قال أحمد بن زياد (رحمه الله): حدَّثنا ابن وضَّاح وإبراهيم بن محمد بن باز عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك قال: بلغنى أنَّ أوَّل ما صنعت الصور حتى عبدت واتُّخذت فى موت نبى مات فافتقده قومه فجعل لهم بعض ما جعل لهم ليأنسوا به. فما زال ذلك حتى كان فيه ما كان وعبدت. قال مالك (رحمه الله): وبلغنى أنَّ عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: إيَّاى وزىَّ الأعاجم.

حدَّثنا ابن وضَّاح (رحمه الله) قال: حدَّثنا أحمد بن عمر وزيد بن البشر قالا: حدَّثنا به عبد الله بن وهب قال: قال لى منْ سمع الأوزاعى (رحمه الله) يحدِّث عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى قال: حدَّثنى عبد الله الديلمى قال: ما ابتدعت بدعة إلا زادت مضيًّا، ولا تُركت سنة إلا زادت هوانًا. قال سفيان الثورى (رحمه الله): وكذلك كلُّ بدعة عليها زينة وبهجة، وسيأتى على الناس زمان يُنكر الحقّ فيه تسعة أعشارهم.

حدَّثنا ابن وضَّاح: حدَّثنا محمد بن يحيى الصدفى، حدَّثنا أسد بن موسى، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة عن عاصم عن أبى عثمان النهدىّ أنَّ عمر (رضى الله عنه) كتب إلى عُتبة بن فرقد، إيَّاكم والتنعُّم وزىَّ الأعاجم.

وقد روينا أنَّ رجلا ولى السوق بقرطبة فبرَّح على الناس فى النيروز ألا يزيدوا على ما فى حوانيتهم. فأعجب فعله ذلك ابن وضَّاح وغيره من أهل العلم. ومما ينبغى لأهل العلم والخير والفضل والدين أن يجتنبوه فى هذه الفصول المذمومة ما يذبح فيها من الحيوان وترك أكل لحمه ويرونه ممَّا أُهلَّ لغير الله به. وقد سمعت شيخنا أبا محمد بن عتَّاب (رحمه الله) يوم النيروز وهو يحكى عن أبيه (رحمه الله) ومكانه من الفضل والدين والعلم مكانه أنه كان ينهى عن أكل اللحم فى هذه الفصول، وكان يقول إنه إنما أُهلَّ به لغير الله، ويشدِّد فى ذلك.

وقد قيل لعبد الرحمان بن عيسى بن مدراج: ما قولك فى قوم من أهل الخير يجتمعون ليلة قبل ينّير أو ليلة بعده مع أقاربهم وأصهارهم فيأكلون الإدام والفاكهة ويجتنبون الليلة المذمومة؟ فقال: كلُّ ذلك منه وحواليه، ومنع ذلك. وقد قال غيره: أىُّ بدعة أفحش وأسمج من أن يكون المسلمون يحتفلون ويستعدُّون لدخول شهر أو سنة من شهور العجم وهم أعداؤنا وإنما عاديناهم على كفرهم بالله، وقد قال تعالى: "يأيها الذين آمنوا، لا تتَّخذوا عدوى وعدوّكم أولياء تُلقون إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق..." فأىُّ مودَّة أبين من تعظيم أعيادهم. وأىُّ ولاية تكون أعظم من التشبُّه بهم والتفخيم لأمرهم والمشاركة لهم فى ضلالهم وكفرهم، يا لها مصيبة ما أجلَّها، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

إنَّ من أعظم أسباب هذه البدعة وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها والتفخيم لشأنها وانقيادهم لهنَّ فى ذلك عامًا بعد عام حتى رسخت فى صدورهم وتصوَّرت فى عقولهم وتاقت إليها أنفسهم، وقد نبأنا القرآن ونبأهم بما امتحن الله به آدم (عليه الصلاة والسلام) من البلاء والندم لمَّا أطاع حوَّاء زوجه على أكل الشجرة. وقد جاء فى الحديث عنه (صلى الله عليه وسلم) قال: شاوروهنَّ وخالفوهنَّ. وقال (صلى الله عليه وسلم): طاعة النساء ندامة.

قال بعض العلماء: لو أنَّ رجلا قام السنة كلَّها وصامها إلا ما لا يُصام منها ولا يُقام، وفعل ذلك بنيَّة خالصة لله صادقة، إلا أنَّه يساعد أهله ويستعدُّ لتلك الليلة

المبتدعة، ورجلا آخر لا يزيد على الفريضة وهو ممنْ لا يستعدُّ لتلك الليلة إلا بما كان يفعله أبدًا فى غيرها من الليالى حذرًا لشرِّها واجتنابًا لبدعتها، لكان هذا الرجل الذى لا يزيد على الفريضة عند أهل العلم والورع أفضل من ذلك المجتهد المتلطِّخ بالبدعة وأهدى وأتقى.

ولا تُقبل للذى يستعدُّ لها شهادة، ولا يصلَّى خلفه إلا أن يتوب إلى الله، عزَّ وجل، من ذلك توبة صادقة. ولا تقبل هدية لأحد فى يوم النيروز، ولا فى ليلة المهرجان، وفى ليلة يسمونها ليلة العجوز. ومنْ قبل الهدية فى هذه البدع الثلاث من أحد، فقد شرك المبتدعين لها فى إثمها وعارها.

ومما ينبغى أن يشدَّد على الناس فيه ما يصنع فى النيروز من الصور المنهى عنها التى وردت الآثار عن النبى (صلى الله عليه وسلم) بالمنع من فعلها، لقوله (عليه الصلاة السلام): منْ صوَّر صورة كُلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدًا. وقال (عليه السلام): لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة. وقال ابن عباس (رضى الله عنه) لرجل سأله عن ذلك،: إن أبيت، أخى، فعليك بالشجر وبكل ما لا روح له.

ومما فتن الناس فيه السؤال عن مولد عيسى (عليه السلام)، فكثيرًا ما يتساءلون عنه. أوَ لَيس كانوا بميلاد نبيِّنا محمد (عليه السلام) أولى والتهمُّم به ومعرفته؟ فكثير منهم لا يعلمون ذلك.

ومولده (صلى الله عليه وسلم) عام الفيل يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل وتوفى (صلى الله عليه وسلم) ضحى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل سنة إحدى عشرة من الهجرة (صلى الله عليه وسلم وشرَّف وكرَّم). هذا أولى أن يُسأل عنه ويُتهمَّم بمعرفته وحفظه لفضله وبركته (صلى الله عليه وسلم).

وقد كان (رحمكم الله) جماعة من السلف الصالح يصبحون فى يوم ينّير صيامًا، ويأتون المساجد فيقيمون يومهم فيها يصلُّون ويذكرون الله فيها، ولا يأكلون يومهم ذلك إدامًا ولا فاكهة. وقد كان خالد بن سعد قال: حدِّثت عن شيوخ بنى قاسم بن هلال أنهم كانوا إذا كانت ليلة ينّير ليس يوقد عندهم نار ولا يُطبخ عندهم شىء. حكى أيضًا قال: سمعت محمد(ا) بن مسروق يقول: كان عندنا قوم يُقال لهم بنو الأسباط كان لا يوقد عندهم نار ليلة ينّير، أو كما قال، وكانوا علماء (رحمهم الله وغفر لهم).

وذكر ابن حبيب (رحمه الله) عن بعض حكماء السلف أنه كان يقول: إيَّاكم، يا معشر النساء، لا ترششن بيوتكنَّ بالماء يوم العنصرة، ولا تلقين فى ثيابكنَّ ورق الأكرنب ولا تغتسلن فى ذلك اليوم إلا من جنابة، فمنْ فعل ذلك منكنَّ فقد شرك فى دم يحيى بن زكرياء (صلى الله عليه وسلم).

قلت: وممَّا استفدته من المطالعة، وهو نصٌ فى الباب والحمد لله، ما ذكره أبو الفتح محمد بن أبى الفوارس فى أماليه التى يرويها أبو القاسم عبد الواحد بن علىٍّ بن محمد بن فهد العلاَّف: حدَّثنا أبو الفضل عبيد الله بن محمد الحاكم بمرو، قال: حدَّثنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدىٍّ، قال: حدَّثنا محمد بن عوف الحمصى، قال: حدَّثنا الفريابى محمد بن يوسف. قال: حدَّثنا سفيان عن الوليد أو ابن الوليد عن عبدا لله بن عمرو بن العاص عن النبىِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: منْ نشأ فى أرض الأعاجم فصنع نيروزهم ومهرجانهم حُشرَ معهم يوم القيامة.

قال المؤلِّف (رحمه الله ونضَّر وجهه): ما زلت حريصًا على رفع هذه البدعة ودفع هذه الشنعة وإطفاء هذه الفتنة، والاعتصام بالله ممَّا يعاقب به أهل هذه المحنة ولم يكن والحمد لله لى على ذلك سلطان، ولا حمت على تلك الموارد، ولا ألممت بتلك الأعطان، ولا أجبت من دعانى إلى ذلك من الراحلين ولا القطَّان. وأدركت الحكَّام قد قسمهم الزمان بقسمين وحلاهم بوسمين، إمَّا آمر بمعروف فيها بغير عزيمة، تقضى على جيش البدع بالهزيمة، وإمَّا مغمور بجاهه وولايته،

معرض عن تعهُّد قوانين الإسلام ورعايته، فبعلت بهذا الداء(*)، وشغر(**) الوقت عن حاكم ذي غيرة وتيقظ واهتداء، يعين على أهل البطالة والاعتداء، بمشاركة ونصرة ومعونة ولو بالأعداء، اللهمَّ غفرًا، وشكرًا لنعمتك علينا معاشر أهل السنَّة لا كفرًا، ما خلى الغرباء المتمسكين بالكتاب الحاملين للسنن المحافظين على إقامتها وإحيائها بعد إماتتها بقوى مؤيَّدة من الحق ومنن، القائمين بها على غايات الدهر وأطراف الزمن، الهادين المهتدين لسلوك واضحة المنار ولاحب السنن...

* * *

قال المؤلِّف (رحمه الله ورضى عنه): فأمعنت النظر، وأعملت الفكر فيما يشغل عن هذه البدع ويدفع فى صدر هذا المنكر، ولو بأمر مباح، ليس على فاعله جناح، بما تطمئنُّ إليه نفوسهم، وتمتد إليه أعناقهم وتميل رؤوسهم، فعلم الله النيَّة واطِّلع الطَّوية، فألهمنى (سبحانه) أن أنبِّههم على أمر إذا تقرَّر لديهم قامت الحجَّة عليهم دينًا ودنيا، وانقطع العذر إذا تعوضوا منه أحسن عوض، يقوم به الشفاء ويطعن به المرض، فنبَّههم على ميلاد نبيِّهم المصطفى، سيد ولد آدم، خاتم النبيِّين (صلى الله عليه وسلم)، وإنَّ من العجب الإقبال على ما لا يغنى والإعراض عمَّا وجب، فكثيرًا ما يسألون عن ميلاد عيسى (على نبيِّنا وعليه السلام) وينتظرون الانتهاء إليه من الأيَّام، فيا أمَّة محمد، ويا خيرة الأمم، كفى بنا جفاء أن لا نعرف ميلاد نبيِّنا (عليه أفضل الصلاة والسلام) ولا نتعرَّفه وهو أهم، ونتعرَّف ميلاد غيره من الأنبياء، كميلاد عيسى، ويحيى بن زكرياء، ولا علم لنا بهما فيما جاء من الأنباء. أو لم يكن سؤالهم عن ميلاد نبيِّهم (عليه أفضل الصلاة وأطيب السلام والتحيَّات) أحلّ وأولى، والتهمُّم به وبمعرفته أحمد سعيًا....؟

(*) قوله بعلت بالداء: عنيت به فلم أدر كيف أصنع فيه.
(**) شغر البلد: خلا من الناس، ذكره الجوهريُّ فى صحاحه.

الهوامش

(١) حول هذه الأعياد انظر:

Encyclopedie de l;Islam, III, 1032-33 (artículos de E. Mittwoch).

(٢) على العكس من ذلك، فالأخبار التى لدينا الخاصة بالأندلس قليلة. انظر كتاب "تاريخ إسبانيا" *España Musulmana* الذى يشكل الجزء الخامس من كتاب ليفى بروفنسال *Historia de España* ص ٢٨٢ – ٢٨٣. وفيما يتعلق بعيد الأضحى فقد نشرت منذ سنوات ترجمة لمقامة كتبها شاعر من مالقة فى القرن الرابع عشر. انظر:

"La Maqama de la fiesta" de Ibn Murabi al Azdi, en Etudes d;Orientalismo dediles a la memoire de Levi Provencal, Paris, 1962, II, 591-603:

(٣) حول هذا العيد انظر:

Enciclopedia de l; Islam, III, 949-950 (art. De R. Levy)

(٤) انظر كتاب ليفى بروفنسال المذكور، ص ٢٨٣.

(٥) انظر كتاب هنرى بيريس حول الشعر الأندلسى.

La poesie andalouse en arabe classique au XI siecle , Paris, 1953, p. 303.

(٦) المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٧) موسوعة الإسلام المذكورة ص ٥٣٠-٥٣١.

(٨) Cf. Infra, pp. 7 y 9-10

(٩) انظر:

Adam Mez, *El Renacimiento del Islam*, trad. De salvador Vila, Madrid, 1936, p. 499.

(١٠) عنوان الكتاب "الأعمال الكاملة لابن قزمان" أعلن المؤلف عن قرب ظهوره فى مقال بعنوان "مدخل إلى عروض ابن قزمان" نشر فى مجلة الأندلس عام ١٩٦٨، ص ٢٤١-٢٩٠.

(١١) انظر كتاب المقرى "أزهار الرياض"، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٤٠، ص ٣٧٥-٣٧٦

(١٢) انظر:

Charles E. Dufourcq, *La question de Ceuta au XIII siecle*, en Esperes, XLII (1955), pp. 67-127.

(١٣) انظر:

L;Espagne catalane et le Maghrib aux XIII siecle, Pàris, 1966.

(١٤) – انظر كتاب بونس بويجس عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين.

Ensasyo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo españoles, Madrid 1898, pp. 280-281.

(١٥) – انظر:

Le genre des poemes de Nativite (maludiyya-s) dans le royaume de Grenade et au Maroc, du XIII au XVII siecle, en Hesperis, XLIII (1956), pp. 335-347.

(١٦) – انظر الملاحظة القادمة.

(١٧) – راجع كتاب أسين بلاثيوس وريبيرا:

Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta, Madrid, 1912, pp. 53 y 55-56.

الكتاب يدور حول مولد النبى.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩)– انظر كتاب سيمونيت:

Historia de los muzárabes de España, 1897 -1903, p. 618 y nota 1.

(٢٠) انظر كتاب غيين روبليس عن المخطوطات العربية فى مكتبة مدريد الوطنية:

Catalogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid, Madrid, 1889, p. 35.

يطلق غيين روبليس على الكتاب عنوان:

Colección de consultas y resoluciones sobre cuestiones religiosas y jurídicas.

(٢١) من الغريب أن سيمونيت لم يستغل هذه الفقرة الطويلة التى تتضمن تفاصيل مهمة عن الموضوع وأن يقتصر على قراءتها قراءة عابرة وأن يختصرها فى سطور قليلة.

(٢٢) نذكر فى هذا العدد ابن دحية الإسبانى مؤلف كتاب "المطرب" الذى ألف عام ٦٠٤٥هـ ١٢٠٧١م "كتاب التنوير فى مولد السراج المنير" عن الاحتفال بمولد محمد . عن ابن دحية انظر مقالنا فى موسوعة الإسلام . انظر أيضا عن المولد مقال هـ فوكس فى موسوعة الإسلام.

(٢٣) فى العرض التالى استخدم ما جاء فى "موسوعة الإسلام":

Enc. De l;Islam, I, 123435 (de) Robinson)

(٢٤) يفهم ذلك من حكاية يرويها ابن الخطيب عن أحد هؤلاء الرواد واسمه أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى عام (٧٤٩هـ\١٣٤٩م): كان ذات يوم يتحدث عن العزفيين فى موضوعات دينية فقالوا له إن العزفيين كانوا يحبون أهل البيت فأى نوع من الحب

تشعر به تجاههم؟ أجاب: "حبى لهم حب التشرع لا حب التشيع" انظر كتـــاب المقـــرى "نفح الطيب"، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩، الجزء السابع، ص ٣٨٩.

(٢٥) الفقرة الأولى وردت فى مخطوطة المجموعة وهى مختصرة فى المخطوطـــات الأخـــرى. استعمل أيضا نص هذه الفقرة الذى يرد فى كتاب "أزهار الرياض" للمقرى وهى فقـــرة نقلها المقرى من مخطوطة نقلها عن أبى القاسم فى حياته.

(٢٦) هاتان الدراستان هما "البدع والنهى عنها" لمحمد بن وضاح القرطبـــى الأندلســـى (دمشـــق ١٣٤٩ هـــ) و"كتاب الحوادث والبدع" لأبى بكر محمد بن الوليد الطرطوســـى (تـــونس ١٩٥٩).

(٢٧) انظر المقرى:"أزهار الرياض"، الجزء الثانى، ص ٣٧٥.

(٢٨) نفس المصدر.

(٢٩) برنامج شيوخ الرعينى، (دمشق ١٣٨١هـــ١٩٦٢م).

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) يقول بونس بويغس فى كتابه "إن أبا القاسم كان قد قرأ الكتاب مع والـــده عـــام ٦٣٣هـــــ" ويقول فى الهامش: "إن واستندفيلد يؤكد أنه مات عام ٥٧٠. وقد ذكرنا أن بـــونس قـــد اخطأ فيما يتعلق بالمؤلف".

(٣٢) انظر:

Levi Provencal, Une description de ceuta musulmane au XV siecle, en Hesperis, XII, (1931), pp. 145- 176.

(٣٣) انظر مقال أحمد سلمى الذى أشرنا إليه فى الملاحظة رقم ١٥.

(٣٤) حول هذا الموضوع انظر دراسة:

Alfred Bel, *La Ansara flux et rites du solstice d;ete en Berberie, Melangues Demomlynes*, Cairo, 1935-1945, pp. 50-83.

الاحتفال بأعياد مسيحية فى الأندلس
مصادر لدراسة الموضوع
الجزء الثانى: نصوص الطرطوشى والقاضى عياض والونشريسى

فيرناندو دى لاغرانخا

فى الجزء الأول من هذه الدراسة - الذى نُشِرَ فى العدد السابق من هذه المجلة- عرضت نصًّا مهمًّا غير منشور يفيد فى دراسة الأعياد المسيحية فى الأندلس[1]. فى هذا الجزء الثانى أجمع - وأترجم- نصوصًا جديدة حول الموضوع نفسه وردت كلها تقريبًا فى مصادر عربية تتحدث عن الأعياد بشكلٍ عام ثم تتحدث عن علاقتها "بالبدعة" وهو مصطلح أسهب فى شرحه كل من أبى العباس وأبى القاسم العزفى فى كتاب "الدر المنظم فى مولد النبى المعظم" كما رأينا، وسيحدث ذلك أيضًا فى النصوص الأخرى التى سنعرضها الآن.

المصادر التى أجمعها فى هذا الجزء والدراسة كلها سبق نشرها لكنها لم تترجم إلى الإسبانية بل لم يتم تحليلها على حد علمى: عمومًا، ولأن النصوص مُدرجة فى كتب ليست متاحة، رأيت أنه من المناسب كتابة هذه النصوص وهى كلها قصيرة باستثناء « نص» واحد وقد أعدت كتابته هنا لأنه مدرج فى كتاب نادر وصعب القراءة ذلك لأن طبعته المغربية- التى نُشرت فى القرن الماضى- سيئة.

عند نشر النصوص المختلفة راعينا الترتيب الزمنى للمؤلفين ولجامعى الكتب. فيما يتعلق بالكتب - ومع مراعاة أن جامعى الكتب فقهاء من عصور مختلفة- نشرت النصوص طبقًا لترتيب ظهورها فى الكتب. علينا أن نضع فى الاعتبار أننى فى هذه الصفحات أحاول فقط التعريف بالمصادر القليلة التى تشير إلى الأعياد المسيحية فى الأندلس واحتفال المسلمين بها، وأننى أنوى نشر دراسة أعالج فيها التصور الناتج عن عدم ترتيب المعلومات المتفرقة والنصوص التى

أستعملها. فى الدراسة التى أعدها سأجمع كل البيانات التى حصلت عليها حول الموضوع: بعضها معلوم جيدًا والبعض الآخر مدرج فى كتب عربية لم تترجم إلى الإسبانية بل إن بعض هذه النصوص لم يُنشر بعد.

١- كتاب "الحوادث والبدع" لأبى بكر الطرطوشى:

أشرت فى المقال الأول من هذه السلسلة[٢] إلى كتابين غربيين وُضعا خصيصًا لمقاومة البدع ولتحذير المسلمين الأتقياء من أخطار الوقوع فيها. الكتاب الأول هو كتاب "البدع والنهى عنها" لمحمد بن وضَّاح[٣] ليس فيه – للأسف– مادة ثرية يمكن استخدامها فى دراستنا[٤] رغم أن هذا الكتاب يذكره كثيرًا الفقهاء اللاحقون الذين يستشهدون بمذهبه عند الحديث عن احتفال المسلمين بالأعياد المسيحية. على ما يبدو فإن منْ جمع هذا المذهب هم تلاميذ ابن وضَّاح ولم يحرر هو هذا الكتاب على الأقل.

وقد كتب ابن وضَّاح كتابًا آخر عن البدع بعنوان "اتقاء البدعة" تُحفظ نسخة منه فى جامعة برنستون[٥] وربما كان هذا الكتاب يتضمن بيانات أخرى عن الأعياد المسيحية.

الكتاب الثانى الذى أشرت إليه عنوانه "كتاب الحوادث والبدع"[٦] وقد ألفه أبوبكر الطرطوشى، مؤلف كتاب "سراج الملوك" ، يعرفه فى إسبانيا حتّى غير المستعربين، فقد ترجمه إلى الإسبانية ماكسميليانو ألاركون[٧]، وقد مات هذا المؤلف – المولود فى طرطوس – عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م أو بعده بخمسة أعوام، ففى ذلك خلاف بين المؤرخين[٨] أى ما يزيد عن قرن قبل تأليف كتاب "الدرُّ المنظم" للعزفى. وجدت فى كتاب "الحوادث والبدع"– وهو ينتمى إلى نوعية كتب ابن وضَّاح الذى أشرت إليه وأكبر منه – وجدت فقرة واحدة تشير إلى الأعياد المسيحية، لكنها مهمة جدًّا رغم قصرها.

هناك كتاب ثالث لمؤلف أندلسى حول البدع. إنه "كتاب الاعتصام" لأبى إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمى، المعروف بالشاطبى (توفى عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨)[٩]. هناك طبعة لهذا الكتاب، لم أتمكن من الاطلاع عليها، نُشرت فى القاهرة فى عام ١٣-١٩١٤ فى ثلاث مجلدات كما يذكر بروكلمان. الطبعة التى اطلعت عليها نُشرت فى القاهرة وهى بدون تاريخ ولا يذكرها بروكلمان[١٠]. وقد صدرت فى مجلدين فقط، وقد ورد فيها فى الجزء الثانى، صفحة ١٣١٦ أن المؤلف لم يتم كتابه. فى هذه الطبعة- التى ترد فيها أخبار مهمة خاصة بالأندلس- لم أجد سوى إشارات قليلة إلى الأعياد المسيحية أو الأعياد "غير العربية" التى يُحتفل بها فى المشرق، والرواية المأخوذة عن ابن وضَّاح ترد فى كتابه "البدع والنهى عنها" وهى رواية يوردها العزفى أيضًا فى كتاب "الدر المنظم"[١١].

الفقرة التى أنقلها عن كتاب الطرطوشى المشار إليها تقول:

«ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان، وكذلك على إقامة ينّير بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجبَّنات والإسفنج، وهى من الأطعمة المبتدعة، وخروج الرجال جميعًا أو أشتاتًا مع النساء مختلطين للتفرُّج، وكذلك يفعلون فى أيام العيد ويخرجون للمصلَّى، ويقمن[١٢] فيه الخيم للتفرُّج، لا للصلاة[١٣]».

يحدثنا الطرطوشى عما كان يفعله مسلمو الأندلس فى أعياد مختلفة- إسلامية ومسيحية – ولا يفرق بين نوعى الأعياد ولا يحدد أهمية كل منها.

العيد الأول الذى يشير إليه هو ليلة السابع والعشرين من رمضان ومن المحتمل أنها توافق ليلة القدر أى الليلة التى أنزل فيها القرآن على محمد وهى ليلة "خير من ألف شهر" وفقًا لنص السورة رقم ٢٧ من كتاب المسلمين المقدس والتى تتحدث بالتحديد عن ليلة القدر. لم يكن هناك أبدًا إجماع بين المسلمين حول تاريخ ليلة القدر التى تكون – طبقًا لغالبية الفقهاء – فى ليالى الوتر من العشر الأواخر من رمضان[١٤].

كان المسلمون فى المغرب الإسلامى يحتفلون بليلة القدر وقد جمعت بيانات حول الموضوع، بل وهناك جدل حول أيهما أفضل هل ليلة القدر أم ليلة المولد(١٥).

الأعياد الأخرى التى ذكرها الطرطوشى صراحة أعياد مسيحية: الينيِّر والعنصرة (خميس أبريل) هذا النص هو الإشارة الوحيدة التى أعرفها لهذا العيد فى الأندلس واحتفال المسلمين به. أى خميس فى أبريل هذا؟ إنه الخميس المقدس كما تدل على ذلك فقرة فى (كتاب) "الخطط" للمقريزى المصرى (المتوفى عام ١٤٤٢م) يشير إليهما محقق كتاب "الحوادث والبدع" فى ملاحظة هامشية. عندما يشير المقريزى إلى الخميس المقدس (خميس العهد) ويقول إن المسيحيين فى هذا اليوم يحيون ذكرى غسل المسيح لأقدام تلاميذه لكى يعلمهم التواضع، يضيف:

«فى أيامنا هذه يسميه العامة فى مصر "خميس العدس" ففى هذا اليوم يطبخ المسيحيون العدس المصفى، ويسميه السوريون "خميس الأرز" أو "خميس البيض" ويسميه أهل الأندلس "خميس أبريل" وأبريل اسم شهر من الشهور»(١٦).

لا يذكر لنا الطرطوشى ما إذا كان المسلمون يشاركون بشكل آخر فى هذه الاحتفالات المسيحية بالإضافة إلى تناولهم المأكولات التقليدية التى كان يتناولها المسيحيون: الفواكه فى يناير، والمجبَّن فى العنصرة، والكعك والمجبنات فى الخميس المقدس، وربما كانت هذه الأطعمة هى أساس الحلوى التى يتناولها المسيحيون فى الأسبوع المقدس.

الفقرة الثانية ليس من الواضح ما إذا كانت تشير إلى الأعياد المسيحية (أعتقد شخصيًّا أنها تشير) لكنها على أية حال تمدنا بمعلومة أخرى حول الحرية التى كانت المرأة الأندلسية تتمتع بها. (*)

(*) مؤخرًا نشرت الدكتورة مانويلا مارين الأستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بمدريد كتابًا عن المرأة فى الأندلس، وربما تصدر ترجمته العربية عن المركز القومى للترجمة. (المترجم)

٢- "ترتيب المدارك" للقاضى عياض السبتى:

كان قاضى سبته أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى (المتوفى عام ١١٤٩/٥٤٤) معاصرًا لأبى بكر الطرطوشى، وقد خصص له المقرى كتاب "أزهار الرياض" - رغم أن الكتاب يشتمل على موضوعات أخرى. كان القاضى عياض شخصية وثيقة الصلة بالتاريخ السياسى والدينى للأندلس (كان قاضيًا لغرناطة) وكتب - بين مؤلفات أخرى- كتابًا عن الفقهاء المالكيين وخصص جزءًا كبيرًا من كتابه للأندلسيين. عندما قرأت هذا الكتاب، وعنوانه "ترتيب المدارك"، الذى نُشر منذ سنوات[١٧] وجدت طرفة مهمة عن حياة أبى بكر يحيى بن هذيل Hudayl "شاعر وقته" كما يقول ابن الفرضى[١٨] وهو تأكيد ينبغى أن يؤخذ على محمل الجد. إن أشعار أبى بكر يحيى بن هذيل هذا التى وصلت إلينا - خارج ما كتبه الذين أرَّخوا له- قليلة. يكفى أن نذكر أن المقرى لم ينقل عنه سوى قصيدة قصيرة من ستة أبيات[١٩] وحكاية ترجمها شاك Schack عن لقائه ابن القوطية فى حملة قرطبة وبيت الشعر الذى ردَّ به ابن القوطية على سؤال صيغَ فى بيت شعر، وهى حكاية استعان بها خوليان ريبيرا لرسم صورة لذلك المؤرخ الشهير فى مقدمة ترجمته لكتاب "تاريخ افتتاح الأندلس"[٢٠]. مع ذلك يبدو أن ابن هذيل كان شاعرًا كبيرًا بالفعل أو على الأقل كان كذلك فى نظر الناس، ففى طبعة حديثة لكتاب "التشبيهات من عصر أهل الأندلس" لأبى عبد الله محمد الكتانى Kattani، وهو معاصر ليحيى بن هذيل، يرد ما لا يقل عن ٢١٢ فقرة شعرية له من إجمالى ٧٦٠ فقرة وردت فى الكتاب[٢١].

الحكاية التى حفظها القاضى عياض والتى لا أذكر أننى وجدتها فى أى مصدر آخر والتى لم تسترع انتباه أحد على ما أعتقد- وردت هكذا:

«ومن أخباره أنَّ الناصر كان قد أنذر الخطباء والشعراء بحضور خيل الحلبة فى المهرجان. قال ابن هذيل: فجاءنى الأمر بذلك، عشيَّ نهارها. فخلوت

بقيَّة يومى والنصف من ليلتى، لم أنظم كلمةً. فأويت إلى فراشى، أخذتنى عينى، فكنت أرى شخصًا فى المنام يقول لى: ترقد يا أبا بكر، ولم يُفتح عليك. ثم يقول:

مشاهد يلزمنا حضورها   للخيل حتى تنقضى أمورها

وهببت سريعًا وقد توقَّد خاطرى وافتتحت بهذا الابتداء، وانثالت علىَّ القوافى. فجئت بأرجوزة حسنة. غدوت بها أوَّل منشد[٢٢]».

هذه الفقرة تقدم لنا الدليل الأول – غير المعروض على ما أعتقد والذى لم يبرزه المحقق– عن الاحتفال بمسابقات الخيل فى "المهرجان" أو "العنصرة"، أى فى أثناء الاحتفال بالنبى يحيى San Juan Bautista التى كان ينظمها ويرعاها عبد الرحمن الثالث نفسه والتى كانت تتم فى ساحة قصر الخليفة والتى واكبها – على الأقل فى تلك المرة – مهرجان شعرى.

حول مسابقة الخيل فى عيد النبى يحيى تحدثنا نصوص أخرى جمعتها فى هذا المقال. إن الفقرة المهمة التى وردت فى كتاب القاضى عياض تخبرنا – دون تعليق، وهو ما يعنى أن الأمر لم يكن جديدًا – أن أول خليفة أموى إسبانى كان يشترك بشكل أو بآخر فى احتفالات رعاياه المسيحيين.

٣- "كتاب المعيار المغرب" للونشريسى:

فى مجموعة الفتاوى الكبيرة التى تندرج تحت عنوان "كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب"– التى رجعت إليها فى أكثر من مناسبة[٢٣] والتى تحتوى على مضمون فى غاية الأهمية والتى لم يترجم منها إلا جزء يسير– يعرض المؤلف أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى (٨٣٤-٩١٤/١٤٣٠-١٥٠٨) حكايات تشير إلى أعياد مسيحية فى الأندلس (وفى شمال إفريقيا) واحتفال المسلمين بها. فى المقال الأول من هذه السلسلة رأينا– من خلال كتاب "الدرُّ المنظم" لأبى العباس العزفى وابنه أبى القاسم– آراء عدد من فقهاء الأندلس وشمال إفريقيا حول الموضوع الذى كان مدعاة للقلق فى مختلف

العصور بالنسبة لفقهاء المالكية. من هنا كانت الأسئلة التى وردت إلى فقهاء الأندلس والمغاربة الذين أدانوا تلك الاحتفالات بالإجماع. إن النصوص التى جمعها الونشريسى فى كتابه نجد فيها الأسباب نفسها التى ساقها العزفى، بل والجمل نفسها فى بعض الأحيان لبعض فقهاء الأندلس الذين يرد ذكرهم فى كتاب "الدرّ المنظم". من الطبيعى أن ترد نفس الأحاديث أو ما يشابهها فى الكتب المختلفة. ولما كانت النصوص فى كتابى "الدر" و"المعيار" ليست متطابقة تمامًا ولا تتفق إلا فى نص ما، ولما كان "المعيار" كتابا يصعب العثور عليه فى المكتبات وقراءته صعبة لأن طبعته سيئة، وخطها سيئ (خطوط كثيرة) وورقه سيئ (مما أدى إلى انسكاب الحبر ومحو بعض الكلمات)[٢٥] لذلك كله قررت نقل هذه النصوص- وهى عملية أكثر صعوبة من قراءة مخطوطة متوسطة المستوى - لكى تتوافر لدينا المادة العلمية اللازمة لدراستنا.

من الغريب أن الونشريسى لم يستخدم كتاب "الدر المنظم" وأنه لا يكاد يذكره عندما يشير إلى الاحتفالات المسيحية. إذا كان لم يعرف الكتاب فقد استعان بمصادر أخرى لم يستخدمها العزفى وعليه فإنه يقدم أخبارًا جديدة ومهمة لمؤلفين قدامى لا يرد ذكرهم فى "الدر".

فى الصفحات التالية سنورد كل فقرة مع ترجمتها الإسبانية ونراعى ترتيب كل فقرة ضمن كتاب "المعيار".

(١)

تنتمى هذه الفقرة الأولى للونشريسى إلى مجموعة فتاوى حول البدع جمعها هو نفسه وربما كانت مكتوبة قبل أن يشرع فى كتابة "المعيار". هذا الفصل الذى يشغل الصفحات ٣٥٨-٤٠١ من المجلد الثانى ليس له عنوان ويبدأ بجملة "فصل أذكر فيه المستحسن من البدع وغيرها[٢٦] "رغم أن كتاب "المعيار"- نظرًا لتاريخ

تأليفه – لا يهم موضوعنا، فقد رأيت أنه من المناسب أن أورد هذه الفقرة نظرًا لأنها تتضمن نعتًا لفقيه يُدعى ابن الحاج.

منْ كان ابن الحاج هذا؟ على مدى وقت طويل كنت مقتنعًا بأنه عبد الله محمد بن العبدرى المعروف بابن الحاج وهو عالم من فاس ذائع الصيت توفى عام ٧٣٧هـ/٣٧-١٣٣٩ ومؤلف – من هنا ظنى – كتاب ضد البدع عنوانه "مدخل فى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة" وهو كتاب أورد ابن فرحون نبذة عنه[٢٧]. ومع ذلك فإن قراءة كتاب "المعيار" تدعونى إلى الظن أنه فى الحقيقة القاضى أبو عبد الله بن الحاج كما يسميه الونشريسى عندما يورد بعض فتاواه. من هذه الفتاوى نعلم أنه إسبانى ونعرف العصر الذى عاش فيه[٢٨]. أعتقد إذن أنه محمد بن أحمد بن خلف إبراهيم بن اللُّب التُّجيبى قاضى جماعة قرطبة الذى اغتيل فى المسجد عام ٥٢٩/١١٣٥ بينما كان يؤدى الصلاة.[٢٩]

«ومنها أن يُباع من النصارى شىء من مصالح عيدهم من لحم أو إدام أو ثوب. قال ابن الحاج: ولا يعارون دابَّة ولا يعانون على شىء من عيدهم لأنَّ ذلك من تعظيم شركهم وعونهم على كفرهم. وينبغى للسلطان أن ينهو (كذا) المسلمين عن ذلك، وهو قول مالك وغيره، ولم أعلمه اختلف قوله فى ذلك. قاله فى مختصر الواضحة[٣٠]».

(٢)

ينقل الونشريسى فى هذه الفقرة فتوى لأبى الطيب – ولا يذكر غير كنيته ولهذا فلم أتمكن من التعرف عليه– حول الهدايا التى يتلقاها المعلم فى المدرسة يوم عاشوراء[٣١]. وفى أعياد أخرى (أى إسلامية). الفتوى واضحة: ليس هناك ضرر فى ذلك. لكن حتى لا يفهم السائل أن الفتوى تشمل أيضًا الأعياد المسيحية (وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد أن الأعياد المسيحية كانت شيئًا مألوفًا) يعلن أبو الطيب أن العادة غير جائزة.

«وسئل أبو الطيب عمَّا يأخذه المعلِّم فى عاشوراء والأعياد، فأجا[ب]: لا بأس بالأخذ فى عاشوراء وأعياد المسلمين، وأمَّا أعياد العجم فلا يجوز أخذه وعليه ردَّه إلى أصحابه فإن لم يعرفهم تصدَّق به[٣٢]».

(٣)

سؤال ورد إلى محمد بن عمر بن لبابة حول ما يفعله المسلمون يوم القديس خوان. المفتى- وهو واحد من أبرز فقهاء عصر الأمير عبد الله أو أبرزهم على الإطلاق إذا اعتمدنا ما يقوله عنه ابن هذيل - برز من بداية حكم عبد الرحمن الثالث وحتى وفاته فى ٣١٤هـ/٩٢٦م.

«وسئل محمَّد بن عمر بن لبابة عما يفعله الناس بالبادية يوم العنصرة من نشر الثياب وصمٍ[٣٤] الخيل قبل الصلاة أسنَّةٌ أم مستحبٌّ أم مكروه، فأجاب: مجانين الحاضرة يفعلونه وهو خطأ فى الدين والأدب[٣٥]».

إن أهمية هذه الفقرة تكمن فى أنها تذكر أن العنصرة كان يُحتفل بها فى إسبانيا الإسلامية، ليس فقط فى قرطبة ومدن أخرى كما نعلم، بل فى الريف، وهذا كان مسموحًا به نظرًا لطبيعة الاحتفال.

(٤)

الفقرة الرابعة عبارة عن سؤال موجه إلى أبى الأصبغ موسى بن محمد التطيلى وإجابة مسهبة عن السؤال. لم أتمكن من التعرف على هذا الفقيه الذى يظهر اسمه فى النص على أنه "أبو الأصبغ عيسى بن محمد التميلى" ويصوب الاسم فى الهامش[٣٦]. فى بداية الفتوى هناك ربط لا داعى له لليلة اليناير بالميلاد لا نجده فى أى نص آخر. ربما كانت الجملة مبتورة ويجب أن نفهم أنها تشير إلى احتفالين لا احتفال واحد. وأيًّا كانت شخصية أبى الأصبغ (وهو إسبانى دون شك) فمن المؤكد أنه يستند فى فتواه إلى فقرة ليحيى بن يحيى الليثى وهو شخص

معروف ليس فقط كفقيه وإنما لدوره فى ثورة الربض فى قرطبة التى قمعها الحكم الأول(٣٧).

«وسئل أبو الأصبغ موسى بن محمد التطيلى عن ليلة ينّير التى يسمونها (كذا، والصحيح يسميها) الناس الميلاد، ويجتهدون لها فى الاستعداد ويجعلونها كأحد الأعياد ويتهادون بينهم صنوف الأطعمة وأنواع التحف والطرف المنويَّة لوجه الصلة، ويترك الرجال والنساء أعمالهم... تعظيمًا لليوم، ويعدُّونه رأس السنة. أترى ذلك- أكرمك الله- بدعة محرَّمة، لا يحلُّ لمسلم أن يفعل ذلك ولا أن يجيب أحدًا من أقاربه وأصهاره إلى شىء من ذلك الطعام الذى أعدَّه لها، أم هو مكروه ليس بالحرام الصراح، أم مستقبل؛ وقد جاءت أحاديث مأثورة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) فى المتشبِّهين من أمَّته بالنصارى فى نيروزهم ومهرجانهم وأنهم محشورون معهم يوم القيامة، وجاء عنهم أيضًا أنه قال: منْ تشبَّه بقوم فهو منهم. فبيِّن لنا - أكرمك الله - ما صحَّ عندك فى ذلك إن شاء الله تعالى».

فأجاب:

«قرأت كتابك هذا، ووقفت على ما عنه سألت، وكلُّ ما ذكرته فى كتابك فمحرَّم فعله عند أهل العلم، وقد رويت الأحاديث التى ذكرتها من التشديد فى ذلك، ورويت أيضًا أنَّ يحيى بن يحيى الليثى قال: لا تجوز الهدايا فى الميلاد من نصرانىٍّ ولا من مسلم، ولا إجابة الدعوة فيه، ولا استعداد له، وينبغى أن يجعل كسائر الأيام، ورُفع فيه حديثًا إلى النبىِّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال يومًا لأصحابه: إنَّكم مستنزلون بين ظهرانى عجم، فمنْ تشبَّه بهم فى نيروزهم ومهرجانهم حُشرَ معهم. قال يحيى؛ وسألت عن ذلك ابن كنانة وأخبرته بحالنا فى بلدنا فأنكره وعابه وقال: الذى يثبت عندنا فى ذلك الكراهية، وكذلك سمعت مالكًا يقول لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): منْ تشبَّه بقوم حُشِرَ معهم. قال يحيى بن يحيى: وكذلك إجراء الخيل والمهارة فى العنصرة لا يجوز ذلك. وكذلك ما

يفعله النساء من وشى بيوتهن يوم العنصرة، وذلك من فعل الجاهلية، وكذلك إخراج ثيابهنَّ إلى الندى بالليل، ومكروه أيضًا تركهنَّ العمل فى ذلك اليوم، وأن يُجعل ورق الكرنب والخضرة واغتسالهنَّ بالماء ذلك اليوم، لا يحلُّ أصلا إلا لحاجة من جنابة. قال يحيى بن يحيى: ومنْ فعل ذلك فقد أشرك فى دم [يحيى بن] زكريَّاء، وقد جاء عن النبّى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: منْ كثَّر سواد قوم فهو منهم، ومنْ رضى عملاً كان شريك منْ عمله؛ هذا فيمنْ رضى ولم يعمله، فكيف منْ عمله وسنَّه سنَّةً؟ والله نسأله التوفيق. وإياكنَّ تعظيم يوم الأحد والسبت وترك العمل فيهما وفى أعياد النصارى، وليعمل (وليعملن) الأيام كلَّها ويوم الجمعة حتى ينادى بالصلاة، ثمَّ يصلِّين، فإذا فرغتنَّ فأقبلن على شغلكنَّ ومعايشكنَّ ومصلحة أزواجكنَّ وأولادكنَّ، ولا تدعن العمل راتبًا ولا تعظِّمن يومًا بترك العمل فيه إلا يوم الفطر والأضحى، فإنهما يوما طعام وشراب وشكرا لله».

(٥)

الفقرة الخامسة عبارة عن سؤال موجه إلى سحنون عالم القيروان الشهير، وربما كان السائل فقيهًا أندلسيًّا وربما كان هو ابن وضَّاح بالتحديد:

ووقع لسحنون مثل ما تقدَّم ونصه:

«ولا تجوز الهدايا فى الميلاد من مسلم ولا من نصرانى ولا إجابة الدعوة فيه ولا الاستعداد له. قال: ولا يجوز إجراء الخيل فى العنصرة ولا بأس به فى غيرها، ولا يجوز الاستعداد فى العنصرة، ولا الاستحمام منها، ولا حمّ الدواب، ولا وقد النيران تحت الثمار وغيرها، كهيئة فعل شِرار هذه الأمة وسفالها؛ وكلُّ ذلك حرام محرَّم، وكذلك الاستعداد فى الليلة التى يُقال [لها] ليلة الحاجوز. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومًا لأصحابه: إنكم تستنزلون بين ظهرانى عجم، فمنْ تشبَّه بهم فى نيروزهم حشره الله معهم. فالنيروز ليلة يّنير والمهرجان العنصرة».

هذه الفقرة – التى تردد آراءً وأخبارًا ظهرت فى كتابات أخرى وترجمات فى صفحات سابقة – تكمن أهميتها فى أنها أول إشارة فى نصوص عربية قديمة – سحنون توفى عام ٢٤٠هـ/٨٥٤ – إلى النيران التى توقد فى ليلة عيد القديس خوان.

(٦)

الفقرة التالية ترد أيضًا فى كتاب "الدر المنظم" لأبى العباس وأبى القاسم العزفى. هى عبارة عن سؤال وجهه ابن خميس إلى ابن وضّاح بخصوص ليلة العجوز:

«وسئل ابن وضّاح من قبل المعلّم محمد بن خميس عن ليلة الحجوز وما يفعله أهل بلدنا فيها. فأجاب بأن ذلك مكروه وعابه عيبًا شديدًا ونزع بآى من القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (*)، ﴿وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (**).

(٧)

الفقرة الأخيرة من كتاب "المعيار" التى أجد فيها إشارات للأعياد المسيحية ترد ضمن فتوى للفقيه المغربى أحمد القبّاب (توفى عام ٧٧٩هـ/٧٨-١٣٧٧م) ردًا على سؤال حول طريقة تعظيم التلاميذ للنبى فى الاحتفال بمولده، وقد بدت للمفتى بعض هذه الأفعال غير صحيحة.

وتأكيدًا لرأيه حول الهدايا التى يتلقاها المعلم من تلاميذه فى المولد يستند القبّاب إلى رأى كبار الفقهاء الأندلسيين: عبد الملك بن حبيب وابن رشد (الجد أو الحفيد):

(*) سورة الأعراف، آية ١٤٢. (المترجم)

(**) سورة يونس، آية ٨٩. (المترجم)

«قال ابن حبيب إنه لا يقضى للمعلم بشىء فى أعياد المسلمين وإن كان ذلك مما يستحب فعله. وقال: إنَّ الإعطاءِ فى أعياد النصارى مثل النيروز والمهرجان مكروه ولا يجوز لمنْ فعله ولا يحلُّ لمنْ قبله لأنه من تعظيم الشرك. قال ابن رشد: كان القياس أن لا فرق بين الحذاق وما يعطى فى الأعياد، إذا جرت بها العادة وإنه يقضى بالجميع وإنما فرَّق ابن حبيب بين ذلك لأن الحذاق بلغها الصبى بتعليم المعلم والأعياد لا فعل له فيها؛ وإذا كان ابن حبيب يقول لا يقضى له بالأعياد والمواسم الشرعيَّة فكيف بما ليس بشرعى؟».

الهوامش:

١- انظر الجزء الأول من هذه الدراسة.

٢- المصدر السابق.

٣- حققه محمد أحمد دهمان ، دمشق، ١٣٤٩هـ.

٤- الإشارات القليلة إلى الموضوع الموجودة فى الكتاب نشرها العزفى فى كتاب "الدر"، انظر الجزء الأول من الدراسة.

٥- Cf. Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leiden, 1967, I, 475. Vease tambien Broickelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur, Supplementband*, II, 978.

٦- حققه محمد الطالبى ، تونس، ١٩٥٩. وقد اعتمد أسين بالاثيوس عليه فى كتابه "الإسلام المتأثر بالمسيحية".El Islam cristianizado, Madrid, 1931

٧- *Lampara de los Príncipes* por Abubequer de Tortusa, traducción española de Maximiliano Alarcón, Madrid, 1930'31, dos vols.

٨- Cf. Broickelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*,I, 459 y Supplementband, I,829.

حول الطرطوشى انظر أيضًا مقدمة ماكسميليلنو ألاركون فى ترجمته المشار إليها فى الملاحظة السابقة.

٩- - Broickelmann, *Supplementband*, II,374-375

١٠- Ibidem, p. 375

١١- انظر الجزء الأول من هذه الدراسة. النص المشار إليه موجود فى "كتاب الاعتصام"، الجزء الثانى، ص ٢٥-٢٦.

١٢- وردت هكذا ، وربما كان الصحيح " يقيمون".

١٣- انظر الطرطوشى "كتاب الحوادث والبدع" ، سبق ذكره ، ص ١٤٠-١٤١.

١٤- Cf. Shorter *Encyclopaedia of Islam*, editada por H. A. R. Giba y J. H. Kramers, Leiden, 1961, p. 189. Vease tambien E. W. Lane, *Manners and Customs of the Modern Egyptian*, Londres, Everyman¨s library, ed. 1954, p. 484.

١٥- حدث فى تونس العاصمة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر واشترك فيه الفقهاء ابن عرفة وابن حيدرة رابن مرزوق وآخرون. يتحدث الونشريسى عن الموضوع فى كتاب "المعيار" الجزء الثامن.

١٦- انظر أبو بكر الطرطوشي، مصدر مذكور، ص ١٤١.

١٧- حول هذه الشخصية المهمة انظر GAL, I, 369-370 - Broickelman، درس المؤلف التونسى محمد الطالبى حياته وأعماله فى مقدمة الطبعة الجزئية للعمل الذى أشير إليه فى الملاحظة القادمة.

١٨- " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة عالم مذهب مالك" تحقيق أحمد بكير محمود، فى مجلدين ومجلد آخر للفهارس، بيروت، بدون تاريخ (تحل مقدمة المجلدين الأول والثالث عامى ١٩٦٥، ١٩٦٨) هناك طبعة جزئية للكتاب بعنوان *Biographies aghlabides extraites des Madarik du Cadi Iyad*

نشرها البروفيسور الطالبى فى تونس عام ١٩٦٨ ضمن إصدارات الجامعة.

١٩- Apud Analectes, II, 106

٢٠- Ibidem, II, 51; Adolfo Federico de Shack, Poesía y arte de los árabes de España y Sicilia, trad Juan Valera, Mejico, 1944,pp. 158-159; Historia de la *Conquista de España* por Abnelcotia el Cordobés, ed. P. de Gayangos, trad. Y prologo de Julián Ribera, en *Colección de Obras Arábigas de Historia y Geografía*" que publica la R. A. de la Historia, II, Madrid, 1868'1926,p.x

٢١- كتاب التشبيهات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، بدون تاريخ (تاريخ المقدمة عام ١٩٦٦) انظر الفهرس ص. ٣٣٧-٣٣٨

٢٢- ترتيب المدارك، مصدر مذكور، الجزء الثالث والرابع، ص. ٥٥٢-٥٥٣

٢٣- أشرت إلى أهمية هذا الكتاب فى مقال لى بعنوان " جدل دينى فى مرسية فى عصر ألفونسو العالم"، وهى دراسة تستند إلى نص أنقذه الونشريسى من النسيان. حول الكتاب والمؤلف انظر مقالى المذكور ص ٤٧-٤٨. وقد نشرت فى مجلة الأندلس أيضًا مقالا بعنوان "حول اسم محمد فى الغرب" اعتمدت فيها على فتوى نشرها الونشريسى. أعددت دراسات تعتمد على معلومات وردت فى هذا الكتاب.

٢٤- فى مقالى المذكور فى الملاحظة السابقة أشرت إلى وجود نصوص "كتاب المعيار" هذه.

٢٥- حول خصائص هذه الطبعة التى نشرت فى فاس عام ١٨٩٦-٩٧ انظر مقالى المنشور فى مجلة الأندلس عام ١٩٦٦.

٢٦- الونشريسى، "المعيار"، الجزء الثانى، ص. ٣٥٨.

٢٧- ابن فرحون "كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب" القاهرة، ١٣٥١ هـ، ص. ٣٢٧-٣٢٨.

٢٨- كثير من الأسئلة التى طرحت عليه جمعها الونشريسى فى كتاب " المعيار" ، الجزء الرابع، ص ١٤٤ وما يليها.

٢٩- سيرة حياته موجودة فى كتاب "الصلة" لابن بشكوال، تحقيق فرانثيسكو كوديرا، مدريد، ١٨٨٢-١٨٨٣، ص. ٥٢٢.

٣٠- الونشريسى، "المعيار"، الجزء الثانى، ص ٣٨٣.

٣١- هو اليوم العاشر من شهر المحرم، وهو يوم يحتفل فيه أطفال مدارس القرآن بالمغرب ببعض الاحتفالات الشعبية. هذه الشعائر وتشابهها مع الاحتفال بالعنصرة فى مناطق مغربية، كان موضع دراسات قام بها باحثون فرنسيون. انظر:

Alfred Bel, La ansaraÑ flux et rites du solstice d¨ete en Berberie.

٣٢- الونشريسى، "المعيار"، الجزء الرابع، ص ١٦٠.

٣٣- يسميه" زعيمهم (زعيم الفقهاء)" انظر "المقتبس" الذى نشره ميلشور م. أنتونيا، باريس، ١٩٣٧. انظر كذلك بونس بوغيس *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geográficos arábigo-españoles*, Madrid, 1898, p. 51.

٣٤- ربما كانت "وحم".

٣٥- الونشريسى، المعيار" ،الجزء العاشر، ص ٧٤.

٣٦- لا أجرؤ على ترجمة هذا المصدر، فقراءة النص صعبة.

٣٧- Véase E. Levi Provencal, *España Musulmana*, tomo IV, de la *Historia de España*, dirigida por R. Menéndez Pidal, Madrid, 1950, p. 108.

معجزات إسبانية فى مؤلف جدلى إسلامى
كتاب "مقامع الصلبان" للخزرجى

فيرناندو دى لاغرانخا

منذ سنوات كثيرة – حين كنت أبحث عن موضوع لرسالة الدكتوراة – عكفت على مجموعة مخطوطات عربية، بتلك الرغبة الساذجة التى يتميز بها المستعربون القدامى والمعاصرون أيضًا: الرغبة فى العثور على كنوز مدفونة. أما عن الكنوز فلم أجد شيئًا، لكننى اكتسبت قدرة على قراءة المخطوطات، وكانت رسالتى للدكتوراه عبارة عن نشر نص عربى على أساس مخطوطتين وترجمته وإعداد دراسة حوله.

قبل أن أقرر ما هو الموضوع كانت هناك عدة مؤلفات أثارت اهتمامى، وكنت قد قرأتها ونقلت منها فقرات طويلة بل وصفحات، وفى بعض الأحيان نقلت النص كاملا. كانت هناك حينئذ مخطوطتان أثارتا اهتمامى رغم أننى فى النهاية لم أدرسهما. إذ إنهما كانا تتطلبان استعدادًا خارج نطاق الاستعراب لم أكن مؤهلا له، ولست الآن قريبًا منه. هناك صورة ضوئية لتلك المخطوطتين المحفوظتين فى المكتبات التركية فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد، وهما تتضمنان مؤلفات فى الجدل ضد المسيحية، وتجمع بينهما بعض أوجه التشابه التى سأتحدث عنها فيما بعد.

أحد هذه المؤلفات عنوانه "كتاب الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا"، وهو ينسب إلى محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المتوفى فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر. الكتاب ومؤلفه يجهلهما على ما يبدو المؤلفون المسلمون، ولم يشر إليهما حتى وقت قريب أى مستعرب أو دارس للثقافة الإسلامية. ورغم خدعة نسب القرطبى فإن المؤلف شرقى. وطبقا لعادة اتخاذ الألقاب التى امتدت من المشرق

إلى جميع أنحاء العالم فإن المؤلف كان يستخدم لقب "شمس الدين". كل هذه المعلومات على ضوء ما يكتبه بروكلمان الذى كتب عنه نصف صفحة فى دراسته *Geschichti der Arabischd*، ونفس القدر[١] فى الملحق *Supplementband*.

هناك مؤلف سابق لهذا الكتاب، يمثل حلقة أخرى فى سلسلة الجدل الدينى بين الإسلام والمسيحية، وهو موجود فى المخطوطة الأخرى التى أشرت إليها. أعنى كتاب "مقامع الصلبان". سأتحدث عن العنوان فيما بعد. بروكلمان لا يذكره ولا يذكر مؤلفه واسمه أحمد بن عبد الصمد، ونسبته على ما يبدو هى الأنصارى القرطبى، وهذه النسبة صحيحة لأن المؤلف قرطبى بالفعل. سنشير فى صفحات قادمة إلى معلومات محتملة عن حياته، وسنحلل بعض الأخبار التى ترد فى مخطوطة لهذا الكتاب وتشير إلى معجزات مسيحية فى الأندلس وأظن أنها مهمة جدا.

إن وجود الصورة الضوئية لهاتين المخطوطتين فى مدرسة الدراسات العربية ليس بمحض الصدفة، فلا شك فى أن ميغيل أسين بالا ثيوس (وهو الذى نشر عدة دراسات حول الجدل الدينى بالإضافة إلى علاقة هذا الموضوع بكتاب ابن حزم القرطبى) كان هو الذى طلبهما لإعداد أبحاث جديدة أو للبحث عن أثر لابن حزم فى هذا الكتاب. أدرجت المخطوطتان فى مدرسة الدراسات العربية بعد تأسيسها بقليل، إذ يرد ذكرهما فى سجل المكتبة تحت رقمى ٨٠٢،٨٠٣ وتاريخ دخولهما هو ٢ أكتوبر ١٩٣٣. والمخطوطتان موجودتان معًا فى الصندوق رقم٩١ وهو رقمهما الحالى. وسواء فى كتاب سجل المكتبة أو فى الفهارس فإن اسم المؤلفين هو القرطبى فقط ربما لظن البعض أن الكتابين لمؤلف واحد. من الغريب أن القدر يجمع بين القرطبيين اللذين لا يقتصر تشابههما على مكان النشأة وموضوع الكتاب وإنما يتشابهان كذلك فى القضايا التى يطرحها قساوسة من طليطلة. أعترف أننى أيضًا عندما قرأت المخطوطتين كنت مقتنعا أن مؤلفهما واحد.

صورة المخطوطة التى تتضمن "كتاب الإعلام" توافق المخطوطة رقم ٧٩٤ فى مكتبة كوبرولو أحمد فى إسطنبول. ورغم أن ميغيل أسين – على حد علمى– لم يستعمل هذه المخطوطة فى أى بحث، فالشيء المؤكد أنه قرأها، فهناك عدة ملحوظات بخطه فى هوامش الصور مثل: الهامش، نص، مقدمة كتاب مسيحى عنوانه "تثليث الوحدانية"، اجتماع القساوسة فى طليطلة، نص، العقيدة المسيحية الخاصة بشخصيات التثليث... إلخ، وهى ملاحظات تتواصل على مدى النص وأبرزها هى تلك الملاحظات التى تشير إلى القضايا الإسبانية. تتوقف الملاحظات اعتبارًا من صفحة ٢١٦ حيث يبدأ المؤلف الآخر: "كتاب على التوراة" للباجى[٢] الذى يشمل حتى صفحة ٢٧٥، أى آخر صفحة فى المخطوطة، وهناك أمر يجعلنى أظن أن ميغيل أسين فى نهاية حياته كان يريد دراسة هذه المخطوطة فى الفترة التى كان يحرر فيها كتاب "الشاذليون" الذى مات قبل أن يتمه [٣].

منذ شهور وعندما كنت قد انتهيت من هذا البحث حدثنى البروفيسور كاردياك، وهو متخصص فى أدب الجدل عند الموريسكيين[*]، عن رسالة الدكتوراة لباول دوفيلار عن القرطبى ناقشها فى جامعة إيكس إن بروفنس. لم يذكر لى وقتها عن أى القرطبيين كان يتحدث ولا عنوان الكتاب، لأنه لم يكن قد قرأ الرسالة بعد. لما رأى كاردياك اهتمامى بهذا الموضوع لم يكتف بتوضيح القضية كما طلبت وإنما أحضر لى فى اليوم التالى نسخة من الرسالة، وهى لفتة كريمة أشير إليها بامتنان.

تتكون رسالة دو فيلار من ثلاثة مجلدات. الدراسة عنوانها "مدخل إلى كتاب القرطبى "الإسلام (كذا) [٤] بما فى دين النصارى من الفساد...". المجلدان الآخران يتضمنان نشرًا جزئيا للمخطوطة العربية ثم ترجمتها إلى الفرنسية.

---

[*] له كتاب كامل بالفرنسية عن الجدل بين الموريسكيين والمسيحيين، وقد ترجمه الدكتور عبد الجليل التميمى إلى العربية مختصرًا تحت عنوان "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية" زغوان، تونس، ١٩٨٩. (المترجم)

لم يكن الأمر يتعلق إذن بالمخطوطة التى يقوم عليها بحثى الذى كنت قد انتهيت منه وإنما كان يتعلق بكتاب آخر، لا لمحمد بن فرح الأنصارى القرطبى فى (رأى بروكلمان)، وإنما لأبى جعفر بن نصر الروادى القرطبى[٥]. من بين المخطوطتين الموجودتين يستعمل دوفيلار رقم ٧٩٤ من مكتبة إسطنبول وهى التى توجد نسخة منها فى مدرسة الدراسات العربية.

***

لا توجد هناك دراسة جامعة عن الجدل بين المسيحيين والمسلمين، خاصة فيما يتعلق بالغرب. من المؤسف فى هذا الصدد قلة المعلومات عن الجانب المسلم التى يقدمها كتاب نورمان دانييل[٦]، وهو كتاب ممتاز قد يكون من المستحسن تكملته. وكما يحدث فى مجالات كثيرة للدراسات العربية فمن الضرورى إعداد دراسة مسبقة عن النص المحقق أو على الأقل يجب أن تكون هناك طبعة معقولة كطبعات بولاق تلك، وأن تكون هناك ترجمات ودراسات متعلقة بها تضع شيئًا من الضوء على طريق ممتلئ بالظلمات. يجب ألا ننسى أن كتاب أسين بالاثيوس "ابن حزم القرطبى وتاريخ الأفكار الدينية" قد أعد استنادًا إلى طبعة شرقية غير جيدة.

لقد برزت فى الحقيقة أعمال مهمة ربما كانت خيطًا يقود إلى المعرفة. هناك أشخاص يعملون منذ سنوات فى هذا المجال وقد نشروا نصوصًا مهمة وترجمات ودراسات. إن إحصاء أهم الدراسات، الذى قمت بإعداده وفكرت فى إدراجه فى الهوامش، لن يظهر فى هذه الصفحات، فقد عدلت عنه فى اللحظة الأخيرة لأسباب سأوضحها فى الحال. عندما كان هذا البحث تحت الطبع وصل إلى يدى العدد الأخير من مجلة أرابيكا (فبراير ١٩٧١) وهو يتضمن موجزًا رائعًا عن وضع القضية، كتبه ميكيل دى إيبالثا (له رسالة دكتوراه عن عبد الله الترجمان، وكان اسمه أنسيلمو دى تورميدا قبل إسلامه). أوجِّه الباحثين إذن إلى هذا الموجز الذى كتبه ميكيل دى إيبالثا وعنوانه Notes pour une histoire des polemiques antichristiennes dans l;Occidente[٧].

وأنبه إلى أنه على صفحات هذا البحث ستظهر بعض الملاحظات والمعلومات التى كنت أريد حذفها لو كان لدى مزيد من الوقت. لم أشر إلى هذا الموجز الذى كتبه البروفيسور دوفيلار [٨] لأن الموجز طبع بأعداد محدودة [٩] ولا يبدو أن أيا من دوفيلار أو إيبالثا يعلم شيئًا عن مقال البروفيسور محمد المنونى "مناقشات حول الديانات فى المغرب الوسيط والحديث" [١٠] وهو يتضمن أخبارًا وتفصيلات مهمة.

كتاب مقامع الصلبان:

المخطوطة الأخرى التى لم أكد أذكرها حتى الآن هى كتاب "مقامع الصلبان" والتى تحفظ صورة ضوئية منها فى الصندوق رقم ٩١ بمدرسة الدراسات العربية فى مدريد ولا توجد بها أية ملاحظات، وهو ما يدعونى إلى الاعتقاد بأن ميغيل أسين لم يدرسها ولا حتى قرأها قراءة عابرة، إذ كان من عادته تدوين ملاحظات عند النقط المهمة فى الكتب التى يقرأها.

الصفحات المصورة ظلت طيلة هذا الوقت داخل حافظة، وكنت أضيف إليها بين الحين والحين ملاحظة ما، ذلك أننى وإن كنت قد رفضت دراسة الكتاب كله دراسة متأنية – إذ إن مجال الجدل الدينى ليس من تخصصى- فإن صفحتين من الكتاب قد أثارتا اهتمامى بشكل خاص وهما يتعرضان لمعجزات مسيحية حدثت فى إسبانيا يرويها المؤلف ويسخر منها ويعيب على المسيحيين الاعتقاد فيها. الصفحات التالية، بعد دراسة عن المؤلف والكتاب، تحاول الوصول إلى أصل هذه المعجزات المشار إليها كوسيلة للتعرف على طرق الاتصال بين المسلمين والمسيحيين الإسبان، أى دون الدخول فى صميم الجدل الدينى. فى هذا الخط نفسه قمت بدراسة "الجدل الدينى فى مرسية فى عصر ألفونسو العالم" واستندت فى دراستى إلى نص حفظه الونشريسى، وتحت العنوان نفسه نشرت الدراسة فى هذه المجلة منذ سنوات[١١]. (من الغريب أنه فى عدد المجلة نفسه ظهرت دراسة

للبروفيسور عبد المجيد تركى [١٢] يتعرض فيها لموضوع الجدل الدينى الذى كان قد درس عدة مرات على صفحات مجلة الأندلس.

مؤلف "كتاب مقامع الصلبان":

يبدو أن ابن الآبار كان أول من أشار إلى هذا الرجل وذكر عنه خبرًا أترجمه كاملا:

أحمد بن عبد الصمد بن عبيدة بن محمد بن أحمد بن محمود بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجى، قرطبى، انتقل إلى العيش فى بجاية بعد أن عاش فى غرناطة فترة من الوقت. كانت كنيته "أبو جعفر" تعلم الحديث من أبى عبد الله بن مكى وأبى جعفر البطراوى وعبد الرحمن الحجارى وأبى بكر بن العربى وشريح بن محمد وابن ورد إبن أبى الخصال وآخرين. عكف على دراسة الحديث ونقله. كتب مؤلفًا عن شريعة النبى (صلى الله عليه وسلم) أسماه "آفاق الشموس وعلاق النفوس"، ومؤلفًا آخر أسماه "مقامع الصلبان" (الناشرون يضيفون إلى العنوان "ومراتع رياض الإيمان"). نقل الأحاديث الشريفة عنه أبو القاسم بن بقى وأبو سليمان بن حوط الله. توفى بمدينة فاس فى أواخر ذى الحجة عام ٥٨٢ (١٢ مارس ١١٨٧) وكان قد ولد عام ٥١٩ (١١٢٥)[١٣].

من هذه المعلومة عن حياته تأتى المعلومات الواردة فى " نيل الابتهاج" لأحمد بابا [١٤] الذى يذكر فى نهاية كتابه اسم ابن الآبار (وذكره ابن الآبار) وبالفعل فإنه يقتصر على نقل فقرات مع تغييرات طفيفة كأن يصلح كلمة "مرة" فيكتبها "مدة" وربما كانت مكتوبة هكذا فى مخطوطة "التكملة" التى استند إليها ابن بابا. لن نتعرض هنا لهذا المؤلف، فهو لا يضيف جديدًا إلى المصادر التى لدينا.

أقول الآن وقبل أن أتعرض لابن عبد الملك – وهو الذى كتب السيرة الذاتية لابن عبد الصمد القرطبى وقد سبق كل من أحمد بابا وابن فرحون – إن هذا الأخير كتب شيئًا عن مؤلفنا [١٥] يزيد عما كتبه ابن الآبار. ومع ذلك، ولأنه لاحق

لابن عبد الملك ولأن معلوماته ترد مع شيء من التفصيل في كتاب ابن عبد الملك، فإنني لن أتعرض للديباج، وسأقتصر على الإشارة في السطور التالية إلى المعلومات المهمة فقط (١٦).

إن شخصية مؤلفنا قد درست في كتاب "الذيل والتكملة" بشيء من الاستفاضة، والأهم من ذلك هي سلسلة التفاصيل المهمة التي تجعل هذه الترجمة نموذجًا لتراجم السيرة الذاتية داخل إطار الأدب العربي في العصور الوسطي. إن أهميتها تجعلنا نتمنى لو أنها أطول. لهذا فإنني أعتقد أنه من المناسب أن أترجم النص كاملا فكله مفيد:

أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة... محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق... الخزرجي الساعدي ينسب إلى سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه.

قرطبي سكن غرناطة مدة وبجاية أخرى، ثم استوطن مدينة فاس أبو جعفر. روى عن أبي بكر بن عبد الله بن العربي وأبي جعفر بن عبد الرحمن البطروجي وأبوي الحسن: شريح وعبد الرحمن الحجاري، وأبي الحسين سليمان بن محمد بن الطراوة وأبوي عبد الله: جعفر حفيد مكي وابن مسعود بن أبي الخصال، وأبي القاسم بن ورد وغيرهم، وله برنامج في ذكرهم.

روى عنه أبو الحسن: ابن عتيق بن موسى لقيه ببجاية، وإبراهيم بن القفاص، وأبو سليمان وأبو محمد: ابنا حوط الله، وأبو عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد، وأبو القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، وكان في شبيبته معروفا بالذكاء والنبل مشهورًا بالحفظ للحديث ذاكرًا للتواريخ والقصص ممتع المجالسة متين الأدب، تعلق بالرئاسة فنال حظوة وجاهًا، وكفَّ بصره نفعه الله ولم ينقص من حفظه وذكائه شيئًا، وكان له مملوك من أبناء الروم قد علّمه الكتابة فكان يكتب عنه كل ما يؤلف أو يصدر عنه من نظم أو نثر.

ونكب نكبات نفعه الله وامتحن بالأسر سنة أربعين وخمسمائة وحمل إلى طليطلة وبها ألف كتابه المسمى بـــ "مقامع هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان" يرد به على بعض القسيسين بطليطلة وتركه فى نسخ بأيدى جماعة من المسلمين المبتلين بالأسر هناك لما يسر الله فى تخلصه فانفصل عنها سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وله تصانيف ككتابه "آفاق الشموس" فى الأقضية النبوية ومختصره "إشراق الشموس" و"نفس الصباح" فى غريب القرآن وناسخه ومنسوخه، و"حسن المرتفق فى بيان ما عليه المتفق فيما بعد الفجر وقبل الشفق"، و"قصد السبيل فى معرفة آيات الرسول: صلى الله عليه وسلم"، و"مقام المدرك فى إفحام المشرك"، وكل ذلك من أحفل ما ألف فى معناه إلى غير ذلك من الأجوبة على المسائل التى كانت ترد عليه، وكان أبو القاسم بن بقى يكثر الثناء عليه ويقول بفضله، ولما قدم مدينة فاس التزم إسماع الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين إحدى عدوتى فاس واستمر على ذلك صابرًا محتسبًا ونفع الله به خلقًا كثيرًا وحضر مجلسه يومًا خطّاب رئيس أهل المعدن[١٧] فسمع كلامه وأعجب به وسأل عن مئونته فأخبر أنها من تفقُد الإخوان وإحسانهم فتقدم إليه وتعرف له وسأله تعيين ما يحتاج إليه عن (كذا) نفقة فى كل سنة فقال ثلاثمائة دينار وستين دينارًا فدفع له خطاب ثمانمائة دينار وقال له هذه جراية عامين لك دون ما تحتاج إليه من كسوة ومؤن مواسم، ورتب له هذه الجراية ولم يقطعها عنه مدة من تسعة أعوام جزاه الله أفضل جزاء المحسنين إلى أن توفى أبو جعفر بفاس عقب ذى الحجة من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ومولده سنة تسع عشرة وخمسمائة [١٨].

لا ندرى ما هى الظروف التى أسر فيها أحمد الخزرجي وحمل إلى طليطلة حيث عانى من الأسر لمدة عامين. نعلم من عدة مصادر أن ذلك الأسر وقع منذ عام ٥٤٠ حتى عام ٥٤٢ هـــ. إن عام ٥٤٠ هـــ (من ٢٤ يونيه ١١٤٥ إلى ١٢ يونيه عام ١١٤٦) هو أكثر الأعوام اضطرابًا فى تاريخ قرطبة وفيه – على الجانب الآخر من المضيق – كانت سلطة المرابطين محل شكوك بسبب حركة

الموحدين أعدائهم الأقوياء، وقد انعكس ذلك فى الأندلس فى صورة تمرد فى عدد من المدن تزعَّمه أشخاص من مختلف الأسر بهدف التخلص من سلطة آل لمتونة البغيضة. وقد اتخذ أبو جعفر بن حمدين – الذى أعيد فى العام السابق إلى حكومة مدينة قرطبة بعد أن بايعه الخاصة والعامة فى المسجد الجامع– اتخذ لقب أمير المسلمين وأصبح لقبه "ناصر الدولة". دام حلم الخلافة هذا أقل من عام إذ إن ابن غانية حاكم المرابطين فى الأندلس انتهز سخط أعيان قرطبة وتحرك من العاصمة إشبيلية إلى ابن حمدين الذى خرج لملاقاته وهزم فى إثيخا فى شهر جمادى الثانية عام ٥٤٠ (نوفمبر / ديسمبر ١١٤٥). استولى ابن غانية على قرطبة ودخلها فى ١٢ شعبان (٢٨ يناير ١١٤٦). لجأ ابن حمدين المخلوع إلى قلعة أندوخار بعد أن غادر منفاه الأول فى بداخوث وعانى حصارًا من قبل ابن غانية لمدة شهر حتى اضطر إلى طلب معونة العاهل الإسبانى القوى ألفونسو الثانى، وهذا الملك المسيحى كان لفترة من الوقت هو المتحكم فى الوضع، وقدم دعمه مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك، فجعل مصير عاصمة الخلافة رهن إشارته وفى النهاية جعلها لابن غانية بعد أن علم أن قوات الموحدين قد عبرت المضيق [١٩].

بعد هذه الفترة المضطربة فى عام ٥٤٠ خرج أحمد الخزرجى [٢٠] من المدينة "عندما شاء الله تعالى بانحلال السلطة فى قرطبة، وتفرق ساكنوها بسبب الشدة التى عانت منها المدينة"[٢١] هل اضطر إلى الهرب خوفًا من أن يكون ضحية لغضب هؤلاء وأولئك؟ هل أسر وسلاحه فى يده وحمل كشخص له وزنه إلى طليطلة؟ هل دخلها كشخص عادى ضمن الرهائن الذين قدمهم ابن حمدين أو ابن غانية إلى الإمبراطور؟ ربما لن نعرف أبدًا إلا أن أحمد الخزرجى – لسبب أو لآخر – ذهب إلى طليطلة فى عام ١١٤٥ (أو ١١٤٦) وهى المدينة التى احتفظت بطابعها الإسلامى خلال قرون بعد غزوها.

بعد ذلك بعامين انتهى روبرتو كيتون من ترجمة القرآن إلى اللاتينية بتكليف من بدرو المبجل[٢٢] وعلا فى المدينة حينئذ شأن غونديسالبو ورواد حركة

الترجمة. كان هناك اهتمام عظيم بالفلسفة والعلوم التى جمعها العرب من الأقدمين وطوروها بطريقتهم. وكانت هناك أيضًا رغبة عارمة فى تنصير المسلمين وتفنيد حجتهم. ليس من الغريب إذن أن يطرح قسيس طليطلة عدة قضايا على مسلمى قرطبة الذين قادتهم الصدفة إلى طليطلة، وليس من الغريب كذلك أن ينقل هؤلاء تلك القضايا إلى الشاب ابن عبد الحق تلميذ الأساتذة الكبار والذى كان قد وصل لتوه إلى طليطلة من قرطبة مهد المعرفة رغم النوائب التى كانت تمر بها.

لقد رد الشاب القرطبى على كتابات القسيس بسلسلة طويلة من القوالب المحفوظة وتحليل مختلف آيات التوراة والإنجيل (فهاجم اليهود أيضًا). إن هذا الكتاب لا تهمنى فيه طبيعته الخاصة بالجدل الدينى. سأشير فقط إلى قائمة من المعجزات (على حد تصور المسيحيين) طبقًا لتأكيدات الشاب المسلم الذى يصفها بالخرافات وبأنها زيف منكر. إن الأمور المعجزة التى يشير إليها على أنها تراث عام عند المسيحيين هى فى مجملها إسبانية وليست كلها معروفة المصدر ولكن أحدها يبجله الإسبان ويعتبر حتى اليوم أحد أسباب الفخر عند الكاثوليكيين من أهل طليطلة.

عنوان الكتاب :

عنوان الكتاب الذى ندرسه ذكر بالصيغ التالية [٢٣]:

- مقامع الصلبان لابن الأبار.
- مقامع الصلبان: هكذا يسميه أيضا أبو الحسن الرعينى فى ترجمة أبى القاسم بن بقى – وهو أحد تلاميذ الخزرجى– عندما يشير إلى أنه درسه مع مؤلفه [٢٤].
- مقامع الصلبان ومراتع رياض الإيمان لابن بابا.
- قامع هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان لابن فرحون.

- مقامات الصلبان: هكذا يرد فى أكثر من مخطوطة كما يشير البروفيســور تركى [٢٥].

العنوان الأكثر تمامًا الذى أجده هو المذكور فى المخطوطة رقم ٢٣٦٧ فى آيا صوفيا والتى استخدمت صورتها الضوئية لإتمام هذه الدراسة :"كتاب مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان" وهو مأخوذ بلا شك من العنوان الموجود فى صفحة ٤: "كتاب المقامع فى رد ما قالت النصارى من قبل علم الكلام".

هناك عدة مخطوطات لهذا الكتاب بالإضافة إلى المخطوطات التى يذكرها البروفيسور عبد الحميد تركى [٢٦] والمحفوظة فى تونس. أعتقد أن البروفيسور سيزجين حدثنى فى مدريد أو فى بون عن مخطوطة أخرى فى إسطنبول بالإضافة إلى مخطوطة أيا صوفيا التى استعنت بها لكتابة هذه الدراسة[٢٧].

أسباب كتابة المؤلَّف وتاريخه:

كان الدافع وراء تأليف كتاب "مقامع الصلبان" لأحمد بن عبد الحق الخزرجى هو نفس الدافع وراء كتابة مؤلفات جدلية أخرى وضعها مسلمون. بالإضافة إلى ذلك هناك سبب عرضى واضح أشار إليه عبد الملك المراكشى فى السيرة الذاتية التى ترجمناها فى صفحات سابقة: إنه كتب ردا على كتاب قسيس من طليطلة، وكتب فى نفس المدينة خلال الأسر، رغم أن كلماته يفهم منها أنه لم يجرؤ على إرسالها إلى القسيس حتى غادر المدينة. فى بداية المخطوطة تشرح أسباب تأليف الكتاب وهى الأسباب نفسها التى يذكرها صاحب كتاب "الذيل والتكملة". بعد البسملة والصلاة على النبى – لا توجد مقدمة ولا حتى كلمة أما بعد – يتعرض المؤلف – أو بعض تلاميذه، إذ إن المؤلف لا يتحدث بصيغة المتكلم– يتعرض للموضوع مباشرة وأسباب تأليف الكتاب يشرحها الآن بإسهاب.

أنقل النص كما يرد فى ظهر الصفحة الأولى من المخطوطة:

لما نفذ القضاء من الله تعالى على قرطبة بانتثار ملكها وتفرق أهلها عنها لتتابع ضنكها ألحق منهم بطليطلة صبيًّا من آل عبد الحق الخزرجي يوصف بذكى؛ وكان بطليطلة قسيس من القوط يكثر اعتراضه فى الدين على نفر كانوا يأتونه من المسلمين. فجعلوا يرفعون سؤالاتهم إلى الصبى، فيجاوبهم الصبى عليها فيرجعون بذلك إلى القسيس. فأنكر جوابهم لعلمه أنهم ليسوا من أهل الذكاء؛ فاستفهمهم فأعلموه بذلك. فكتب القرطبى إليه كتابًا وسألهم أن يوصلوه إليه ويأتوا منه بجواب.

هذه المقدمة التى تمنينا لو أنها أكثر طولا تعطينا الانطباع بأنها كتبت على عجل (هناك أخطاء نحوية، على الأقل فى مخطوطتنا) ويبدو كذلك أنها كتبت بعد قراءة سريعة للصفحات التى تليها. لأن ما يرد بعد ذلك "وهذا كتابه"... ليس كتاب الخزرجى بل كتاب قسيس طليطلة (من المؤسف أن اسمه غير مذكور هنا)، ويبدأ بجملة "باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد" وهى صيغة التثليث التى يعلم أنها ستكون الهدف المباشر لهجوم الشاب المسلم. يلى هذا الكتاب – الذى يشغل من صفحة١ إلى صفحة٤ – كتاب الخزرجى وهو الذى عنوانه "مقامع الصلبان" الذى وضع عنوانًا للمخطوطة كلها.

بين الكتاب والكتاب الآخر (فى نهاية صفحة ٤ ظهر) نجد التوضيح التالى:

بعد أن قرأ الفتى تلك الرسالة رد على من حملوها إليه وأبى أن يرد على ذلك القسيس خوفًا منه إذ إنه كان بينهم أعلمهم بدينهم. لكنهم لما ألحوا عليه أن يجيب وفى أثناء ذلك واتته الفرصة لكى يرحل (من طليطلة) كتب هذه الإجابة وعنوانها "مقامع الصلبان وروائع روضة الإيمان" وتركها لهم عند رحيله.

هذا أمر لا يتفق مع ما ذكر فى الصفحة الأولى التى نقلتها وترجمتها منذ لحظات والتى تحكى فيها الوقائع بطريقة تختلف عما حدث فى الواقع حسب ما يفهم من المخطوطة نفسها وما يؤكده عبد الملك فى سيرة الخزرجى والتى ترجمتها منذ قليل. البقية، عند بداية الصفحة الخامسة، هى نسخة من نص إجابة الشاب

المسلم تسبقها عبارة و"هذا نسخته". من سوء الحظ فإنه قبل البسملة التى يبدأ بها الكتاب حذفت أسماء المرسل إليهم فيقال "من فلان إلى فلان" وهكذا لم نتمكن من معرفة شخصية القسيس المرسل إليه الرد. أول كلمات الخزرجى تؤكد وحدانية الله (وتستند إلى الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الإخلاص وهى تسمى أيضًا "سورة التوحيد") فى مواجهة غموض التثليث الذى يبدأ به كتاب القسيس.

اعتبارًا من هنا وإلى أن تنتهى المخطوطة يوجد نص كتاب مقامع الصلبان الذى لن أتعرض لمضمونه ولا أنوى تحليله الآن ولا فيما بعد. سأقتصر فى هذا المقال على دراسة معجزات محتملة فى إسبانيا المسيحية.

هناك معلومة أخرى لا يشير إليها ميكيل دى إيبالثا هى التى جعلته يقول عن مقامع الصلبان Cet ouvrage aurait ete ecrit en 582/1186 contre in livre envoye par un pretre de Tolede a Cordoue par un fils ou disciple de Abda al Haq al Jazrayi[٢٨]

إننى أجهل المعلومة التى تستند إليها هذه الافتراضات (التى يكررها دوفيلار بالنص [٢٩])، لأن كل المصادر التى لدينا والتى أشرت إليها تتفق حول النقاط التالية:

١- إن الكتاب ألف فى طليطلة ولم يكن هناك سبب يدعو لخروج كتاب القسيس منها إذ إن المرسل إليه (وهو القرطبى) كان موجودًا فى نفس المدينة (طليطلة) لا فى قرطبة.

٢- إن كتاب مقامع الصلبان ألف بين عامى ٥٤٠ - ٥٤٢هـ أى بين ١١٤٥-١١٤٧.

٣- إن الكتاب حرره الخزرجى بنفسه ولم يحرره أحد تلاميذه أو أحد أبنائه (إلا إذا كان إيبالثا يقصد بـ " أحد أبناء عبد الحق" الخزرجى نفسه ابن عبد الحق). ما هو حقيقى بالفعل هو أن المقدمة الصغيرة التى بين كتاب القسيس

وكتاب المقامع ليست من عمل المؤلف، فلو أنها كـذلك لاسـتخدم صـيغة المتكلم.

فيما يتعلق بالتاريخ يبدو أن هناك خلطًا فى القائمة التى أعدها فؤاد سيد، إذ يقول فيها إن الكتاب وضع عند سقوط قرطبة، أى عندما غزاها فيرناندو الثالث عام ١٢٣٦ علمًا بأن المؤلف مات عام ١١٨٧، وهذا الخطأ قد تنبه إليه محمد المنونى، ويبدو أن صاحب القائمة قد وقع فى هذا الخلط لأنه أخطأ فى تفسير مقدمة الكتاب التى نقلتها وترجمتها فيما سبق.

ونبرز فى النهاية خاصية تربط هذا العمل للخزرجى بأعمال أخرى ذات طبيعة جدلية كتبها مسلمون فى الغرب. أولا كانت المبادرة من جانب المسيحيين القسيسين والرهبان فى كل الأحوال تقريبًا، فهم الذين يطرحون سلسلة من القضايا يتعين على الجانب الآخر معالجتها. لنتذكر على سبيل المثال حالة "راهب فرنسا" و"القضايا الصقلية" و"كتاب الإعلام" ... إلخ، لكن هناك أمرًا مهما يتعين إبرازه: فى مواجهة الأسئلة الماكرة المليئة بالمعانى الخافية، من قبل المسيحيين أهل المعرفة والحكمة، يقوم بالرد مسلم شاب. الخزرجى لم يكن عمره يزيد عن العشرين بكثير عندما حرر كتابه ردا على قسيس طليطلة. إنه عمر صغير إذا وضعنا فى الاعتبار الصعوبة القصوى التى يواجهها كل من يتعرض لهذا المجال، لكننا نقول إنها ليست حالة وحيدة. بعد ذلك بقرن تحديدًا كتب ابن سبعين الشهير "أجوبة يمانية عن أسئلة صقلية" ردا على قضايا طرحها فيديريكو الثانى الصقلى، قام بذلك وعمره بين العشرين والثلاثين(٣٠). فى تلك السنوات التى بدأ فيها ابن سبعين كتابة مؤلفه حدثت مواجهة ابن رشيق المرسى فى مرسية (بعد قليل من غزو ألفونسو العالم للمدينة)، وهى مواجهة بدأها أيضًا قسيس عندما كان المسلم "لم تكبر لحيته بعد". إن الأثر النفسى لهؤلاء الغلمان الأشداء الذين تؤدى كتاباتهم وحججهم الدامغة إلى سحق مجادليهم من المسيحيين، هذا الأثر النفسى لابد أن يكون كبيرًا بين المسلمين.

المعجزات التى يصفها الخزرجي:

كانت الرسالة التى بعث بها قسيس طليطلة – ونصها موجود قبل كتاب "مقامع الصلبان" – بالنسبة للخزرجى بمثابة دليل يسير عليه كتابه، فهو يواصل الرد نقطة نقطة على الرسالة التى بعث بها القسيس بهدف تنصيره.

إذا كان القرطبى يتوقف فى الصفحات ٤٨ – ٥٠ ليتحدث عن سلسلة من الأمور التى يعتقد المسيحيون أنها معجزات وليهاجم سذاجة المسيحيين، فذلك لأن قسيس طليطلة قد تصدى لهذه القضية فى كتابه:

ليتك قرأت كتبنا كلها وعلمت العجائب التى حدثت على يد قديسين قاموا بمعجزات وبراهين، ومع ذلك فهم لا يظهرونها إلا فى حالة الضرورة. لو أنك رأيت بنفسك النور الذى يظهر كل عام فى ليلة عيدنا الكبير، لرأيت العجائب والغرائب. (٣١)

ويتباهى الخزرجى فى نهاية كتابه بأنه على علم بكتب المسيحيين واليهود التى قرأها، وذكر منها فقرات على مدى كتابه، ويجيب على إشارة القسيس إلى المعجزات:"فيما يتعلق بما تقوله من أن دينكم فيه صلحاء يظهرون المعجزات عند الضرورة..." ويحكى له عن بعض ما سمعه ويعلّق عليه متباهيًا بأنه على علم بتلك "الخدع".

فيما يلى أنقل وأترجم خمس فقرات متعلقة بالمعجزات تبدو فى المخطوطة، ويفصل بين كل واحدة والتى تليها دائرة صغيرة فى منتصفها نقطة، وهذه إشارة متكررة على مدى المخطوطة وتعنى بداية فقرة جديدة.

ولأننى استخدمت مخطوطة واحدة (نسخة شرقية على واجهتها تاريخ ٨٠٤ هـ ١٤٠١ – ١٤٠٢ بعد اسم عبد الرحمن الأنصارى الحنبلى "عفا الله عنه بلطفه" ويبدو أن كل ذلك من عمل مالك المخطوطة لا من عمل الناسخ) وهى مخطوطة بها أخطاء وتخلو أحيانًا من علاقات الضبط، فإننى لا أزعم أننى قد توصلت إلى

تحقيق نهائى للفقرات التى لم تنشر حتى الآن. لقد اقتصرت على نقل هذه الفقرات وتصحيح بعض الأخطاء الكبيرة، لكن يجب الاستعانة بالطبعة المحققة للكتاب كله عندما يقوم بها أحد. على أى حال فبالنسبة للغرض من هذا المقال أعتقد أن الذى أقدمه مقروء، وعمومًا فإن نص مخطوطة أيا صوفيا لا يمكن أن يفعل معه أكثر من ذلك كما يتضح من الصور الضوئية المرفقة للفقرات التى نقلتها.

(١)

فمنها ما وصف لى عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم أن يد الله تخرج لكم منها فى يوم واحد من السنة من وراء ستر، ولا خفاء لديكم بهذا (فحكى لى) من أثق قريحته(*) أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند (أحد) رؤسائكم بالأندلس بوصلة كانت بينهما. فدعاه الرئيس له فكان قد رامه يومًا عن الخروج عن دين اليهودية إلى دينه وقال له: ألا ترى هذه الأعجوبة كظهور يد الله لنا فى يوم معلوم من السنة؟ فقال له اليهودى: يا مولاى أنا قد رضيت هذا الأمر بشهادتك وصدقتك عليه (٤٨ ظهر) فابحث عنه فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقًّا صبأت إلى دينك. فخالط الرئيس الشك، فلما دنا ذلك اليوم الذى تظهر فيه اليد سافر بحملة نحو الشمال وقرَّب مالا يهديه هناك. فبدر إليه الأساقفة وقربوه لتقبيل اليد. فلما ظهرت اليد له من وراء الستر وضع يده فيها فصاحوا به يقولون: اتق الله، الآن تخسف بك الأرض، الآن تقع عليك السماء، الآن ترسل الصواعق. فقال: دعوا عنكم هذا كله فإن هذه اليد لا أحل يدى عنها حتى أعلم أحقًّا ما تصنعون فيها أم باطلاً. فلما رأوا اللحجة لم يبق منهم إلا اثنان أسرا إليه القول وقالا: ما تبغى فى ذلك؟ أصبأت عن دين آبائك؟ قال: لا. قال أتريد أن تحل ربطًا ربط منذ ألف سنة أو نحوها؟ قال: لا ومعاذ الله ولكنى أريد أن أقف على سر هذه اليد. قال: هى يد الله، فقف دون هذا الستر. قال: أحب أن أراه. قال: أنت وذلك. فكشفوا له عن قس مجدود الخدين

(*) فى المخطوطة التى نشرها د. عبدالغنى شامة (فقد حكى لى من أثق بصدقه وقريحته). انظر "بين الاسلام والمسيحية" تحقيق د. عبد الغنى شامة.

موقوف وراء الستر. فلما عاين الرئيس أرسل يده وخرج إلى عسكره. فقال له اليهودى: مولاى ما ترى فى دينى؟ قال له: رأيك خرجت منه أو فلا خرجت. ففهم اليهودى وسكت.

لم أتمكن من العثور على أية أسطورة مسيحية يمكن أن تكون أساسًا لهذه الرواية التى يقصها الخزرجى. ومن المحتمل أن يكون كل ذلك مجرد ادعاء، لا من الخزرجى وإنما من بعض اليهود الذين حكوا له تلك الخرافة. نرى أنه سواء فى هذه المعجزة أو فى المعجزة الأخرى هناك يهودى يقوم بدور مهم فى كشف الخدعة.

علينا أن نقر بأن جو القصة مرسوم بشكل جيد وأنها تعكس بشكل ما إحدى الأساطير الدينية فى إسبانيا المسيحية: هذه الأفعال الخارقة التى تتكرر كل عام فى يوم محدد. المعجزة المفترضة تقع فى الأندلس دون تحديد أدق، لكن علينا أن نتساءل ما إذا كان الخزرجى لا يتحدث عن إسبانيا المسيحية كما هو منطقى إذ إن الرئيس المذكور (الذى يدل على لقب شرفى) يحضر إلى المعبد ومعه قواته. ربما أخذ الخزرجى هذه الرواية فى طليطلة وهى رواية غير دقيقة لأسطورة سابقة.

(٢)

وكذلك وصف لى عن صليب بعض مشاهدكم المعظمة (٤٩ ظهر) عندكم يمشى إليه الناس ليتعجبوا منه، وهو واقف بين السماء والأرض وأن أحد رؤسائكم سأل عن ذلك يهوديًا كان كاتبًا له. فأعلمه أنها حيلة، بعد ما استوثق منه، فاستكشفه إياها. فتفطن اليهودى أن ذلك الصليب تمسكه أحجار المغنطيس من جهاته الأربع. فأمر الرئيس أن يخلى له يومًا ذلك المشهد فدخله وحده وأمر بحفر جانب واحد من الحائط فاستخرج منه حجرًا من المغنطيس موازيًا للصليب، فمال إلى جهة واحدة، واستخرج منه من الجانب الثانى فاضطرب الصليب. وفهم الرئيس وانصرف عنه فما رؤى بعد ذلك [٣٢].

لا ندرى من أين جاء الخزرجي بهذه الخدعة الرائعة التى - وإن لم نستطع تحديد مكانها- من المفترض أنها تتعلق بإسبانيا. ليس من الغريب أن ينتج كل ذلك عن مساعى يهودى - كما تكشف عن ذلك الفقرة الأولى - يريد أن يزعزع مركز المسيحيين أو أن فى ذاكرة الفتى المسلم كانت هناك قراءات وروايات شفوية عن أساطير شرقية نسبها- بوعى أو بدون وعى - إلى عصره والى بلده والى خلط دينى مختلف عن ذلك الذى روى فى عصر الأسطورة.

الشىء المؤكد هو أننى عندما قرأت "آثار البلاد" للقزوينى (المتوفى عام ١٢٦٦)، ذلك الراوى لكثير من العجائب، وجدت قصة ربما أخذها عن مصادر قديمة وهى بلا شك نفسها التى يرويها الخزرجي فى رواية موجزة مغيرًا بعض البيانات أترجمها كاملة فيما يلى:

سومناة

بلدة مشهورة من بلاد الهند على ساحل البحر بحيث تغلبه أمواجه.

كان من عجائبها هيكل فيه صنم اسمه سومناة وكان الصنم واقفًا فى وسط هذا البيت لا بقائمة من أسفله تدعمه ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه، وكان أمر هذا الصنم عظيمًا عند الهند من رآه واقفًا فى الهواء تعجب مسلمًا كان أو كافرًا، وكانت الهند يحجون إليه كل ليلة خسوف، يجتمع عنده ما يزيد على مائة ألف إنسان وتزعم الهند أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه وهو ينشئها فى من شاء كما هو مذهب أهل التناسخ وأن المد والجزر عبادة البحر له.

وكانوا يحملون إليه من الهدايا كل شىء نفيس وكان له من الوقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية.

. ولهم نهر يعظمونه بينه وبين سومناة مائتا فرسخ يحمل ماؤها إلى سومناة كل يوم ويغسل به البيت وكانت سدنته ألف رجل من البراهمة لعبادته وخدمة الوفود وخمسمائة أمة يغنّين ويرقصن على باب الصنم وكل هؤلاء كانت أرزاقهم

من أوقاف الصنم وأما البيت فكان مبنيًا على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وكانت قبة الصنم مظلمة وضوءها كان من قناديل الجوهر الفائق وعنده سلسلة ذهب وزنها مائتا "من"(*) كلما مضت طائفة من الليل حركت السلسلة فتصوت الأجراس فتقوم طائفة من البراهمة للعبادة.

حكى أن السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما غزا بلاد الهند سعى سعيًا بليغًا فى فتح سومناة وتخريبها طمعًا بدخول الهند فى الإسلام فوصل إليها منتصف ذى القعدة سنة ست عشرة وأربعمائة فقاتل الهنود عليها أشد القتال وكان الهند يدخلون على سومناة ويبكون ويتضرعون ثم يخرجون إلى القتال فقوتلوا حتى استوعبهم الفناء وزاد عدد القتلى على خمسين ألفًا فرأى السلطان ذلك الصنم وأعجبه أمره وأمر بسلبه وأخذ خزانته فوجدوا أصنامًا كثيرة من الذهب والفضة وستورًا مرصعة بالجواهر كل واحد منها بعثه عظيم من عظماء الهند.

وكانت قيمة ما فى بيوت الأصنام أكثر من عشرين ألف دينار.

ثم قال السلطان لأصحابه: ماذا تقولون فى أمر هذا الصنم ووقوفه فى الهواء بلا عماد وعلاقة فقال بعضهم: إنه علق بعلاقة وأخفيت العلاقة عن النظر فأمر السلطان شخصًا أن يذهب إليه برمح ويدور به حول الصنم وأعلاه وأسفله ففعل وما منع الرمح شيء.

وقال بعض الحاضرين: إنى أظن أن القبة من حجر المغناطيس والصنم من الحديد والصانع بالغ فى تدقيق صنعته وراعى تكافؤ قوة المغناطيس من الجوانب بحيث لا تزيد قوة جانب على الجانب الآخر فوقف الصنم فى الوسط فوافقه قوم وخالفه آخرون.

(*) هكذا وردت فى النص العربى، أما المؤلف فقد اكتفى بأن يترجم كلمة "من" على أنها وحدة موازين. (المترجم)

فقال للسلطان: ائذن لى برفع حجرين من رأس القبة ليظهر ذلك فأذن له فلما رفع حجرين اعوج الصنم ومال إلى أحد الجوانب فلم يزل يرفع الأحجار والصنم ينزل حتى وقع على الأرض [٣٣].

إن التقارب أو التشابه بين هذه الرواية للقزوينى ورواية الخزرجى واضح، والتشابه بين النصين أسهل إذا رجعنا إلى النص العربى. ورواية آثار البلاد لها أصل تاريخى هو غزو معبد سومناة فى ساوشترا وهو أحد أهم معابد الآلهة شيفا وما أعقبه من السلب على يد القائد المسلم الكبير محمود سلطان غزنة وقد حدث ذلك فى منتصف شهر يناير عام ١٠٢٦ وشكل أروع حملاته المظفرة.

الجانب التاريخى المحض الذى يرويه القزوينى يقترب من رواية "الكامل فى التاريخ" لابن الأثير المتوفى عام ١٢٣٠ إلا فيما يتعلق بالإله وبصفاته العجيبة[٣٤]. لا يحكى ابن الأثير شيئًا عن ذلك بل يصف التمثال كقطعة من الحجر أسطوانية الشكل ودون وجه وطوله خمسة أذرع: يقول: "وسومناة من حجر طوله خمسة أذرع: ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان فى البناء وليس بصورة مصورة". كان الأمر يتعلق إذن وبلا شك بلنجام ضخم ليس من المعدن بل من الحجر ولم يكن يسبح فى الهواء بل كان ثابتًا تمامًا. ويحكى ابن الأثير أن محمودًا أمر بتحطيمه وإلقائه فى النار. وقد حملت إحدى القطع إلى غزنة ووضعت فى مدخل مسجدها الكبير حتى يدوس عليها المسلمون عند دخولهم إلى المسجد وعند خروجهم منه [٣٥].

ليس من الغريب أن يدرج القزوينى – وهو الذى يهوى العجائب – فى كتابه هذه الأسطورة التى اخترعت منذ زمن بعيد بهدف القضاء على معتقدات غريبة عن الإسلام.

لهذا السبب نفسه لا نستغرب أن تصل الأسطورة إلى الخزرجى فى أحد الكتب التى استعان بها القزوينى لكتابة مؤلفه أو أن تصله وقد أعيدت صياغتها فى الأندلس وطبقت على دير شهير بهدف الحط من قدرة المسيحيين أو لتبرير هدم

معبد يوحى بالكراهية – أو الحب – عند المسلمين، كما سنرى أن ذلك يحدث فى القطعة الثالثة، ولن يكون من الخطأ الاعتقاد بأن أسطورة سومناة مدرجة فى كتاب أحمد بن عمر العذرى المتوفى عام ١٠٨٥ والذى أفاد منه القزوينى كثيرًا فذكره عدة مرات وأغفل ذكره مرات. وإذا كانت الأسطورة مدرجة فى كتاب العذرى فمن المحتمل أن تصل بطريق مباشر أو غير مباشر إلى الخزرجى [٣٦] وأن تكون مناسبة له ليضعها فى كتابه المناهض للمسيحية.

الشيء الجديد بالذكر فى هذا الأمر أن الخرافات التى ينسبها الخزرجى إلى المسيحيين سينتهى بها المطاف إلى أن يعيبها المسيحيون على المسلمين. فى الحرب – حتى الحرب الكلامية – كل الأسلحة مفيدة، وكان اختراع الشيء ثم مهاجمته بعد ذلك أمرًا مألوفًا، استعمله فى العصور الوسطى أبناء الديانات الثلاث. وبهذا فإن كتابًا يهدف إلى المجادلة كان يتحول فى النهاية إلى كتاب دعائى: إذا لم يستطع هزيمة الخصم فإنه على الأقل كان يقوى إيمان أهل الدين ويوجد فيهم شعورًا حيا بالكراهية نحو الدين الآخر.

نعود إلى موضوعنا فنقول إن هذه المعجزة المزيفة التى أساسها حجر مغناطيسى لم تكن حيلة دبرها المسلمون ضد المسيحيين فقط، بل إن العكس قد حدث أيضًا وكان له صدى وصل إلى إسبانيا، على الأقل حتى القرن السابع عشر، ولم يكن ذلك فى كتاب جدلى بل فى مسرحية ربما تقدم إلى الشعب علومًا قد تجد لديه استجابة تتوافق مع الأفكار القومية فى ذلك الوقت.

إن القضية (وهى شعبية مثل قضايا أخرى بين الجدليين المسيحيين فى العصور الوسطى) تشير إلى أسطورة "محمد الهيكل العظمى" ويقصها لوبى دى بيجا فى أشعار مسمومة فى الفصل الثانى من مسرحية "العبيد الأحرار" *Los esclavos libres* فى الحوار بين الغلمان أمام سلامة الذى جرح إحساسه بلا أدنى اعتبار فسخروا من عقيدته فى شخص النبى. يرد عليهم سلامة المسكين قائلا: "تقولون عن محمد هذه البذاءات". هكذا يرد عليهم سلامة المسكين:

غلام٢

بأى طريقة يا قزمان

يكون ساق السيد محمد المتعفن

غلام٣

يقولون إن هذا النبى المتوحش

كان يعيش مفتونًا

بامرأة يهودية

وقد أمسك به زوجها ووالداها ككلب

وأوجعوه ضربًا

ولما مات قطعوه

واحتفظوا بقدم وفخذ

وتوسلوا إلى اليهودية أن تقول

إنه ذات ليلة وقد استمتع بها صعد إلى السماء

وإنها لكى يكون معها قد ربطته من هذا الساق

فتركها كأثر ومضى ومعه بقية الجسد.

صدق المسلمون

وهرب منهم اليهود بتلك الخدعة

أخذوا الساق هناك فى مكة

وضعوها بين أحجار المغناطيس

لكى تسندها

وهم يظنون أن ذلك معجزة (٣٧).

إن موضوع موت محمد على يد امرأة يهودية – يمكن الرجوع فى ذلك إلى كتاب نورمال دانييل (٣٨) – هو أمر يحكيه بدرو باسكوال المتوفى عام ١٣٠٠ فى كتاب "ضد طائفة محمد":

بين أولئك اليهود كانت هناك امرأة جميلة، وكان محمد مغرمًا بتلك المرأة فذهب وتعشى معها وقدمت له اليهودية شاة مسمومة فمرض من هذا السم ومات فى اليوم الخامس عشر كما يقول بعض المسلمين ويقول البعض الآخر إنه مات فى اليوم السابع (٣٩).

إن هذه الأسطورة التى لها أساس تاريخى – ككل الأساطير – تستند إلى رواية موجودة فى كتاب Liber Nicholai التى نوردها هنا:

Habent enim Sarraceni quod duos leprosos mundavit، unum cecum illuminavit et quatour paralitiquos sanavit....Quare fecenrut deauratam et in ea posuerunt pedem ipsum balsemando et aromattibus involvendo، et ita omnibus Sarracenis caput est Baldacta sicut Roma caput est Xipistianis.

وقد نشر ف. ماكلير فى بداية القرن الحالى مقالا مهمًا (٤٠) نشر فيه نصا أرمينيا لنفس الأسطورة تستند إلى أصل لاتينى ومصحوبًا بدراسة موجزة وترجمة لذلك النص (٤١).

نرى أن أسطورة النص الأرمنى تكاد تكون نفس أسطورة Nicholai Liber ولا أدرى ما إذا كانت أسطورة أخرى قد وصلت إلى لوبى دى بيغا تحمل التفاصيل التى توردها المسرحية، مع أننى أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك من وحى خياله هو.

يبقى لنا أن نشرح ما يتعلق بالمغناطيس ونرى أنه غير موجود فى أى من نصوص العصور الوسطى التى أوردناها.

فى أسطورة انتشرت على ما يبدو فى الحملات الصليبية الرابعة أو الخامسة حول مجىء الدجال يقال: "عندما يعاد بناء برج بابل وعندما يسقط تمثال محمد المقام بين أحجار مغناطيس". هل يوجد هنا ارتباط مع القصة التى يحكيها لوبى؟ تلك الأحجار الماسية، هل هى أحجار مغناطيسية؟ لست متأكدًا من هذا الأمر، لكن

فى كتاب "أول تاريخ عام لإسبانيا أمر بتأليفه ألفونسو العالم" عند التعرض للحجر الأسود الموجود فى الكعبة يقال:

ولما كانت أحجار هذا المعبد قد رفعت كما ينبغى كان عليهم أن يضعوا على أعلاها حجر أيمنت، وهذا الحجر يقبله حتى اليوم أهل الجزيرة العربية كشعيرة(٤٢).

يرد ذلك فى فصل بعنوان " كيف وضع محمد حجر الأيمنت فى المعبد"(*).

لم أتمكن من الإطلاع للأسف على دراسة أليساندرو دى انكونا وعنوانها "أسطورة محمد فى الغرب" ولا على بعض الدراسات الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع الذى يشغلنا الآن. إن تحليل موضوعات هذه الدراسة والذى قام به فيكتور شاوبين فى كتابه بعنوان *Bibliographie* يشير إلى أسطورة موت محمد على يد اليهودية ويشير إلى أسطورة هيكله العظمى المعلق ويوحى بالرجوع إلى قائمة مراجع وفيرة عن تلك الأسطورة الأكثر شعبية من الأخرى ولا يبدو أن أحدًا قد أشار إلى رواية تجمع بين الأسطورتين كما يظهر ذلك فى مسرحية "العبيد الأحرار". إن بحثا متعمقًا (لم أقم به أنا لضيق الوقت) يمكن أن يقودنا إلى أصل تلك الأسطورة المهينة التى ذكرها لوبى دى بيغا إذا لم يكن هو نفسه الذى ربط بين الأسطورتين وكان ذلك من وحى خياله.

(٣)

وكذلك وصف لى عن كنيسة الغراب، بغرب الأندلس، أنه كان فيها ثريا تقف على نحو وقوف الصليب المتقدم ذكره، وينزل منها نور يوقد ذبالها فى يوم

(*) كتابات ألفونسو العالم دعائية وتحوى كثيرًا من الأكاذيب، منها مثلا أن النبى (ص) ذهب إلى قرطبة ليدعو أهلها إلى الإسلام. من الغريب أن يستند عالم فى وزن لاغرانخا إلى كتاب بهذا المستوى. (المترجم)

من السنة. فذكر ذلك لأحد أمراء بنى أمية بالأندلس، فعجب من ذلك، وسأل عنه. فأخبره رجل من أهل إفريقية أنهم مدوا مع الحائط قصبة حديد ضيق جوفها، وأبرزوا لها أنبوبًا كسم الخياط، موضعه موزون مع طرف ذبال الثريا، ثم إنهم ذلك اليوم يرسلون نار النفط فى القصبة متراكمًا حتى يخرج فى غاية القوة إلى ذبال الثريا الذى هو فى زنة واحدة معه. ووصف الإفريقى مع ذلك ودهانا (كذا)(*) وذكر فى وقوف الثريا مثل وقوف الصليب. (٤٩ ظهر) فاجتاز الأمير على تلك الكنيسة فى إحدى غزواته، وقد دنا يومها فذكر له ذلك. فدعا الإفريقى فعاين معه ما يفعلون. فاستخرج منه قناة من الصفر(**) على نحو ما كان ذكر وعمد إلى سماء الثريا، فاستخرج منه حجرًا من المغنطيس كبيرًا، فسقطت. فأمر الأمير بمعاقبة القسيس(٤٣).

إن مكان حدوث تلك المعجزة – كنيسة الغراب الشهيرة – معروف تمامًا، وقد وصفها الجغرافيون الأندلسيون بشىء من التفصيل، وهو وصف استغله الشرقيون فى تحرير مؤلفاتهم. لقد نقلت من كنيسة الغراب فى المغرب بفالنسيا رفات القديس فيسنتى الذى توجد عنه إشارات كثيرة فى المصادر المسيحية، وقد تعرض لذلك الموضوع سيمونيت فى كتابه "تاريخ النصارى فى الأندلس"(٤٤) وليس هناك ما يدعو إلى ذكر إشارات أخرى إلا إلى مقال ماريو مارتينس (٤٥) بعنوان Peregriacoes e livros de milagros na nossa icade Media لا تتحدث هذه الروايات عن المعجزة التى يتحدث عنها الخزرجى ولا تذكر أن أميرًا أمويا أمر بهدم الكنيسة (يبدو أنها هدمت فى فترة لاحقة) (٤٦). إن الجغرافيين المسلمين هم الذين يتحدثون عن الغربان العشرة الذين يحرسون الكنيسة باستمرار وهى كنيسة كانت تسكنها الراهبات دائمًا.

(*) المخطوطة التى حققها د. عبد الغنى شامة لا تساعدنا على فهم هذه الفقرة الغامضة، إذ لا ترد فيها أصلاً. (المترجم).

(**) (من النحاس الأصفر)، كما ورد فى مخطوطة د. شامة. (المترجم)

المعجزة التى يرويها الخزرجى هنا معجزة مزدوجة: كون المصباح يظل معلقاً فى الهواء ثم إضاءته فجأة فى يوم معين من أيام السنة. ليس هناك ما يدعو إلى أن نقول إن الجزء الأول رواية مختلفة عن سابقتها والتى يكون فيها الشيء المعلق فى الهواء هو صليب. والجزء الثانى مشتق من أسطورة أخرى، نفس الأسطورة التى يشير إليها قسيس طليطلة فى الجملة التى ترجمناها فيما سبق ضمن رسالته. الأمر يتعلق إذن بنفس أسطورة كنيسة القيامة فى القدس التى يشير إليها الخزرجى فيما بعد فى الفقرة ٥ دون أن يذكر اسمها والتى يرويها الجغرافى ياقوت، المتوفى عام ١٢٢٩، على هذا النحو:

قُمامة: بالضم، أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس، وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة، وهى فى وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أن اسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلد وكان فى ظاهر المدينة يقطع بها أيدى المفسدين ويصلب بها اللصوص، فلما صلب المسيح فى هذا الموضع عظموه كما ترى، وهذا مذكور فى الإنجيل، وفيه صخرة يزعمون أنها انشقت وقام آدم من تحتها والصلبوت فوقها سوى، ولهم فيها بستان يوسف الصديق، عليه السلام، يزورونه، ولهم فى موضع منها قنديل يزعمون أن النور ينزل من السماء فى يوم معلوم فيشعله، وحدثنى من لازمه وكان من أصحاب السلطان الذى لا يمكنهم منعه حتى ينظر كيف أمره وطال على القس الذى برسمه أمره قال: فقال لى إن لازمتنا شيئاً آخر ذهب ناموسنا، قلت: كيف؟ قال: لأنا نشبه على أصحابنا بأشياء نعملها لا تخفى على مثلك وأشتهى أن تعفينا وتخرج، قلت: لابد أن أرى ما تصنع فإذا كتاب من النارنجيات وجدته مكتوبًا فيه أنه يقرب منه شمعة فتتعلق به بغتة والناس لا يرونه ولا يشعرون به فيعظم عندهم ويطيعون(٤٧).

إن الجزء الذى يهمنا فى هذا النص لياقوت – وهو الجزء الأخير –غامض للأسف ولا أفهم منه إلا ما ترجمته، ويبدو أن النص غير مترابط وأن الأصل العربى غير سليم بلا شك.

إن أسطورة ذلك المصباح الذى يضىء بمعجزة أمر لا بد أن المسلمين قد عرفوه. يشير إلى ذات الموضوع الجاحظ المتوفى عام ٩٦ م مرتين فى كتاب "الحيوان"، فى المرة الأولى خلال الصفحات الخاصة بالنار حيث يقول:

وما زالت السَّدَنَة تحتالُ للنَّاس جهةَ النِّيران بأنواع الحيل، كاحتيال رُهبانِ كَنيسةِ القُمامةَ ببيت المقدس بمصابيحها، وأنَّ زَيْتَ قناديلها يَسْتَوْقِدُ لهم من غير نَارٍ، فى بعض ليالى أعيادِهم [٤٨] .

بعد ذلك يدرج خبرًا آخر عن حديثه عن الجن فيقول:

افتتان بعض النصارى بمصابيح كنيسة قمامة: وقد تَعْرِف ما فى عجايز النصارى وأغمارهم، من الافتتان بمصابيح كنيسة قمامة، فأما علماؤُهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشِين من الكذب الصِّرف، والجراءةِ على البُهتان البَحْت، وقد تعوَّدُوا المكابرة حتى دربِوا بها الدَّرب الذى لا يفطن له إلا ذو الفِراسة الثَّابتة، والمعرفة الثَّاقبة [٤٩].

ويشير المسعودى المتوفى عام ٩٥٦ إلى نفس الموضوع فى "كتاب التنبيه والإشراف" فيقول:

فى ذلك العصر أمرت هيلانة ببناء كنيسة القيامة التى ينبعث منها نور يوم السبت الكبير الذى فجره عيد الفصح[٥٠] .

لم أعثر على أى خبر عن هذه الأسطورة فى "آثار البلاد" للقزوينى، وهذا يخالف ما نتوقعه، أما فى كتابه "عجائب المخلوقات" (وفيه "كتاب الأنواع")[٥١] فيقول عن يوم ٥ أكتوبر: هو عيد كنيسة القيامة فى القدس يقولون إنه تهبط من السماء نار وتوقد الشموع التى فيها.[٥٢]

هناك مؤلفون مسلمون كثيرون يتحدثون عن هذه المعجزة المحتملة، لكن الشواهد التى ذكرتها تبدو كافية. وكما نرى فإن أسطورة كنيسة القدس الشهيرة قد نسبت إلى كنيسة الغربان وهى ليست أقل شهرة بين مسلمى الغرب. لا يهمنا ما إذا كان الذى نسب المعجزة إلى كنيسة الغربان هو الخزرجى أو أنه وجدها كذلك، لكن فى هذه الحالة الأخيرة يبدو من الغريب أن كتَّاب الأندلس الكثيرين الذين يتحدثون عن كنيسة الغرب لم يذكروا هذه القضية. ربما توجد إشارة إلى المعجزة فى "الرسالة التى يتحدث فيها إلى ابنه عند الذهاب إلى الغرب Algarve عندما علم بأن حياته صارت مضطربة بين الكسل والانحراف" للأديب أبى عبد الله محمد بن مسعود (القرن الحادى عشر) فعندما طلب منه أن يتحدث عن حياته فى تلك البلاد ذكر كنيسة الغربان Algarves ضمن الأماكن العجيبة كحديقة إيرام وبركان مؤنس وعش العنقاء.

إن معجزة النار المقدسة فى القدس كانت على وجه العموم معروفة لدى المسيحيين فى الغرب، ولا بد أن قسيس طليطلة كان يشير إليها، وقد حفظ التراث تلك الأسطورة القديمة التى لا يزال يحتفل بها حتى الآن وقد أذهلت كل من شاهدوها. أضع فى الهامش وصف النار الذى كتبه بيديكير Baedeker فى كتابه عندما تعرض للاحتفال بالأعياد فى كنيسة القيامة (٥٣).

(٤)

وكمثل ما تصفون لنا من نزول مريم من السماء على دون اذفونش المطران بجامع طليطلة، وكست رأسه بجله وحسَّنته بثياب مزينة(*) وذلك فى ليلة النصف من شهر اغشت، فيعظمون تلك الليلة تعظيمًا شنيعًا إلى اليوم.

(*) (بكنيسة طليطلة وأنها كست رأسه بتحلية، وجسمه بثياب مزينة) انظر مخطوطة د. شامة. (المترجم)

أخبرني أيها المغرور عن نزولها التي (الذي؟) تصف: هل كان بإذن زوجها أو بغير إذنه. فإن قلت بإذنه فكيف يجوز عليه أن ينزل ملائكته وعبيده فيمتهن زوجته وأم ولده كما تقولون بإرسالها؟ وإن كان نزولها باختيار منها، لا بإذن من زوجها، فكيف ينبغي أن يكون الله قد اصطفاها واختارها زوجة له وأم ولده من بين نساء بني آدم، فتخونه وتنزل بغير إذنه إلى رجل من جنسها تكسوه بمحلة وثياب مزينة؟ ما ذاك إلا أنها... سبحان الله عما تصفون ، سبحانه وتعالى عما تقولون علوًّا كبيرًا (٥٤).

المعجزة التي تروى في هذه الفقرة هي الوحيدة التي يمكن تحديدها ضمن كل المعجزات التي يشير إليها الخزرجي. لا شك أنه قد عرفها في مدينة طليطلة نفسها التي تحتفل إلى اليوم بتراث إهداء مريم العذراء لغطاء رأس للقديس إلديفونسو.

إن خايمي فريرو أستاذ الإسبانية في جامعة فرانكفورت الذي أعد دراسات ممتازة عن راينر ماريا ريلكه وترجمات للشاعر نفسه قد غيَّر تخصصه، وفي بحث نشره حديثًا يدرس الروايات اللاتينية لهذه المعجزة بمناسبة ذكر بيرثيو(*) لها(٥٥). إن أقدم رواية لهذه المعجزة هي رواية تكسيلا Cixila المتوفى عام ٧٨٣ في كتابه Vita S. Hildefonsi ومنذ ذلك الحين تكثر الروايات عنها حتى أنها حققت انتشارًا كبيرًا في أوروبا: وقد ظهرت في فرنسا (وكانت بمثابة موضوع استوحى منه جوتيير دي كوينسي) معجزة مماثلة قيل إنها حدثت في كليمونت حيث يكون القديس ليونتو أسقف المدينة هو الذي يستقبل غطاء الرأس من مريم العذراء، رغم أن أقدم رواية للمعجزة ليست سابقة على أواخر القرن الحادي عشر.

(*) غونثالو دي بيرثيو من أهم شعراء العصور الوسطى في إسبانيا. له ديوان بعنون "معجزات العذراء سيدتنا" (المترجم)

يدرس فريرو المصطلحات المختلفة المستعملة للباس الهدية فى التراث المكتوب للمعجزتين – قميص وحله – وهذه الكلمة الأخيرة هى التى استمرت فى إسبانيا حيث إن كلمة قميص غير موجودة في المصادر الإسبانية. من المهم تأمل المصطلح الذى يستعمله الخزرجى مرتين.

إن هدية العذراء التى يتحدث عنها الخزرجى هى "ثياب مزينة" وهو تعبير يستخدمه مرتين لكنه يشير قبل كل مرة إلى شيء مكتوب بصورة غامضة، والكلمة فى المرتين مكتوبة بطريقة غير صحيحة. المرة الأولى ربما كانت "مجلة" أو almucella وربما اعتقد الخزرجى أن المقطع الأول هو أداة التعريف "ال" فحذفه ليستخدم النكرة ومعنى كلمة almucela هى غطاء للرأس. وليس منّ السهل علينا أن نعرف من النص ما إذا كان الخزرجى يريد الإشارة هنا إلى شيءً يلبس فى الرأس أو إلى غطاء الرأس، فهو يقول إن الهدية كانت "ثيابًا مزينة". والخزرجى ينقل كلمة سمعها وهى ربما لم تكن مسجلة فى الروايات التى تتحدث عن المعجزة وفى النصوص العربية التى جمعها ا. ثيرولى تسمى هدية العذراء إلى الذيفونسو "بدلة".

ويستعمل فريرو مقال فياكورت عن مجموعة عربية عن معجزات لمريم ويذكر عنه أن معجزة زيارة مريم للقديس إلديفونسو تحتفل بها الكنيسة القبطية ولا يبدو أنه لا يعرف دراسة ثيرولى بعنوان Il libro etiopito dei Miracoli الذى كان يمكن أن يكون مفيدًا له لكتابة مقاله.

إن معجزة القديس إلديفونسو كان لها صدى ليس فقط فى المجموعات الأوروبية عن معجزات مريم وإنما أيضًا فى المجموعات العربية والإثيوبية المشتقة منها، ويدرس البروفيسور ثيرولى فى كتابه الرواية العربية للمعجزة التى تصدر فى مخطوطة عربية بالفاتيكان والنص الإثيوبى المشتق من العربية، ويقارنهما ببعض الروايات العربية فى القرن الثالث عشر.

إن الرواية الإثيوبية – وإحداها كانت معروفة لأنها ترجمت إلى الإنجليزية – تسمى ديكسيوس لكنها تحافظ على اسم المدينة – طليطلة – ومكان المعجزة، ومن المهم الإشارة إلى أن المعابد العربية والإثيوبية تنسب إلى القديس إلديفونسو كتاب معجزات مريم وتذكر أن هدية الحلة هى فى هذه الروايات التى يأتى على رأسها مجموعة معجزات مريم.

إن ذكر الخزرجى لهذه المعجزة هو الأقدم تاريخًا فى المصادر العربية، وعلى حد علمى فإنها الرواية الوحيدة لمؤلف مسلم. وهى فى الوقت نفسه بمثابة دليل للجزء الأعظم من الروايات الغربية – بما فيها الإسبانية – الخاصة بالاعتقاد فى تلك المعجزة التى طالما أوحت للكتاب والرسامين والتى لا يزال صداها موجودًا إلى اليوم. هناك معلومة جديدة يقدمها إلينا الخزرجى فى روايته للمعجزة يجب أن نضعها فى الاعتبار وهى الخاصة بالاحتفال بالمعجزة الذى كان يجرى فى طليطلة فى ذلك العصر فى منتصف شهر أغسطس.

(٥)

وكمثل (ص٥٠ وجه) ما تدعون فى زيتونة وادى آش، وتزعمون فى توقف أرحى(*) شنت دمنقة، وكريث(**) مكناسة ووادى بسطة. والنور الجديد فى عيدكم، والنور الذى ينزل ببيت القدس، إلى غير ذلك من الهذيانات والمخاريق التى لا تجوز إلا عليكم ولا يتعبد بها من جهّال العالم غيركم (٥٦) .

الفقرات السابقة التى تبدو مقسمة فى المخطوطة التى استخدمتها تحكى كل واحدة منها المعجزات المختلفة التى نتعرض لها بالدراسة. فى هذه الفقرة يشير الخزرجى إلى سلسلة من المعجزات الأخرى دون أن يشرح – إلا فى حالتين –

(*) ربما كانت وحى. عمومًا فقد ترجمها المؤلف بكلمة طواحين. (المترجم)

(**) لم يستطع لاغرانخا أن يقرأ الكلمة فى المخطوطة، أما د. شامة فقد أوردها (كنيسة). (المترجم)

ماهية المعجزة التى يتحدث عنها، ويبدو أن سبب ذلك أنه اعتبر أن المعجزات التى ذكرها بالتفصيل كافية ولم يشأ ذكر تفاصيل المعجزات الأخرى التى يتعرض لها لكى ينهى هذا الفصل من كتابه الجدلى، أو ربما كان الأمر يتعلق بمعجزات معروفة جدا مما لا يوجب التوسع فى شرح تفاصيلها. فى هذه الحالة الأخيرة لم يشأ أن يتعرض لموضوع القديس إلديفونسو، فهو معروف جدا، وعمومًا فهذه المعجزة الأخيرة تعد مجالا ملائمًا للهجوم على الديانة المسيحية.

سنرى الآن ما هى المعجزات التى توجد عنها أخبار فى المصادر الأخرى:

أ- زيتونة وادى آش

إحدى العجائب التى رواها أحمد بن عمر العدرى ويحدد مكانها بالقرب من لوركا فى ميرابيت والتى تشير إلى شجرة زيتون تقول:

إحدى العجائب شجرة زيتون بجوار كنيسة فى حى يحيط به جبل بالقرب من مدينة لورقة، بجوار حصن مرابط. عندما تحين صلاة العصر فى اليوم الذى يسبق أول ليلة من ليالى شهر مايو تزدهر الشجرة، وقبل الفجر تكون قد نبتت لها براعم. وعند فجر اليوم التالى تصير كل ثمار الزيتون سوداء ناضجة. كان الناس يعرفون هذه العجيبة ويأتون للتفرج على الشجرة، وكان الأمراء يرسلون مندوبين، وقد قطع الناس تلك الشجرة من كثرة عدد الذين كانوا يأتون لرؤيتها. ظلت مقطوعة فترة من الوقت، لكن بعد ذلك نبت الجذر ولا تزال حتى اليوم على الوصف الذى تَقَّدم.

أحد الأخبار القديمة التى قرأتها عن هذا الموضوع هى أن إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى حكى أنه فى عام ٣٥٠ هـ قال له ملك النصارى فى روما "أنوى أن أرسل إلى أمير المسلمين فى الأندلس موفدًا ذكيا ومعه هدية. أحد أهم الأهداف التى أسعى إليها ، وأحد أهم الطلبات التى سأطلبها منه هو أن عندى أخبارًا مؤكدة عن وجود كنيسة ينمو بجوارها شجرة زيتون تزهر وتثمر فى ليلة

عيد الميلاد وتنضج ثمارها فى اليوم التالى. الشهيد المدفون فيها له مقام عال أمام الله سبحانه وتعالى. سأطلب من هذا الأمير أن يكسب ود قساوسة الكنيسة وأن يوعز إليهم أن يسلموا إلىَّ رفات هذا القديس. إذا حققت ذلك سيكون أفضل متاع هذه الدنيا (٥٧) .

وفى الطبعة الحديثة لكتاب الجغرافية للزهرى(٥٨)، والذى كان يظن أنه مجهول المؤلف، هناك إشارة إلى عجيبة مماثلة يحكيها على النحو التالى:

بجوار هذا الجبل توجد شجرة يقول الناس عنها إنها تزهر وتثمر فى يوم واحد هو يوم العنصرة. والحقيقة ليست هذا الذى يقولون. صاحب الرواية، رحمه الله تعالى، يقول: رأيت هذه الشجرة وهى بجوار حصن شكر ولها فرعان يصل أحدهما إلى الأرض، ويظل الثانى عاليًا. الفرعان موجودان داخل أطلال بناية من عهد عاد. رأيت الشجرة فى يوم العنصرة وكان الناس مجموعين حولها. رأيت فيها زيتونًا مثل الزيتون الموجود عادة فى يوم العنصرة، لكن مع تقدم النهار اخضرَّ الزيتون، وفى الظهيرة كان لون الزيتون أبيض، وفى العصر كان لونه يميل إلى الحمرة. عندئذ هجم الناس وانتزعوه، وربما لو تركوه لصار إلى اللون الأسود لآخر النهار. يقول أهل البلد إنه فى أزمان سابقة، فى عهد بنى أمية والثورة فى الأندلس، منع الناس من قطف تلك الثمار، وقبل أن يحل الليل كان الزيتون أسود. لكن هذا ما رأيته بعينىَّ (٥٩).

ربما كان النص الأهم مع أنه الأكثر إيجازًا هو نص أبى حامد الغرناطى الذى يتحدث عن الموضوع بهذه الطريقة:

نبع غرناطة: بالقرب من غرناطة، فى بلاد الأندلس، توجد كنيسة بها نبع وشجرة زيتون. يأتى الناس إليها ويمكثون بجوار الشجرة فى يوم من أيام السنة. فى ذلك اليوم، عند الشروق يفيض النبع وتزهر الشجرة، وتنبت الثمار وتنمو ثم

تصير إلى اللون الأسود خلال اليوم. من يريد زيتونًا يأخذ ما يشاء، ومن يريد ماء يحمل منه ما يشاء [٦٠] .

هذه الرواية نفسها مع تغييرات طفيفة نجدها عند القزوينى فى كتاب "عجائب المخلوقات" ويضيف المؤلف: "لقد قرأت هذه الرواية فى كتب كثيرة".

وكما نرى، فإن الأمر يتعلق بأسطورة منتشرة جدا ويصعب التوصل إلى معرفة أصلها. وقد أشار إليها مؤلفون كثيرون، وعمومًا فقد نسب الأسطورة إلى وادى آش وهو قريب من غرناطة التى وجدت بها أسطورة أهل الكهف، ويلى فقرة أبى حامد الغرناطى التى ترجمناها منذ قليل تعليق لا للرحالة الغرناطى وإنما لشخص تعرض للموضوع وأوجزه بهذا الشكل:

ما يتعلق بشجرة الزيتون فهذا يعلمه الجميع، وأما موضعها ففيه خلاف. ذكر لى الفقيه سعيد بن عبد الرحمن الأندلسى أنه فى سيغورا، ويقول أحمد بن عمر العدرى صاحب كتاب المسالك والممالك الأندلسية أنه فى لوركا، ويقول عبد الحميد أنه فى غرناطة. وكلهم من أهل الأندلس والمواضع التى ذكروها كلها من بلاد الأندلس والجمع بين أقاويلهم ممكن [٦١] .

هذه الفقرة التى تبدأ بكلمة "قلت" يبدو أنها وردت فى هامش مخطوطة قديمة كملحوظة لناسخ أو لمالك المخطوطة، لكن الفقرة أدمجت فى النهاية فى نص تحفة الألباب.

ب – توقف طواحين سانتو دومينغو، وهى معجزة تمت بتدخل قديس إسبانى بهذا الاسم وربما أوقفها لإنقاذ حياة طفل أو لسبب مشابه، وعمومًا فإن مكان المعجزة هو إسبانيا .

ج – بعد ذلك يتحدث عن معجزة أخرى يبدو أنها تكررت فى مكانين: ميكيتشا ووادى باثا، وللأسف فهناك كلمة جذرها "و.ك.د" لا أعرف لها تفسيرًا وعندى تفسير أريد أن يؤخذ مأخذ الجد لهذا أتركه للنهاية

لا أجد معجزة تشير إلى ميكيتشا، أما فيما يتعلق بباثا فهناك معجزة بالقرب منها أو بين باثا وبابيثا. يشير المؤلفون العرب فى إسبانيا إلى كهف يسقط من سقفه الماء دون توقف نقطة نقطة وهو منظر يجذب كثيرًا من الناس ٥٢ -٥٤ فالماء يستقر فى الحفير(*) دون أن يتسرب ودون أن يقل مستواه مهما شرب منه الناس. إن خبر هذا الكهف الذى يسوقه مؤلفون عديدون ينتهى فى آثار البلاد للقزوينى بكلمات للعدرى:

فى هذا الكهف هناك ميت غير متعفن رغم الزمن الطويل، ولا يعرف عنه شيء.

هل يفهم من كلمات الخزرجى معجزة تنسب إلى هذه الجثة (جثة قديس ما)؟

د – الضوء الجديد فى عيد المسيحيين الذى تحدثنا عنه كمعجزة يقبلها قسيس طليطلة، أى عيد مسيحى كبير يقصد؟ بالتأكيد يقصد أعياد الميلاد، أى ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر وهى التى كان يحتفل بها المسلمون أنفسهم، وهو أمر سأتحدث عنه فى العدد القادم من هذه المجلة.

هـ – النور الذى يهبط فى القدس والذى أشرنا إليه آنفًا.

(*) أى الحفرة، وهكذا وردت. (المترجم)

الهوامش

١- يعترض الأستاذ ب. دوفيلار على نسبة بروكلمان هذه، ويرى أن مؤلف الكتاب قرطبى آخر.

٢- حول هذا المؤلف وأعماله انظر Brockelman. GAL, II, 85, y Suppl., II, 100 فى صفحة ٢١٥(ظهر) من الكتاب وهى الغلاف يرد أن اسم المؤلف هو "الناجى" وهو خطأ

٣- توجد نسخ كتاب الإعلام فى العلبة رقم ٩١ داخل مظروف كبير مكتوب عليه اسم السيد ميغيل أسين بالاثيوس، ويبدو على المظروف خاتم بريد سرقسطة بتاريخ ٢٠ أكتوبر عام ١٩٤٣. هذا ما يجعلنى أظن أن ميغيل أسين-الذى كان يقضى عطلته الصيفية فى سان سباستيان- حمل معه هذه النسخ لدراستها ووضعها فى المظروف المذكور الذى ربما كان يخص رسالة أخرى.

٤- من الغريب ان الخطأ فى ذكر العنوان على أنه الإسلام (بدلا من الإعلام) يتكرر فى صفحة ٦

٥- انظر ب. دوفيلار ، المقدمة، ص. ٣١- ٣٥. هذه النظرية يؤيدها أيضا ميكيل دى إيبالثا فى دراسته المذكورة

٦- أشير إلى دراسته التى أفدت منها كثيرا فى هذا البحث وغيره، وهى: Islam and the West, The Making o fan Image, Edinburgh, 1960.

٧- Arabica, VVIII, fasc. I, febrero 1971,pp. 99-106

٨- Introducción, pp. 44-56

٩- أرى الآن أن ب. دوفيلار قد استعمل الصفحات التى كتبها إيبالثا عن الموضوع فى مقدمة دراسته عن تورميدا

١٠- مجلة البحث العلمى المغربية، السنة الخامسة، رقم ١٣ يناير -ديسمبر ١٩٦٨ ص. ٢٣-٣٢

١١- Al Andalus, XXXI (1966), pp. 47-72

١٢- La Leerte du “Moine de France” a al Muqtadir Billah, roi et la reponse d;al Bayi, le faquir andalou, en Al Andalus, XXXI (1966), pp. 73-153.

١٣- Ibn al Abbar, Kitab al Taqmila li kitab al Sila, ed. A Bel y M. Ben Cheneb, Argel, 1920, I, 104-105 (num. 223)

١٤- Ahmad Baba al Tinbukti, Nayl al ibtihay, al margen del Dibay de Ibn Farhun, Cairo, 1351,p. 59

١٥- Ibn Farhun, Al Dibay al mudhab, Cairo, 1351, pp. 50-51.

١٦- لم أتمكن من الاطلاع على كتب أخرى تتناول هذه الشخصية: "جذوة الاقتباس" لابن القاضى (الذى ينقل البيانات الواردة فى "كتاب التكملة" لابن الأبار) و كتاب "السلوى" للكتانى. ولم تتح لى فرصة الاطلاع على مخطوطة "الوافى" للصفدى ولا مخطوطة "التعريف" للحفناوى هما يشيران إلى الخزرجى. لكننى لا أعتقد أن أيا من هذه الكتب يتضمن معلومات مهمة غير تلك التى يذكرها عبد الملك.

١٧- ربما كان معجم الفضة الشهير فى تمادولت أو تمادالت ، على بعد عشرة أميال من منبع نهر سوس.

١٨- ابن عبد الملك المراكشى "كتاب الذيل والتكملة" الجزء الأول، ١، بيروت (بدون تاريخ ولا مقدمة) ص. ٢٣٩- ٢٤١

١٩- لصياغة هذه الفقرة رجعت إلى "كتاب أعمال الأعلام" لابن الخطيب، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢٥٣-٢٥٤.

٢٠- فيما يتعلق بالتاريخ تتفق المصادر التى تتحدث عنه، وهذا مهم بالنسبة لما سوف أذكره لاحقا.

٢١- انظر فقرة سأنقلها فيما بعد

٢٢- خصص كتابا لهذه الشخصية المهمة، وقد ظهر الكتاب منذ أعوام انظر: J. Kritzeck, Meter the Venerable and Islam, Princton,1964

٢٣- فى الرواية التى أسوقها حذفت الإشارة إلى المصادر، فقد ذكرتها آنفا.

٢٤- برنامج شيوخ الرعينى، تحقيق إبراهيم شبوح، دمشق ١٣٨١أ، ١٩٦٢.

٢٥- فهمت ذلك من مقاله فى مجلة الأندلس الذى أشرت إليه حيث يشير إلى ثلاثة مخطوطات لكتاب "مقامات (كذا) الصلبان" لكننى عندما قرأت دراسته بعنوان La culture arabo-musulmane et la Peninsule Iberique (Revue Tunisienne de Siences Sociales, II, diciembre 1965) التى يشير فيها إلى الخزرجى وجدت أنه يسمى كتابه " مقامع الصلبان فى الرد على عبادة (عابدى؟) الأوثان"

٢٦- انظر مقاله المذكور، المنشور فى Revue Tunisienne de Siences

٢٧- أحد هذه المخطوطات يحمل رقم ١٨٦٣ بمكتبة أحمد الثالث ويشير إليه محمد المنونى فى مقاله المذكور ويشير "فهرس المخطوطات المصورة" لجامعة الدول العربية الذى أعده فؤاد سيد (القاهرة، ١٩٥٤) إلى هذه المخطوطة التى تحمل عنوان "مقامع هامات

الصلبان ومراتع روضات الإيمان". أشكر صديقى صلاح فضل على إهدائى نسخة من هذا الفهرس.

٢٨- ميكيل دى إيبالثا، مقال مذكور فى الملاحظة الهامشية رقم ٧، ص ١٠٤.

٢٩- Devillard, tesis citada, Introducción, p. 53.

٣٠- Enc. Islam, III,945-46 y el articulo de E. Lator en Al Andalus, IX,1944, p. 371-417

٣١- "مقامع الصلبان" مخطوطة آيا صوفيا رقم ٢٣٦٧، ص ٤ وجه.

٣٢- المصدر السابق، ص. ٤٨ ظهر، ٤٩ وجه.

٣٣- القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠)

٣٤- ابن الأثير، كتاب مذكور، طبعة القاهرة، ١٣٠٣ هـ، "ذكر فتح سومناة"

٣٥- يقدم أبو الفداء رواية موجزة للحدث.

٣٦- أقول لغير المستعربين إن العذرى إسبانى وأن كتابه الذى يعتبر مفقودا قد نشرت منه فقرات منذ سنوات، وقد نشرت أنا شخصيا بعض الفقرات فى كتابى: Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón, Zaragoza, VIII, 1967, pp. 447'545.

٣٧- Obras de Lope de Vega, Real Academia Española (Nueva edición), V (1918), pp. 431-432

٣٨- N. Daniel, Islam and the West, ed. Cita., pp. 103-106

٣٩- Manuel Serrano Sanz, Vida de Mahoma, según un códice latino de mediados del siglo XIII, publicado en Erudición Ultramarina, II, 1931, pp. 365 ss, III, pp. 115 ss.

٤٠- Un document armenien sur l;assasinat de Mahomet par une juive, en Melanges Hartwig Derenburg, Paris, 1909,pp. 287-295

٤١- F. Macler, art. Cit. Pp. 288

٤٢- Ed de don Ramón Menéndez Pidal, Madrid, 1955,I, 267-8

٤٣- ٢٣٦٧، ، ، ص. ٤٩صــــوفيا يا آ مخطوطة، "الصـــلبان مقـــامع"

٤٤- F. de Somonet, Historia de los Mozarabes de España, Madrid, 1897'1903,pp. 253-257

٤٥- En Revista portuguesa de Historia, V (1951),p 87-236.

٤٦- يعتقد سيمونيت أنها نهاية القرن الحادى عشر أو بداية القرن الثانى عشر على يد المرابطين بقيادة أبى القاسم

٤٧- ياقوت الحموى ، معجم البلدان، القاهرة، ١٣٢٤ هـ، الجزء السابع، ص. ١٠٨-١٠٩

٤٨- انظر كتاب الحيوان، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ٥٦ - ١٣٦٤ هـ ، الجزء الرابع ص ٤٨٣.

٤٩- المصدر السابق، الجزء السادس ص ٢٠١ - ٢٠١)

٥٠- انظر كتاب التنبيه والإشراف القاهرة (١٣٧٥، ص١٢٣) وقد ذكره الجاحظ في المصدر السابق الجزء الرابع ص ٤٨٣

٥١- حول هذا النوع من الكتب انظر: Ch. Pellat, Dictons rimes, anwa et mansions lunaires chez les Arabes, II, 1955, pp. 17-41, y el artículo en la Enc. De l Islam, I, 538- 40

٥٢- القزويني، كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، القاهرة، مطبعة التقدم، بدون تاريخ، ص. ٧١.

٥٣- Karl Baedeker, Palestine et Syrie, Manuel du voyaguer, Leipzig, 1912, p. 42

٥٤- "مقامع الصلبان" آية صوفيا، ص ٤٩

٥٥- J. Ferreiro Alemparte, Las versiones latinas de la leyenda de san Ildefonso y su reflejo en berceo, en BRAE, tomo L, mayo-agosto 1970, pp. 233-276

٥٦- "مقامع الصلبان" آية صوفيا، ص ٤٩،٥٠

٥٧- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار والبستان فى غرائب البلدان، تأليف أحمد بن عمر بن أنس العذرى، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥، ص٧-٨

٥٨- Texte arabe etabli avec introduction…par Mahammed Hadj Sadok, Bulletin d; Etudes Orientales de damasco, XXI, 1968, pp. 1-312.

٥٩- 59- Ibid.,. 210

٦٠- تحفة الألباب لعبد الحميد الغرناطى، تحقيق غ. فيرّاند، فى Journal Asiatique, julio – diciembre, 1925, pp. 1-148 y 193- 304.

٦١- تحفة الألباب ، ص. ٢٣٥. النص يقول: وكلهم من أهل الأندلس والمواضع التى ذكروها كلها من بلاد الأندلس، والجمع بين أقاويلهم ممكن.

القسم الثانى

دراسات موريسكية

الجانب الدينى

ثقافة موريسكى:
قراءة فى المخطوطة ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية

جمال عبد الرحمن

تمثل المخطوطات التى خلفها الموريسكيون فى مجملها أحد أهم المصادر التى تسهم فى فهم أبعاد المشكلة الموريسكية. وتكتسب هذه المخطوطات أهمية كبيرة لأسباب شتى: العامل اللغوى، والتاريخ المحلى لإقليم ما، ووضع أقلية معينة... إلخ. وفى بعض الأحيان تكتسب المخطوطة الموريسكية أهمية خاصة لأسباب تتعلق بالمجتمع الإسلامى كله. ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن الإسلام الأندلسى – سواء فى عصر الازدهار أو خلال فترة التدهور – كان يطرح باستمرار مشاكل فقهية جديدة [1]. وعندما نزح الموريسكيون إلى تونس اعتبارًا من عام ١٦٠٩ تعين على الفقهاء التونسيين بذل الكثير من الجهد حتى يتمكنوا من الرد على تساؤلات القادمين الجدد، وكان هؤلاء يجهلون جوانب كثيرة فى أمور الدين الإسلامى، وكانت بعض الأسئلة التى يطرحونها جديدة تمامًا. إن مشكلة اللغة التى يمكن أن يكتب بها موضوع إسلامى مجرد نموذج لتلك المسائل الفقهية الجديدة.

١–محتوى المخطوطة:

تبدأ المخطوطة ببيان معنى المصطلحات المستخدمة: الواجب والجائز والمستحيل. ثم تبين أن معرفة الخالق سبحانه وتعالى واجب على كل مسلم بالغ، يتساوى فى ذلك الرجال والنساء، والعبيد والأحرار. ولما كانت معرفة الله واجبة فإن المؤلف الموريسكى يخصص الصفحات الأولى لشرح معنى كل صفة من صفاته تعالى كالوجود والقدم والقدرة والسمع والبصر والوحدانية والإرادة. يتحدث بعد ذلك عن صفات الأنبياء فيذكر أن الواجب فى حقهم يشمل الصدق والأمانة والتبليغ ويستحيل فى حقهم الكذب والخيانة، ويجوز فى حقهم كل عوارض البشر

كالأكل والشرب والنوم والعمل والمرض (غير المعدى)... إلخ. بعد ذلك ينتقل إلى شرح معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. يلى ذلك عرض لسيرة الخلفاء الراشدين. هنا ينتهى الفصل الأول. أما بقية الفصول فهى مخصصة لشرح العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وفقًا للمذهب الحنفى.

٢- المؤلف وتاريخ التأليف:

كتبت معظم المخطوطات الموريسكية فى ظروف بالغة الصعوبة، حين كانت محاكم التفتيش الإسبانية تحظر ممارسة شعائر الدين الإسلامى. لهذا كان من قبيل المخاطرة أن يكتب المؤلف – أو الناسخ – اسمه فى صدر المخطوطة. نعنى هنا بالتحديد الفترة التى سبقت قرار طرد الموريسكيين من إسبانيا، أما بعد وصول مسلمى الأندلس إلى بلاد المهجر فقد زال الخطر وأصبح بالإمكان أن نعرف بعض أسماء أولئك المؤلفين، وقد عرفنا بالفعل أسماء بعضهم مثل عبد الكريم بن على بيريث، وخوان بيريث، وإبراهيم الطيبيلى، والحاج محمد روبيو، وأحمد بن قاسم بيخارانو، ومحمد ربضان، وإبراهيم دى بولفاد، وابن عبد الرافع، وأحمد بن قاسم بن الشيخ الحجرى، وأحمد الحنفى، وإبراهيم غانم – صاحب مخطوطة عن الأسلحة ترجمت إلى العربية وكانت لها فائدة عظيمة– وغيرهم.

ومع ذلك فإننا لا نعرف اسم مؤلف المخطوطة التى بين أيدينا الآن (لسوء الحظ ضاعت الورقات الأولى للمخطوطة، وربما كان الاسم مكتوبا فيها)، لكننا نعلم شيئًا ما عن حياة المؤلف، فقد ذكر غير مرة أنه قد عاش فى إسبانيا ثم هاجر إلى تونس. وقد اصطلح المتخصصون على تسمية ذلك المؤلف المجهول باسم "لاجئ تونس". وعلى ضوء معلومات سنعرضها بعد قليل نستطيع أن نؤكد أن لاجئ تونس قد كتب – على الأقل– كتابين(٢):

أ- المخطوطة S-2 التى درسها كل من خايمى أوليفر أسين(٣) ولوثى لوبيث بارالت(٤) بتوسع.

ب- المخطوطة التى ندرسها الآن.

ومن خلال هذه المخطوطة التى بين أيدينا نعرف أن المؤلف قد وضع كتابًا آخر وإن كان لم يحدد لنا موضوعه، ففى ص ١٨ كتب ما يلى:

و(محمد) رسول الله سيدنا الأمين، وهذا ما شرحناه بإيجاز لأننا توسعنا فى هذه النقطة فى مواضع أخرى........

ويذكر إدواردو سابيدرا(٥) أن المخطوطة رقم ٩٦٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد (وهى عبارة عن شرح لكتاب فى التفسير وضعه إبراهيم دى بولفاد) كتبها مؤلف مخطوطتنا. ويستبعد أوليفر أسين(٦) – دون أن يستند إلى دليل – أن تكون المخطوطتان ٩٦٥٤ و٩٦٥٣ لنفس المؤلف، لكنه يعترف أن ناسخهما واحد. أما الباحث الفرنسى لوى كارداياك فقد قام بدراسة تحليلية للمخطوطات ٩٦٥٤ و٩٦٥٣ وS-2 وخلص إلى أن مؤلفهم شخص واحد (٧).

لم نتمكن من الإطلاع على المخطوطة ٩٦٥٣، وعليه فليس بوسعنا أن نعلق على ما ذكر بشأنها. أما من حيث المخطوطتين ٩٦٥٤ وS-2 فإننا نرى أن مؤلفهما واحد للأسباب التالية:

- ناسخهما واحد (لا أدرى ما الذى يمنع أن يكون الناسخ هو المؤلف نفسه).
- تشابه موضوعات المخطوطتين.
- الإشارة إلى أعمال الكاتب المسرحى لوبى دى بيغا فى الكتابين دون ذكر اسمه والاكتفاء بكلمة "الشاعر" فى النصين.
- عندما يتحدث المؤلف عن محاكم التفتيش فإنه يستخدم التعبيرات نفسها فى المخطوطتين.
- عندما يتعرض لمجادلة المسيحيين فإنه يستشهد بأشعار متشابهة فى المخطوطتين.
- يشير المؤلف فى كل مخطوطة إلى أنه وضع مؤلفات أخرى.

لا نعرف كذلك تاريخًا محددًا لكتابة المخطوطة. الشيء الوحيد المؤكد هو أنها كتبت بعد عام ١٦٠٩ بعد وصول المؤلف إلى تونس. يقول أوليفر أسين – فى معرض الحديث عن المخطوطة S-2 المشار إليها – إنها كتبت بعد الطرد بسنوات طويلة، ويذكر عام ١٦٣٠ على وجه التحديد كتاريخ محتمل لتأليفها [٨] ويستند فى ذلك إلى عبارة ذكرها المؤلف تحدث فيها عن رغبته فى أن يقرأ الجيل المولود فى تونس هذه المخطوطة. إذا وضعنا فى الاعتبار أن المخطوطة التى بين أيدينا تتناول أول ما يجب أن يدرسه المسلم من أركان الإيمان والعبادات فلنا أن نقول بأنها كتبت قبل المخطوطة S-2.

٢– ثقافة موريسكى:

تعد المخطوطة التى بين أيدينا نموذجًا للثقافة الموريسكية بكل أبعادها. عاش الموريسكيون فى إسبانيا وكانوا يشكلون عنصرًا أصيلا من عناصر وطنهم. كانوا يعتبرون كل ما هو إسبانى – باستثناء ما يخالف الإسلام– جزءًا من مكونات ثقافتهم (ومن هنا يجيء تآلفهم مع الأعمال الأدبية الإسبانية). من ناحية أخرى أجمعت كل الدراسات الحديثة على أن الموريسكيين ظلوا يؤدون شعائر الإسلام حتى خلال الظروف بالغة الصعوبة والمتمثلة فى ملاحقة محاكم التفتيش لكل من يشتبه فى تعلقه بالإسلام. كان من نصيب الموريسكيين أن يعيشوا الفترة الأخيرة للإسلام الأندلسى، وقت أن كان هذا الإسلام – لأسباب مختلفة – فى عصر تدهور (لذلك سنلاحظ أن التراث الموريسكى به كثير من الأحاديث الموضوعة والمعلومات غير الصحيحة والنبوءات). فى تلك الفترة كان من الشائع عقد مناظرات بين المسلمين والمسيحيين (بعيدًا عن أعين محاكم التفتيش بالطبع، وقد درس لوى كاردياك هذا الموضوع بتوسع). سنرى الآن أن كل هذه العناصر سيكون لها مكان فى المخطوطة، وسنتعرض فيما يلى لكل هذه العناصر بالدراسة.

ا- الجدل الدينى:

- طبيعة سيدنا عيسى.

شكلت طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام مادة للجدل بين المسلمين والمسيحيين الإسبان. يتحدث لاجئ تونس عن الأنبياء بشكل عام، ويشير إلى أن كل نبى قد أيده الله بمعجزة أو بمعجزات، ويقول إن عيسى عليه السلام كان نبيا مثل بقية الأنبياء ولهذا أجرى الله على يديه بعض المعجزات. يقول الموريسكى إن هذه المعجزات ليس من شأنها أن ترفع سيدنا عيسى إلى درجة تتجاوز طبيعته كبشر وكرسول. إن الأمر واضح بالنسبة للموريسكى مؤلف المخطوطة: ليس بمقدور أى إنسان - حتى لو كان نبيا- أن يقوم بمعجزة من تلقاء نفسه، فالمعجزة لا يستطيع أن يقوم بها إلا الله سبحانه وتعالى، وهو يجرى المعجزة على يد النبى لكى يصدق الناس أنه نبى مرسل. بالنسبة لمعجزة ميلاد المسيح عليه السلام يشير المؤلف إلى أن خلق سيدنا آدم كان أكثر إعجازًا، فقد خلقه الله دون أن يكون له أب أو أم:

ولا يمكن للأنبياء أن يكونوا آلهة، وقد نسب بعض ضعاف الفهم إلى الأنبياء صفة الألوهية، وهذا ما فعله المسيحيون التعساء، فقد رأوا أن سيدنا عيسى قد وضعته السيدة مريم.... وأن الله قد أجرى على يديه معجزات كثيرة فعميت أبصارهم وقالوا إنه إله، وفاتهم أن خلق آدم من حفنة من التراب وخلق حواء من ضلع آدم أشد إعجازًا من خلق طفل فى رحم امرأة، (فهذا شىء عادى). هكذا يكون أكثر منطقية أن يكون آدم وحواء آلهة. ولو كانت المعجزات تجعل من أجريت على أيديهم آلهة فليس هناك فرق بين نبى وآخر. إن كل ذلك عمى وتعاسة، فعيسى ومريم بشر خلقاهما الله كالآخرين. (ص ١٣)

- الأناجيل:

يعرض لاجئ تونس محتوى الأناجيل ويوجه لها النقد بعد ذلك. يفرق الموريسكى بين الكتاب الذى أنزله الله على سيدنا عيسى وبين الكتب التى وضعها

تلاميذه: الكتاب الأول هو الإنجيل (ص١٣ ظهر)، أما الكتب الأخرى فيوجه إليها انتقادات شديدة استنادًا إلى ما عرفه عنها وهو يقيم فى أسبانيا:

والمؤمنون يقولون إنه خلق فى رحم السيدة مريم العذراء وإنه نبى أرسله الله ومعه الإنجيل وهو شرع الله الذى جاء به. وليكن معلومًا أن الإنجيل ليس ما كتبه لوقا ومرقص وحنا ومتى، فكل ذلك زيف وتأليف، بل الإنجيل كتاب أرسله الله (إلى عيسى) مع جبريل فبلغه للناس... ثم رفعه الله إليه. (ص١٣ ظهر).

ويذكر المؤلف أنه – خلافًا للمسيحيين الذين ينتقدون الإسلام دون أن يدرسوه – يوجه النقد إلى العقيدة الكاثوليكية على أساس دراسة وتجربة شخصية (ص ١٤).

– موقفه من محاكم التفتيش:

يبلغ إيمان الموريسكى بالإسلام إلى حد التصريح بأنه لولا الخوف من محاكم التفتيش لدخل كثير من المسيحيين فى الإسلام. يقول المؤلف "إن كل شريعة المسيحيين وضعها البابوات على غير أساس" ويواصل حديثه قائلا:

ولا أظن إلا أن الكثيرين يعلمون ذلك، ولما كان ليس بوسعهم أن يتكلموا خوفًا من محكمة التفتيش اللعينة، فهم يخفون ذلك فى صدورهم. (ص ١٠ ظهر).

وتشير الوثائق التى تعرضها غارثيا أرينال فى كتابها "الموريسكيون الأندلسيون" إلى أن القساوسة الإسبان كانوا يخشون أن يتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام. إن هذه الجملة التى ذكرها الموريسكى بالتحديد ترد فى بعض وثائق الكتاب (٩) .

لم يتعرض الموريسكيون القادمون إلى تونس لحملة أسلمة إجبارية فى تونس. لقد قرأنا الكثير من الشهادات التى أطلقها الكتاب* المعاصرون للموريسكيين وذكروا فيها أنهم كانوا "مسلمين كأهل الجزائر"، ومن ثم فليس من باب الإنصاف

أن يتحدث أحد عن عملية تثقيف إجبارية فى تونس. إن الموريسكى يعرض بنود العقيدة الكاثوليكية ثم يصدر حكمه الخاص عليها:

هذه هى شريعة المسيحيين التى رأينا بأعيننا أنهم يمارسونها والتى تظاهرنا حينًا باتباعها، لكن الله يعلم أن ذلك كان على سبيل التظاهر وأننا كنا على يقين من خطأ تلك الشعائر (ص ١٤).

- تجربة شخصية:

هناك عنصر آخر من عناصر الثقافة الموريسكية وهو الخاص بالجدل حول الدين. يجب ألا ننسى أن الصراع كان فى أساسه صراعًا دينيا. كان الموريسكيون يدافعون عن هويتهم الإسلامية فى مواجهة عمليات التنصير التى كان الكاثوليك يمارسونها ضد إرادتهم، وكانت السلطات ترسل إلى السجون أصحاب المذهب البروتستانتى بالإضافة إلى الموريسكيين. لذلك نجد فى المخطوطة رواية لواقعة جدل بين أحد الموريسكيين وقسيس بروتستانتى. يستجيب الموريسكى لتعاليم القرآن فيجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ويبتعد عن السباب:

أتذكر واقعة حدثت فى زماننا... كان أحد الموريسكيين مودعًا فى أحد سجون محكمة التفتيش الظالمة فى طليطلة. كان مودعًا فى حجرة مظلمة وأدخلوا عليه مبشرًا مسيحيًا معتقلاً. شعر المبشر المسيحى بالإهانة لأنهم تجرءوا عليه وأدخلوه السجن فأخذ يركل الأرض بقدميه ويطلق الشتائم على أعضاء محكمة التفتيش. بعد لحظة هدأ غضبه وأدار وجهه فوجد الموريسكى جالسًا فوجدها فرصة للحوار فقال له "لقد قرأت منذ فترة كتابًا نسميه "ضد القرآن" ووجدت فيه معجزة انشقاق القمر ودخوله فى كم الإزار وهى المعجزة التى يتحدث بها المسلمون. أنت تعرف أن القمر كبير جدًا فكيف يدخل فى كم الإزار وهو صغير. ألا تظن أن هذا ضلال؟" تحرك الإيمان فى قلب الموريسكى الذى كان يدرك قدرة الله فقال للمبشر "سيدى، من الأكبر هل هو الله أم القمر؟" "أجاب المبشر" وهل هناك شك فى أن الله

أكبر من القمر؟" قال الموريسكى "فكيف – والحال كذلك – يدخل الله فى مجرى التنفس وهو أصغر من الكم؟ ألا يمكن للقمر إذن أن يدخل فى كم الرداء؟" نهض ذلك الشيطان المبشر واشتد غضبه وبدأ يضرب باب الحجرة حتى جاء قائد السجن فطلب مقابلته. حضر أعضاء محكمة التفتيش وحكى لهم المبشر ما حدث مع الموريسكى وأضاف "لو أن هذا الرجل تُرك حيًا لتحول الإسبان جميعًا إلى مسلمين" ولهذا حُكم على الموريسكى بالموت حرقًا رضى الله عنه" (ص ٨ –٩).

يستخدم الموريسكى فى محاورته للمسيحيين كل الوسائل المناسبة، وطبيعى أن تكون الأدلة المنطقية من بين تلك الوسائل. يقول الموريسكى إن الكاثوليك لا يعرفون شيئًا عن الإسلام وبالتالى فهم يرتكبون كثيرًا من الأخطاء عند إصدار أحكام على موضوعات إسلامية:

من يحكم على أمر دون فهمه

لابد أن يكون حكمه خاطئًا (ص ١١)

يشير الموريسكى فى الفقرة السابقة إلى الكتاب الذى وضعه الكاثوليك بعنوان "ضد القرآن" فيذكر أنهم فى هذا الكتاب يكتبون الآية ثم يترجمونها لكى ينتقدوا مضمونها بعد ذلك. يذكر الموريسكى أن ترجمة الآيات ليست دقيقة، وهو بذلك يدحض حجج الكاثوليك الإسبان:

وقع هذا الكتاب فى يدى. إنهم يكتبون الآية ويترجمونها إلى اللاتينية ثم يردون عليها. إنهم لا يفعلون ذلك مع كل الآيات، وإنما مع الآيات التى يحددونها. وقد وجدت أن ترجمتهم مختلفة تمامًا عن معناها فى القرآن، وهكذا يخطئون فى كل شىء. (ص١١).

- **قصائد جدلية:**

أنتجت المجابهة الجدلية بين المسلمين الإسبان والكاثوليك مجموعة كبيرة من القصائد. يستخدم الموريسكى هذه القصائد التى كتبها محمد ربضان (وهو شاعر موريسكى هاجر إلى تونس) أو تلك التى ظلت مجهولة المؤلف:

يا من تجعلون لله ابناً

وتخصصون له

مئات التماثيل

من الذهب والرخام والبرونز والخشب

وتقدمون له القرابين الزائفة (ص١٤)

من المناسب أن نذكر هنا أن لاجئ تونس لا يخصص فصلا للجدل الدينى. إنه لا يتعرض للموضوع إلا إذا كانت هناك مناسبة للحديث عنه.

ب- التقية والتمسك بالدين الإسلامى:

بعد أن يعرض الموريسكى بنود العقيدة الكاثوليكية يوجه إليها نقدًا شديدًا ويقول إنه إذا كان قد مارس الشعائر المسيحية وهو فى إسبانيا فلم يكن ذلك إلا من باب التقية خوفًا من ملاحقة محكمة التفتيش له:

هذه هى شريعة المسيحيين التى رأينا بأعيننا أنهم يمارسونها والتى تظاهرنا حينًا باتباعها، لكن الله يعلم أن ذلك كان على سبيل التظاهر وأننا كنا على يقين من خطأ تلك الشعائر (ص ١٤).

كان من شأن الفتوى التى أصدرها أحمد بو جمعة وأرسلها من وهران إلى الأندلس عام ١٥٠٤ أن يتمكن المسلمون هناك من ممارسة شعائر الإسلام سرا وأن يتظاهروا باتباع المسيحية تجنبًا لملاحقة محاكم التفتيش.

من الثابت أيضًا أن الموريسكيين كانوا متمسكين بالإسلام، ونجد هذا الأمر واضحًا فى هذه المخطوطة التى يشرح فيها لاجئ تونس شعائر الدين الإسلامى. يتعرض المؤلف لعدة جوانب فى العقيدة الكاثوليكية وينهى حديثه بهذا التعليق:

ولما كنا قد تربينا معهم فإننا نعلم جيدًا ما يعتقدون وما يقولون وكل ذلك زيف ولهذا تركناه وأتينا إلى هنا بحثًا عن اليقين (ص١١).

ج- على بن أبى طالب فى التراث الموريسكى:

تتحدث كتب السيرة عن شجاعة على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقد برزت تلك الشجاعة فى مواطن كثيرة، خاصة فى موقعة بدر الكبرى. ورغم أن كتب السيرة تنسب إلى على بن أبى طالب شمائل كثيرة كالتواضع والعلم والتقوى، إلا أن الموريسكيين كانوا يبرزون شجاعته بشكل خاص، بل وقد وصل غلوُّهم فى هذا الأمر إلى أن نسبوا إليه بطولات خارقة. إن المخطوطات التى تعرض هذا الأمر كثيرة ونذكر منها على سبيل المثال المخطوطة رقم ٥١٢٠ بالمكتبة الوطنية بمدريد (ص. ٥٠-٥٩). ويقدم الدكتور غالميس دى فوينتيس هذه الصورة لعلىٍّ بن أبى طالب استنادًا إلى المخطوطات الموريسكية:

كانت شجاعته منقطعة النظير، حتى أنه "وهو يمتطى جواده كان يساوى ألفين من الفرسان"، وكانت قوته خارقة، فكان يقسم فارسًا وحصانه إلى نصفين بضربة واحدة.... وفى بعض الأحيان كان على يكرُّ بمفرده على جيش كامل ويفعل به ما تفعل النار فى الهشيم [١٠].

أما فى المخطوطة التى بين أيدينا فقد وردت هذه السطور:

وأعقبه (فى الخلافة) سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه، زوج السيدة فاطمة رضى الله عنها، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان أشجع من عرف من المحاربين، فقد كان يظهر فى أية موقعة فحتى لو كان غائبًا فى مكان بعيد كان

الله يرسله وكان يظهر بين الناس وحقق النصر فى كل المعارك، وهو الذى يظن المسيحيون أنه سانتياغو وهم مخطئون. (٢٥ ظهر)

نستطيع أن نفسر تركيز الموريسكيين على الجانب الأسطورى فى بطولات على بن أبى طالب بالظروف الخاصة التى كانوا يعيشونها. لقد بذل الموريسكيون كل ما فى وسعهم للتخلص من اضطهاد السلطات المسيحية الإسبانية، ولم يعد أمامهم سوى انتظار معجزة إلهية. هذا ما يفسر وجود نبوءات موريسكية تتحدث عن قرب انتصار الإسلام(المخطوطة ٤٩٣٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد تتنبأ بأن سلطان تركيا سيسترد الأندلس من الكفار) ويفسر أيضًا الحديث عن معجزات يجريها الله على يد على بن أبى طالب.

د- الفقه على المذهب الحنفى:

رأينا أن الموريسكى متمسك بالدين الإسلامى، ونرى هنا شيئًا جديدًا: إن الموريسكى الذى كان يتبع المذهب المالكى وكان يتعصب له، نراه الآن يعرض الفقه على المذهب الحنفى. كان الموريسكى دون شك يريد أن يتجنب المشاكل فى بلده الجديد تونس التى كان المذهب الحنفى سائدًا فيها.

من المعلوم أن المسلم المعاصر يتفهم جيدًا قضية اختلاف الفقهاء الأربعة حول بعض الأمور، فكلهم استند إلى القرآن الكريم وإلى الأحاديث الصحيحة. ليس هناك خلاف بين الفقهاء الأربعة فى أمور تتعلق بجوهر العقيدة، بل حتى فى الأمور التى اختلفوا بشأنها لم يتعصب أحد منهم لرأيه، ولم نعرف عن أحد الفقهاء أنه أراد تعميم مذهبه وترك ما عداه. لكن الوضع فى الأندلس كان مختلفًا بعض الشىء، فقد أعجب الأندلسيون بمذهب الإمام مالك، وتعصبوا له بل ونسجوا الأساطير حول شخص مالك نفسه (راجع المخطوطة J 3/3)، وكان أهل الأندلس يقولون: "لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك". اتباع المذهب المالكى فى حد ذاته

لا يمكن اعتباره أمرًا سيئًا، إنما الأمر السيّء هو إنكار ما عداه من المذاهب. ونذكر هنا ما يقوله الإمام أبو إسحاق الشاطبى الغرناطى فى كتاب "الاعتصام":

ولقد لقى الإمام بقىُّ بن مخلَّد حين دخل الأندلس آتيًا من المشرق من هذا الصنف الأمرَّين، حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب، لأنه جاءهم من العلم بما لا يدى(؟) لهم به إذ لقى بالمشرق الإمام أحمد بن حنبل وأخذ عنه مصنفه وتفقه عليه، ولقى أيضًا غيره، حتى صنَّف المسند المصنف الذى لم يصنف فى الإسلام مثله، وكان هؤلاء المقلِّدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق والغلوُّ فى محبة المذهب، وعين الإنصاف ترى أن الجميع أئمة فضلاء....(١١)

لعلنا ندرك الآن أن لاجئ تونس حين أراد عرض الفقه الإسلامى وفقًا للمذهب الحنفى كان يعلم أنه يحدث البعض منهم بما لا يعرفون، ولهذا رأى أن يمهد للموضوع ببعض الكلمات:

وهكذا نتعرض الآن للركن الثانى وهو الصلاة، وسنعرضها على مذهب سيدنا أبى حنيفة رضى الله عنه. ولا يجب أن يفهم أحد أن وجود أربعة مذاهب معناه الاختلاف، بل الشريعة شيء واحد فأتباع المذاهب جميعًا يؤدون الوضوء والصلاة والركوع والسجود بنفس الطريقة، والاختلاف لا يعدو كون هذه الجزئية فرضًا عند أحدهم وسنة عند الآخر، فقد كتب كل فقيه طبقًا لما فهمه بعلم... وبما أنهم اجتهدوا ونشروا ما عرفوه فكلهم له عذره، والمصيب منهم له أجران والمخطئ له أجر واحد. (ص ٢٦ ظهر-٢٧).

وعمومًا فإن بين أيدينا الآن أول كتاب فى الفقه على المذهب الحنفى باللغة الإسبانية، وهذا أمر غير معهود فى المخطوطات الموريسكية.

هـ - تأليف كتاب فى الفقه الإسلامى باللغة الإسبانية:

تعرض المخطوطة موضوعًا جديدًا: هل يمكن وضع كتاب فى الفقه الإسلامى بلغة غير العربية؟ من المناسب أن نذكر هنا أن الفقه الإسلامى قد خطا خطوات جادة فى السنوات الأخيرة فيما يتعلق بالإجابة على التساؤلات التى يطرحها المسلمون المعاصرون، خاصة ممن يعيشون كأقليات فى بلاد غير إسلامية.(تعد مؤلفات د. يوسف القرضاوى رائدة فى هذا المجال. لم يبدأ القرضاوى من فراغ بالتأكيد، فقد سبقه بعض الفقهاء فى التصدى للرد على سؤال ما).

كان بعض الفقهاء المسلمين يبدى التحفظ حول اللغة التى ينبغى أن يكتب بها النصوص الفقهية. وكان عيسى بن جابر مفتى سيغوبيا من أوائل من كتبوا مؤلفات دينية بالإسبانية [١٢]. وقد وجد الرجل حرجًا شديدًا فى ذلك وبرر ما فعل بأنه لا يريد أن يكتم علمًا وأن المسلمين المعاصرين له قد نسوا اللغة العربية فوضع لهم الكتاب بالإسبانية حتى يفهموه. يقول مفتى سيغوبيا فى "مختصر السنّة": "لقد فقد الناس النور والمدارس واللغة العربية، وقد طلب منى بعض الأصدقاء أن أستخرج لهم من القرآن والنصوص الدينية كتابًا بالإسبانية حتى يمكن اتباع شريعتنا المقدسة والسنة".

بدأ موضوع اللغة المستخدمة بمناسبة إمكانية تأدية الصلاة بلغة غير العربية، ومن المعلوم أن ثلاثة من الأئمة اشترطوا أن تؤدى الصلاة باللغة العربية وأن الإمام أبا حنيفة قد أجاز الصلاة بغير العربية لمن لا يعرف العربية. أما العلوم الدينية بصفة عامة فلا يعترض الفقهاء على كتابتها بغير العربية. هناك بعض الاستثناءات. يرى الجاحظ أن كتب الدين لا تجوز ترجمتها [١٣]، بل ولا يجيز ترجمة الشعر العربى حيث يرى أن الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل. على أن الجاحظ – وهو مرجع لغوى دون شك- كان يتحدث عن الترجمة وكيف أن المضمون قد يضيع معها، وليس من المعتاد أن يعود الناس إليه فى أمور

الفقه. أما فى أوساط الفقهاء فقد كان أكثر المتشددين فى هذا الأمر هو ابن تيمية، وقد رأى أن "نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"(١٤). لكن ابن تيميه يقول فى موضع آخر إن ترجمة القرآن عمل جائز للحاجة "وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه... ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة"(١٥). ويقول الإمام ابن تيمية إن الناس يعتمدون على الترجمة فى أمور دنياهم "وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا، فكيف لا يتوسلون إلى فهم مراد بعضهم من بعض؟" (١٦).

وقد اتبع الفقيه التونسى أبو الغيث القشاش رأى جمهور الفقهاء وقال بجواز وضع كتاب فى العلوم الدينية باللغة الإسبانية وذكر أن هذا الأمر "مقبول، بل وأجره عظيم" (المخطوطة S-2 ص ٨) (١٧).

و- الأثر العربى فى المخطوطة:

من المعلوم أن لاجئ تونس وهو فى إسبانيا كان يجهل كثيرًا من أمور الدين الإسلامى الخاصة ببعض تفاصيل الشعائر (يرد ذلك فى المخطوطة S/2). إذا وضعنا هذه البيانات فى الاعتبار فلنا أن نبدى كثيرًا من الشك فى أن يكون الموريسكى مؤلفًا للمخطوطة ٩٦٥٤ (أو للمخطوطة S/2 لنفس الأسباب) ونحسبه قد ترجم الكتاب عن أصل عربى. وإذا أردنا الإنصاف فعلينا أن نعترف بأنه لم يكن مجرد مترجم أمين للنص العربى، فمن الثابت أنه يضيف تعليقات على النص الأصلى من واقع الحياة فى إسبانيا ويوجز بعض الفقرات إن رأى فيها إسهابًا. وبالإضافة إلى ما تقدم يمكننا أن نسوق بعض البيانات التى تعضد وجهة نظرنا:

- الاستخدام المتكرر لحرف العطف على غير المعمول به فى اللغة الإسـبانية. (انظر ص٧ ظهر و١٣ مكرر ظهر على سبيل المثال)

- تكرار استخدام الصفة ومرادفاتها على غير الشائع فى اللغة الإسبانية. (انظر ص ٤ و٦ و٢٤)
- تأنيث المذكر أو تذكير المؤنث فى الإسبانية بما يتفق مع المعمول به فى اللغة العربية.
- مراعاة الخصائص الأسلوبية العربية ومخالفة الإسبانية. (انظر ص ١٥ ظهر و١٨ و٢٤ ظهر و٢٦ ظهر)، ولنا تعليق خاص على ما جاء فى ص١٥ ظهر، فقد استخدم الموريسكى صيغة الفعل الموافقة للغائب المفرد للإشارة إلى الغائب الجمع.

إذا وضعنا فى الاعتبار أن لاجئ تونس كان يجيد الإسبانية منذ طفولته وأنه قارئ جيد لأعمال أدبية إسبانية رفيعة المستوى وأنه – لذلك – لا يمكن أن يرتكب الأخطاء اللغوية المشار إليها، فإن كل ما سبق يدعونا إلى القول بأن الموريسكى كان مترجما لا مؤلفًا وإن كنا – إحقاقًا للحق– نعترف بأنه لم يقتصر على مجرد الترجمة، وإنما أضاف أحيانًا وأوجز فى أحيان أخرى (فى ص ٢٦ ظهر) يقول: "إن علم التوحيد علم واسع، وحتى لو أنفق الواحد منا سنوات يقرأ عنه فستظل هناك أمور يريد أن يتعلمها، ولما لم يكن العلم بكل جزئياتها واجبًا، فسأكتفى بوضع ما يجب أن يكون معلومًا بالضرورة ومما لا يعذر الجهل به....". ذلك الحذف وتلك الإضافة أضفيا على النص حيوية تفتقدها بعض النصوص الجامدة المكتوبة باللغة العربية.

ز– لوبى دى بيغا والموريسكيون:

كان الأدب الإسبانى يمثل أحد العناصر التى يعجب بها صاحب المخطوطة، وقد أشار الموريسكى فى مرات عديدة إلى أعمال الكاتب المسرحى لوبى دى بيغا، سواء فى هذه المخطوطة أو فى المخطوطة S-2، والملاحظ أن الموريسكى حين

يشير إلى مسرحيات لوبى لا يصرح باسمه وإنما يكتفى بكلمة "الشاعر". بقى أن نذكر أنه يفعل نفس الشىء مع الكتاب الآخرين: غارثيلاسو وكيبيدو وغونغرا.

تحدث الباحثون كثيرًا عن العلاقة بين لوبى دى بيغا والموريسكيين، وقد خصص الكاتب الإسبانى كثيرًا من مسرحياته للحديث عن الموريسكيين، فكتب مسرحيات بعنوان الشريف ابن سراج *El hidalgo Bencerraje* وابن رضوان *El hijo de Raduan* وبدرو كاربونيرو *Pedro Carbonero*وعلاج البؤس *El remedio en la desdicha* وحصار سانتا فى *El cerco de Santa Fe*والعالم الجديد الذى اكتشفه كولون *El nuevo mundo descubierto por Cristóbal Colon* وغيرها (١٨).

تبدو صورة الموريسكى سيئة فى الجزء الأعظم من هذه المسرحيات، أما الموريسكيون الطيبون الذين يظهرون فى مسرح لوبى فهم "مسيحيون فى داخلهم وينتهى بهم الأمر إلى اعتناق المسيحية". (١٩) والجدير بالذكر أن لوبى لا يساوى بين الموريسكيين والمسيحيين إطلاقًا، فهو دائمًا يبرز تفوق المسيحى و"يخونه الذكاء فى غالب الأحوال" (٢٠).

وتبدو العلاقة بين لوبى والموريسكيين أكثر تشابكًا، فمسرحية "قروية من خيتافى La villana de Getafe مستمدة إلى حد ما من حياة الكاتب نفسه كما يذكر ماركيث بيانوبيا (٢١): كان شغله الشاغل هو دحض الأقاويل التى تحط من شأن نسبه. أراد لوبى أن يوضح أن اتهامه بأنه ينحدر من أصول موريسكية لا يعدو كونه دعابة... " (٢٢).

يتحدث خايمى أوليفر أسين فى دراسته للمخطوطة S-2 عن إعجاب لاجئ تونس بالكاتب المسرحى الإسبانى، ونلاحظ فى المخطوطة التى ندرسها الآن أن الموريسكى يشير إلى "الشاعر" دون أن يحدد اسمه. وقد رأينا عند فحصنا للمخطوطة أن شخصًا ما قد كتب بالقلم الرصاص كلمة "لوبى" بجوار كلمة

"الشاعر". الجدير بالذكر أن إدواردو سابيدرا – فى وصفه للمخطوطة- يذكر أنها تتضمن مقطوعتين شعريتين للوبى دى بيغا. وإذا كان أوليفر أسين نفسه يعترف بصعوبة العثور على أصل أبيات لوبى التى يذكرها الموريسكى(٢٣) – نظرًا لضخامة الإنتاج الأدبى الذى خلفه الشاعر الإسبانى- فليس بوسعنا إلا أن نقول إن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لنا.

ح- أثر مسيحى:

الشيء المؤكد هو أن الموريسكى تمسك بالإسلام وهو فى إسبانيا. لكننا نرى جانبا آخر من جوانب ثقافة الموريسكى، فبعد أن وصل إلى تونس ظلت به بعض آثار الثقافة الكاثوليكية. نحسب أن الحديث عن ظهور على بن أبى طالب، واشتراكه فى المعارك حتى بعد وفاته، مجرد محاكاة لما كان يزعمه الكاثوليك الإسبان عن ظهور سانتياغو. ونحسب أننا نجد أثرًا مسيحيا آخر فى المخطوطة. إن الكتب الدينية الإسلامية لا تتعرض لمسألة عذرية السيدة مريم بعد أن ولدت السيد المسيح. يعلم المسلم أن السيدة مريم لم ترتكب إثمًا حين حملت، ويعلم كذلك أن مولد سيدنا عيسى على هذا النحو إنما هو معجزة إلهية. يتوقف الأمر عند هذا الحد فى الثقافة الإسلامية بالنسبة لهذا الموضوع. لذلك فإننا نرى أن إصرار الموريسكى على أن السيدة مريم ظلت عذراء " أثناء الوضع وبعد أن وضعت" (ص١٣) إنما هو أثر مسيحى. نرى كذلك أن الموريسكى يقبل من التعاليم الكاثوليكية ما لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية.

خاتمة:

يتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن لاجئ تونس، مؤلف المخطوطة ٩٦٥٤ بالمكتبة الوطنية بمدريد، كان شخصًا واسع الحظ من الثقافة.(على عكس ما كان يعتقد لوبى دى بيغا، كما يوضح أوليفر أسين) عاش فى إسبانيا وتعين عليه أن يدرس العقيدة الكاثوليكية. لكنه كان على دراية بتعاليم الإسلام. قارن بين الديانتين

وكان اختياره واضحًا لا يقبل الشك. قال إن الكاثوليكية خطأ وحمد الله على أن مكّنه أخيرًا من العيش بين إخوته فى الدين.

نتفق تمامًا مع ما يقوله خايمى أوليفر أسين: إن الكتابات الموريسكية تثبت أن الموريسكيين كانوا مسلمين مقتنعين بإسلامهم، ومن ثم فلم يكن بالإمكان أن يستوعبوا الثقافة المسيحية.(٢٤) لهذا السبب نفسه نرى أن الموريسكيين لم يتعرضوا لعملية أسلمة فى البلاد التى هاجروا إليها، فقد كافحوا طويلا من أجل الحفاظ على هويتهم الإسلامية. لذلك فإن تونس – أو أى بلد إسلامى آخر– كان هو وطنهم الروحى. هذا لا يتعارض مع كون الموريسكى إسبانيا تمامًا.

المخطوطة التى بين يدينا تقدم لنا شيئًا جديدًا تمامًا: الفقه على المذهب الحنفى بالإسبانية، ومن المعلوم أن أهل الأندلس بصفة عامة كانوا يتبعون المذهب المالكى ولا يقبلون غيره.

لم تذهب فترة حياة الموريسكى فى إسبانيا سدى، فعندما يضع كتابًا فى فقه العبادات بالإسبانية لا يقتصر على مجرد ترجمة النص العربى، بل يثرى الكتاب برواية حادثة ما أو يقدم أمثلة على ما يقول أو يستشهد بأبيات من الشعر. (علينا أن نعترف بأن الكتاب فى صورته النهائية يخلو من الجمود الذى تتصف به بعض الكتب الدينية المحررة بالعربية).

تحفل المخطوطة بالإشارات إلى أعمال أدبية لمواطنيه الإسبان. إن إعجاب كاتبنا بالشعراء وكتاب المسرح الإسبان يتضح من خلال صفحات المخطوطة.

وهناك عنصر "إسبانى" آخر فى ثقافة الموريسكى، يتمثل فى الاستعانة بقصائد مؤيدة للإسلام ومعارضة للكاثوليكية عندما يتعلق الأمر بالجدل الدينى. العنصر التالى خاص بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، فرغم أن الثقافة المسيحية لا تشير إلى رابع الخلفاء الراشدين إلا أن حديث الموريسكيين عن ظهوره واشتراكه فى الحروب لنصرة الإسلام ليس إلا أثرًا إسبانيا مسيحيا، إذ يحاكى

مسلمو الأندلس ما يقوله المسيحيون الإسبان عن سانتياغو. وهناك أثر مسيحى أخير فى المخطوطة يتمثل فى إصرار الموريسكى على القول بعذرية السيدة مريم بعد أن وضعت سيدنا عيسى.

إذا أردنا أن نلخص مضمون ثقافة الموريسكى كاتب المخطوطة ٩٦٥٤ فى جملة واحدة فلا أظن أننا نخالف الحقيقة إذا استعرنا ما كتبته لوثى لوبيث بارالت عن نفس الموريسكى، فى معرض الحديث عن المخطوطة S-2: "كان إنساناً أراد أن يعيش كمسلم فى إسبانيا إبان محاكم التفتيش، ولم يكن بوسعه أن يتخلى عن هويته الإسبانية وهو فى تونس... الشيء الوحيد الذى كان واضحًا بالنسبة له هو إيمانه الخالص بالإسلام، ذلك الإيمان الذى أصبح بإمكانه أن يعبر عنه بحرية فى وطنه الجديد" (٢٥) .

الهوامش:

١- انظر الفتوى التى أصدرها أحمد بو جمعة وأرسلها من وهران إلى الأندلس عام ١٥٠٤، وقد ورد نص الفتوى فى كتاب محمد عبد الله عنان "دولة الإسلام فى الأندلس"، الجـزء الـسابع، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠١، ص ٣٤٢. لاحظ أن عيـسى بـن جابر مفتى سيغوبيا يطرح قضايا جديدة تمامًا خاصة بصلاة الجمعة وبالزكاة فى بلد لـم يعـد المسلمون يتمتعون بالحرية الدينية فيها. أما ميكيل دى إيبالثا فهو يتعرض للتكييف الفقهى لمـا كان يدفعه ملوك الأندلس المسلمون لملـوك النـصارى : Mikel de Epalza: "El Cid y los musulmanes: el sistema de las parias-pagas, la colaboración de Aben Galbón, el titulo de Cid-león, la pasadita fortificada de Alcocer", *Simposio Internacional El Cid en el Valle de Jalón*, Centro de Estudios Bilbiltanos, Instituto Fernando el Católico, Calatayud, 1991, pp. 107-125,: Véase también la Fatwa enviada desde Oran a los moriscos en 1504, traducida en *Vida religiosa de los moriscos*, de Pedro Longas (Madrid, 1919). Puede verse también el *Breviario sunni* de Iça ben Yaber comentado por G. Weiggers, *Actas del III Congreso de Estudios Moriscos, Zaguan, Túnez, 1989* pp. 181-188.

٢- انظر كتاب لوثى لوبيث بارالت وتشرح فيه هذا الموضـوع بالتفـصيل. *Un kama sutra español*, ed. Siruela, Madrid,1992 p.91-95

٣- Jaime Oliver Asin:"Un morisco de Túnez, admirador de Lope", *Al Andalus*, 1933, pp.409- 456.

٤- Luce López Baralt: *Un kama sutra español*, ed. Siruela, Madrid, 1992.

٥- Eduardo Saavedra: *Discurso de ingreso en la Real Academia Española*, Memorias de la Real Academia Española, VI (1889), pp. 165-70 y 290-91

٦- Oliver Asin:op. cit., p. 416.

٧- Véase Baralt: *Un kama Sutra*...., cit., p. 91

٨- Oliver Asin: op. cit., p.421

٩- Mercedes García Arenal: *Los moriscos*, ed. Siglo XXI, Madrid, 1996 p.100: جاءت هذه الكلمات فى ملف قضية فرانثيسكو دى اسبينوسا

١٠- Galmes de Fuentes: *El libro de las Batallas*, tomo I, ed. Gredos, Madrid, 1975, p. 51

١١- أبو إسحاق الشاطبى الغرناطى: الاعتصام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الجزء الثانى، ص.٣٠٣ ،وقد توفى عم ٢٧٦ هجرية، الموافق ٨٨٩م.

١٢- G. Weiggers: op. cit, pp. 183- 184

١٣- الجاحظ: الحيوان، ج١، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأول، الحلبى، ١٩٣٨، ص٩٠.

١٤- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق محمد حامد الفقى، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ص ٢٠٧.

١٥- ابن تيمية: درء تعارض العقل مع النقل ٤٣/١ تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١٣٩٩/١.

١٦- ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطابع المجد، ١/ ٢١٤.

١٧- Oliver Asin: op. cit, p. 414

١٨- Soledad Carrasco de Urgoiti: *El moro de Granada en la literatura*, Universidad de Granada, Granada, 1989, pp. 87-88.

١٩- Ibid, p. 87

٢٠- Ibid.

٢١- Lope de Vega: *La villana de Getafe*, estudio, edición y notas de José Mª Diez Borque, ed. Orígenes, Madrid, 1990. p.12

٢٢- Ibid.

٢٣- Oliver Asin: op. cit.,p. 419

٢٤- Ibid., pp. 413-414

٢٥- Luce López Baralt: *Un kama Sutra español*, Libertarias/Prodhufi,

رسالة موريسكية إلى العالم:
قراءة فى مخطوطتين بمكتبة إسبانيا الوطنية

جمال عبد الرحمن

يتلقى البعض منا بين الحين والآخر رسالة مجهولة المصدر يدَّعى صاحبها أن اسمه أحمد وأنه خادم الروضة الشريفة وأن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه فى المنام وكلفة بإبلاغ رسالة إلى الناس.

تقول الرسالة إن من يكتب منها عدة نسخ ويوزعها على الناس سيصيبه خير عميم فى الدنيا والآخرة، أما من يتجاهلها فستحل عليه المصائب فى المال والولد، بل لن يكون فى عداد المسلمين.

وقد بلغت الرسالة شأنًا عظيمًا لدرجة أن الرئاسة العامة لإدارات الدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية خصصت فصلا كاملا من كتاب للرد عليها ودحض الافتراءات الواردة فيها. وقد لفت نظرى أن الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله يقول- فى معرض رده على الرسالة:

"وقد سألت بعض أقارب الشيخ أحمد المنسوبة إليه هذه الفرية عن هذه الوصية فأجابونى بأنها مكذوبة على الشيخ أحمد وأنه لم يقلها أصلا، والشيخ أحمد المذكور قد مات من مدة (١).

سنرى فيما بعد أن الشيخ أحمد الذى يتحدث عنه ابن باز لا علاقة له بالشيخ أحمد الذى تتحدث عنه الرسالة، فقد عاش هذا الأخير منذ ما يربو على أربعة قرون.

فى إحدى زياراتى إلى مدريد كنت أعكف على فحص المخطوطات التى خلفها مسلمو الأندلس، وكانت دهشتى كبيرة حين وجدت أمامى نسخة مماثلة لرسالة الشيخ أحمد التى يجرى تداولها بين الناس.

والشيء المؤكد هو أن الرسائل التى يدَّعى أصحابها أنهم رأوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه كلفهم بإبلاغ وصية إلى الناس، هذه الرسائل ليست قليلة، فهناك رؤيا أحد الصالحين فى تونس (المخطوطة رقم ٦٠٦١ بمكتبة إسبانيا الوطنية)، ورواية ابن كثير (المخطوطة رقم ٥٣٨٣ بمكتبة إسبانيا الوطنية)، ورؤيا ابن كثير (المخطوطة رقم ٣٩٨٣)، ثم رؤيا الشيخ أحمد فى المخطوطة نفسها.

من بين كل هذه الرسائل تبرز وصية الشيخ أحمد، فهى أكثرها شيوعًا، بل إننا فى مصر لا نكاد نعرف سواها. إن مقارنة سريعة بين هذه الرسالة الوصية وبقية الرسائل تفسر لنا السبب: الرسائل الأخرى طويلة مسهبة ولا نكاد نعرف ماذا يريد أصحابها منا على وجه التحديد سوى نقلها من بلد إلى بلد ومن بيت إلى بيت، أما رسالة الشيخ أحمد فهى موجزة وتطلب منا شيئًا محددًا: أن نصوم ثلاثة أيام وأن نصلى فى المسجد.

نعرض فى السطور التالية وصفًا للمخطوطة التى تتضمن الرسالة. تنقسم المخطوطة رقم ٤٩٨٣ المودعة فى مكتبة إسبانيا الوطنية إلى ثمانية أجزاء، كل جزء منها محفوظ فى مظروف مستقل.

١- المظروف الأول به بعض الآيات القرآنية يعقبها دعاء القنوت وصيغ التشهد والأذان والإقامة.

٢- المظروف الثانى به آيات قرآنية. الخط يشبه الخط الذى كتبت به أوراق المظروف الأول. الورقة الأخيرة (من وجهين) بها دعاء لناسخ المخطوطة (رغم أنه ارتكب عددًا هائلا من الأخطاء الإملائية).

٣- المظروف الثالث به صيغة لعمل حجاب. يلاحظ هنا أن الخط سيئ للغاية، وأن الناسخ (وهو دون شك مختلف عن ناسخ الأجزاء السابقة) لا يجيد قواعد الإملاء.

٤- المظروف الرابع يحتوى على نص رؤيا ابن كثير. يقول شخص يُدعى ابن كثير إنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه كلفه بإبلاغ وصية ما إلى الأمة. تقول الرسالة إن المسلمين يجب أن ينقلوا نص الوصية من بلد إلى بلد ولا يجب أن يتجاهلوها. عندما استيقظ ابن كثير وجد الرسالة بين يديه. والحقيقة أن الرسالة شديدة الغموض، إذ لا نتبين ماذا يريد صاحبها سوى أن ننقلها من بلد إلى بلد، وهى تحذرنا أن من لا يفعل ذلك ستحل عليه النكبات. هناك جزء ثان من المظروف الرابع يتضمن آيات قرآنية وفقرات عن فضائل سورة الرحمن.

٥- المظروف الخامس به آيات قرآنية وفصل عن تارك الصلاة وعقوبة شارب الخمر ثم بعض آيات ثم أدعية النبى صلى الله عليه وسلم فى المناسبات المختلفة ثم حديث عن كرامات بعض الصالحين.

٦- المظروف السادس به آيات قرآنية، والخط شبيه بتلك الخطوط التى تكتب بها المخطوطات الموريسكية عادة. هناك جملة بالألخميادية فى إحدى الصفحات.

٧- المظروف السابع يتحدث عن فضائل بعض سور القرآن الكريم، وفى الجزء الأخير منه نجد وصفًا لكيفية عمل حجاب لكل غرض.

٨- المظروف الثامن يتضمن رسالة الشيخ أحمد.

من هذا العرض يتبين أن المخطوطة تجمع بين خصائص المخطوطات الموريسكية فى أواخر سنوات وجود المسلمين فى إسبانيا من حيث ضعف مستوى اللغة العربية وكثرة الأخطاء الإملائية عند الناسخ، ومعالجة المخطوطة الواحدة لموضوعات شتى، ويُعد مضمون المخطوطة فى كثير من الأحيان عن الإسلام الصحيح [٢]، لكننا سنقصر حديثنا الآن على الجزء الثامن من المخطوطة.

لغة المخطوطة:

من حيث اللغة يمكن اعتبار المخطوطة ٤٩٨٣ نموذجًا للمخطوطات الموريسكية، فبالإضافة إلى ما ذكرناه فى الفقرة السابقة نجد فيها خاصيتين معتادتين فى كتابات مسلمى الأندلس فى العصر المتأخر، هما أثر اللغة العامية، والأثر الواضح للغة الإسبانية فى الناسخ وفى المؤلف على السواء. ونعرض فيما يلى بعض الأمثلة:

التعبير	الملاحظة
كنت ليلة الجمعة نتلو	تغيير ضمير المتكلم
يا الشيخ أحمد ى‌ى	أثر إسبانى واضح، فالمنادى المضاف فى اللغة العربية لا تدخل عليه أداة التعريف"ال"
عندك شىء من أخبار أمتى؟	أثر إسبانى، فالمعتاد هنا استعمال أداة الاستفهام "هل"
مولانا عز وجل قال	أثر إسبانى ففى اللغة العربية تبدأ الجملة عادة بالفعل
باب التوبة تغلق عن قريب	أثر إسبانى واضح، لأن كلمة "باب" لفظ مذكر فى العربية ومؤنث فى الإسبانية
إذا أغلق باب التوبة لا تقبل	أثر إسبانى، فالأسلوب العربى السليم يقضى بتكرار كلمة التوبة هنا
يحملون أهليهم وأولادهم	"يحملون" هنا ترجمة لكلمة Llevar، أما فى العربية فتستخدم كلمة "يصطحب" عادة

وبالإضافة إلى هذه الملاحظات نجد أن هناك تعبيرات كثيرة تستخدم فيها حروف الجر فى غير مكانها الصحيح، وهو ما يمكن أن نعتبره أثرًا إسبانيا آخر فى لغة المخطوطة. ونجد كذلك خلطًا بين السين والصاد، وبين الياء

والكسرة...إلخ. أى أن المخطوطة يجمع بين خصائص الكتابات الموريسكية المتأخرة.

تاريخ المخطوطة:

لدينا عدة بيانات نستند إليها لتحديد تاريخ المخطوطة:

- من حيث الخط يقول غيين روبليس [٣] عن خط المظروف السادس إنه يعود إلى القرن الرابع عشر، أى أن تاريخ تحرير المخطوطة يقترب من هذا التاريخ.

- من حيث اللغة رأينا أن النص – بما يتضمنه من أخطاء لغوية ،أخطاء إملائية ونحوية، وبما فيه من أثر إسبانى وعامى- يعود إلى الفترة الموريسكية المتأخرة.

- من حيث مضمون الرسالة لدينا معلومتان توضحان – على وجه التحديد- تاريخ تحرير المخطوطة:

أ- جاء فى كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" لبدرو لونغاس [٤] أن محكمة التفتيش قد عاقبت موريسكيين لأنهم صاموا ثلاثة أيام (وهو الأمر الذى تنص عليه الوصية)، وجاء فى أقوال أحد الشهود أن "الحادثة" وقعت بعد طرد موريسكيى فالنسيا وقبل طرد موريسكيى أراغون، أى فى عام ١٦٠٩ بالتحديد.

ب- تحدد المخطوطة رقم ٥٣٩٠ بمكتبة إسبانيا الوطنية – وهى محررة عام ١٦٠٣- بكل دقة تاريخ وصول رسالة الشيخ أحمد لأول مرة. يقول مؤلف المخطوطة رقم ٥٣٩٠ – وكان فقيهًا على الأرجح – إنه تلقى رسالتين إحداهما منذ عشرين عامًا (أى عام ١٥٨٣) والثانية بعد ذلك بأربعة عشر عامًا (أى عام ١٥٩٧) إذا قرأنا وصف الرسالتين كما

عرضهما الفقيه سنجد أن رسالة الشيخ أحمد هى التى وصلت إليه عام ١٥٩٧.

مكان وصول الرسالة:

تذكر المخطوطة ٥٣٩٠ أن نسخة من وصية الشيخ أحمد قد أرسلت إلى موضع يسمى "مليانة"، وقد ورد اسم مليانة فى القضية التى نظرتها محكمة التفتيش ضد السيد سانشو دى كاردونا المتهم بحماية رعاياه المسلمين وتمكينهم من إقامة شعائر الدين الإسلامى(٥).

هنا يجب أن نضيف ملاحظة أخرى تتعلق بتاريخ رسالة الشيخ أحمد. إن محاكمة السيد سانشو دى كاردونا تمت عام ١٥٦٩، وهو تاريخ قريب من تاريخ تحرير الرسالة، وهذا أمر يعضد فكرة أنه فى ذلك التاريخ كان هناك جو من الحرية والتسامح النسبيين فى مليانة.

إذا صدقنا ما جاء فى ملف قضية السيد سانشو دى كاردونا فلنا أن نتخيل أن قرية مليانة التى كان يسكنها موريسكيون وكانت تتمتع بحماية السيد سانشو عاشت فترة من التسامح الدينى. هذا – وهذا وحده كما نظن- يفسر الدعوة إلى صلاة الجماعة التى ترد فى وصية الشيخ أحمد.

مؤلف المخطوطة:

لا يرد فى هاتين المخطوطتين من أسماء الأعلام إلا اسم محمد بن على المؤذن (فى المخطوطة رقم ٥٣٩٠)، ويذكر المؤلف الفقيه أن الشخص المذكور من بين الذين نسخوا رسالة الشيخ أحمد. مؤلف الرسالة إذن شخص مجهول.

كنت على وشك إنهاء الحديث عن هذه الرسالة التى بلغت حظا كبيرًا من الانتشار فى عالمنا الإسلامى، لكننى بعد أن انتهيت من إلقاء محاضرتى حول هذا الموضوع خلال المؤتمر العاشر للدراسات الموريسكية فى تونس، ذكر لى الدكتور

رونالد شورتز الأستاذ بجامعة برنستون بالولايات المتحدة أن هذه الوصية قريبة من وصية أخرى كان يجرى تداولها بين المسيحيين الأوربيين خلال العصور الوسطى، وبعد انتهاء أعمال المؤتمر أرسل إلىَّ الدكتور شورتز بالفعل نص الوصية المسيحية. كان من الطبيعى أن أدرس الوصية المسيحية بعناية شديدة، وأن أقوم بعقد مقارنة بين الوصيتين، وقد وجدت ما يلى:

- يدَّعى من أرسل الوصية أنها مرسلة من الله، وأنها وجدت فى قرية قريبة من مدينة أبيلا بإسبانيا.
- لغة المخطوطة المسيحية تعود إلى فترة تسبق بالتأكيد القرن السادس عشر (تاريخ ظهور رسالة الشيخ أحمد).
- مضمون الوصية المسيحية يقترب إلى حد كبير من مضمون رسالة الشيخ أحمد: لابد من نقل الوصية من بلد إلى بلد، الخير العميم ينتظر من ينقلها إلى آخرين، والعقاب الشديد سيكون من نصيب من يتجاهلها(٦).

إذا وضعنا فى الاعتبار هذه المعلومات فقد نصل إلى استنتاج حدوث تأثير مسيحى فى إسلام الموريسكيين. وتجدر الإشارة إلى أننا تحدثنا فى مناسبة سابقة(٧) عن تأثر مسلمى الأندلس فى عصرهم المتأخر بالمسيحية. على أن الموريسكى الذى تأثر لم يكن مجرد ناقل، فقد اقتبس الوسيلة لكنه وظَّفها لخدمة الهدف الذى يسعى إليه وهو دعوة الناس إلى المحافظة على الدين الإسلامى.

خاتمة:

رسالة الشيخ أحمد التى يتلقاها البعض منا بين الحين والآخر ليست وليدة هذا العصر، وإنما ترجع أصولها إلى القرن السادس عشر، وقد ظهرت لأول مرة فى إحدى قرى مملكة فالنسيا كان يعيش فيها موريسكيون. تأكد لنا ذلك بعد أن عثرنا فى مكتبة إسبانيا الوطنية على مخطوطتين إحداهما تتضمن نصر الرسالة المتداولة، والأخرى تحدد تاريخ وصولها والمكان الذى وصلت إليه لأول مرة.

من المهم أن نشير إلى أن فكرة نسبة وصية ما إلى مصدر إلهى أو نبوى ليست من بنات أفكار الموريسكيين، فقد سبقهم إلى ذلك مسيحيو إسبانيا حين كان الإسلام ينتشر ورأوا أن المسيحية فى طريقها إلى الزوال. أخذ الموريسكيون النهج ذاته عندما كانوا يمرون بظروف مشابهة وكانوا يخشون زوال الإسلام فى إسبانيا، فنسبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وصية مزعومة.

رسالة الشيخ أحمد إذن من عمل الموريسكيين وتندرج فى إطار الكتابات الدينية التى تبعد عن الإسلام الصحيح، وإن كان الموريسكى الذى وضعها قد كتبها بدافع من الرغبة فى إنقاذ ما تبقى من آثار باهتة للإسلام فى إسبانيا الكاثوليكية.

أما كيف انتقلت هذه الرسالة الوصية إلى عالمنا الإسلامى فنظن أن الرسالة – وقد بلغت شأناً عظيما فى حينها – قد حملها أحد الموريسكيين معه إلى منفاه فى شمال إفريقيا حرصًا منه على تنفيذ ما جاء فيها وأرسلها إلى آخرين. وهكذا ظلت منذ ذلك الحين تنتقل "من بلد إلى بلد، ومن دار إلى دار"، تمامًا كما أراد مؤلفها. إنها بالفعل رسالة موريسكية إلى العالم.

الهوامش

١- سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: "التحذير من البدع" الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٢ هـ

٢- انظر جمال عبد الرحمن "الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة من خلال وثائق لم تنشر بعد" كتاب تكريم الدكتور لوى دى كارداياك، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات، ١٩٩٥، ص ١٣٣- ١٤٦

٣- Guillén Robles: Catalogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid, Madrid, 1889.

٤- بدرو لونغاس: "الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين" ترجمة جمال عبد الرحمن، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات، زغوان، تونس، ١٩٣، ص ٤٩

٥- مرثيديس غارثيا أرينال: "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ،٢٠٠١

٦- Clovis Brunel " Versions espagnole, provencale et francaise de la lettre du Christ" en Analecta Bollandiana, 68 (1950) pp. 383-396.

٧- انظر مقدمة ترجمتنا العربية لكتاب بدرو لونغاس المذكور، ص ٧-١٢

ملحق ١

نص رسالة الشيخ أحمد كما وردت فى المخطوطة ٤٩٨٣ بمكتبة إسبانيا الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. هذه وصية النبى صلى الله عليه وسلم. قال العالم وكيل الروضة الشريفة الشيخ أحمد قال: كنت ليلة الجمعة نتلو كتاب الله عز وجل عند الروضة الشريفة إلى العشاء الآخر، ثم صليت العشاء ونمت، فسبحان من لا ينام، فأتانى النبى صلى الله عليه وسلم ووقف عليّ وقال: يا الشيخ أحمد، عندك شئ من أخبار أمتى؟ فقلت لا يا رسول الله، فقال لى: يا الشيخ أحمد مات من أمتى بين الجمعتين سبع مائة، وماتوا كلهم كافرين إلا سبعة منهم ماتوا على الإسلام، نعوذ بالله، واستحيت من ربى عز وجل ولا بقيت ننظر فى وجوههم. وأنا أرسلت إليهم بهذه الوصية ثلاثا وصية. ولا وصية عملوا بها من وصاياى، فخالفوا الروايات واتبعوا أهواءهم وزادوا فى الفسوق والفجور والكذب والزنا واللواط، وبقى الغنى لا ينظر فى الفقير وقلوبهم وزادوا فى قبح أفعالهم وأولادهم، وتركوا الحق واتبعوا أهواءهم، واستقر الزنا، وإذا قرئ القرآن يخوضون فى حديث غيره ولا يسمعون القرآن، وإذا دخلوا المسجد يتكلمون بالغيبة والنميمة ويرقدون فى أوقات الصلاة ويعملون كبائر الإثم والفواحش. ومولانا عز وجل قال: يا حبيبى يا رسول الله، أنا أريد أن تبدل صفة أمتك وردهم على (كذا) أقبح الصفات، فقلت يا ربى، بعزتك وجلالك لا تقهر أمتى حتى أبعث لهم وصية، فإذا لم يقيموا أمر دينهم ولم يؤتوا بشئ فحينئذ افعل ما شئت. ويا الشيخ أحمد وبقوا لا يشكرون الله على إنعامه وإحسانه عليهم ولا يصلون ولا يركعون ولا يصومون رمضان، وبقوا يتبعون أهواءهم ويشتغلوا بالزنا وشرب الخمر. يا الشيخ أحمد، قل لأمتى القيامة قد قربت وباب التوبة تغلق عن قريب، وإذا غلق باب التوبة لا تقبل. هذه آخر الوصية وآخر الشفاعة. قل لأمتى يتوبوا قبل إغلاق باب التوبة ويصوموا ثلاث أيام، واليوم الرابع يعيدوا،

ويتوبوا من جميع ذنوبهم ويستغفرون الله عز وجل ويكثرون بالصلاة عليّ قبل أن تغلق باب التوبة. وهذه الوصية وجدتها بخط أخطر أخصاه (كذا) لي النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الوصية ترسلها من بلد إلى بلد ومن وطن إلى وطن ومن دار إلى دار. والذي تكون عنده ولا يرسلها فنكون أنا برئ منه وهو مخلد في النار. ومن أرسلها من بلد إلى بلد ومن وطن إلى وطن فأنا شفيعه ويدخل الجنة معي بغير حساب. وقل لأمتي يصلون في المساجد ويزكون من أموالهم. وتارك الصلاة إن مرض لا تقف عليه وإن مات لا تصلوا عليه وإن سلم على أحد لا يرد عليه السلام. وأنا بقيت نستحي من ربي عز وجل قبح أعمال أمتي، ولا بقيت أقدر أن أقابل الملائكة من أفعال أمتي. قل لأمتي يحملون أهليهم وأولادهم وعيالهم ويصلون في المساجد. يا الشيخ أحمد كل من دخلت هذه في يده ولا يقرأها على الناس فأنا برئ منه، والذي يقرؤها ولم يؤمن بها كأنه لم يؤمن بي. قال الشيخ أحمد كل من لا يؤمن بهذه يموت على غير دين الإسلام. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. فرحم الله من آمن بها وصدق بهذه الرؤية المباركة النادرة الإسلام. فرحم الله الكاتب والقارئ والمستمع ولمن دعا للكاتب بالرحمة ولوالديه ولجميع المسلمين. كملت بحمد الله تعالى وحسن عونه والسلام. الله الله الله الله الله الله الله اللهم انصرنا على الكافرين.

ملحق ٢

إشارة إلى رسالة الشيخ أحمد فى المخطوطة رقم ٥٣٩٠ بمكتبة إسبانيا الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ورضى الله عن.... والصحابة أجمعين وبعد، طلب منى بعض الإخوان أبان الله لى ولهم..... البيان أن أكتب لهم ما فهمته من رسالتين بعثهما لنا سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه المدة المتأخرة وليس (فى) قدرتى أن أنقل لفظه وعبارته لأنها لم تكن عندى محفوظة وإنما أنقل (ما) فهمته منها فى المعنى ليس باللفظ - لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جوزوا(كذا) العلماء أن ينقل بالمعنى ولكن.....إذا نقله بالمعنى أن ينسبه لرسول الله عليه السلام وإنما ينسبه لقائله كرسالة ابن أبى زيد(*) وغيرها ويحذر الوعيد المذكور عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أو كما قال من كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار وذلك أنه روى أو كما روى من قبل تاريخ هذا الكتاب بنحو العشرين سنة أن خادم روضة رسول الله عليه السلام أنه كان بين النائم واليقظان فإذا هو بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما قال يا فلان وسمَّاه بلغ لأمتى السلام أعطهم (الرسالة) فقال الراوى أو كما قال استيقظت فإذا الكتاب بيدى فإذا فيه مكتوبًا أو كما كان فيه مكتوبًا "بعد السلام على أمتى، عليكم يا أمتى فى إقامة الصلاة فى أوقاتها فى الجماعات وإيتاء الزكاة، وإياكم والغيبة والنميمة والكذب، واسمعوا وصية فقهائكم ولا تقولوا من ورائهم كلمة ولا من أمامهم كلمة، ويحفظوا أنفسهم القضاة من أكل الرشوة، وأنه من أكل الرشوة لا يخرج من الدنيا إلا غير (بغير) الإيمان، وقد توفى فى يوم واحد أربع وعشرون ألف قلت ولا أدرى كم زاد من مائة فوق هذا الكتاب، ولم يمت منهم على الإيمان

(*) يشير إلى رسالة ابن أبى زيد القيروانى. (المترجم)

إلا رجل واحد. واعلموا أن الساعة قد قربت وقد هبط جبريل إلى الأرض رفع تسع خصال وعدَّ من جملتها البركة والحياء والعلم، والست الأخرى ذهلت عن بالى، ولم يبق له يرفع إلا القرآن، فإذا هبط ورفع القرآن انقرضت الدنيا . ومن كتب هذا الكتاب أو نقله من موضع إلى موضع فأنا شفيعه يوم القيامة ويكون معى فى الجنة والسلام" وبعد ما خطر من تاريخ هذا الكتاب نحو الأربعة عشر سنة بعث كتابًا آخر أيضًا وفيه مكتوبًا أو كما كان مكتوبًا " عليكم يا أمتى بالمحافظة على الصلوة (كذا) فى أوقاتها والزهد فى الدنيا، ولا يفضل أحد منكم زوجته على أمه، واعلموا (أن) الساعة قد قربت، وهذه آخر شفاعتى لأمتى، وعليكم بكثرة الصلوة علىَّ، وقل لهم يصوموا ثلاثة أيام واليوم الرابع يرجعوا (كذا)، ومن كتبه أو نقله من موضع إلى موضع أو من بلد إلى بلد فأنا شفيعه يوم القيامة ويكون معى فى الجنة والسلام" انتهى. قلت ونعلمكم أن الفائدة المذكورة فى الكتاب......، والثانى قد حصلتها ولم ننقل منه إلا ما فهمته، وأما الذى لم نفهم فلم نتعرض له. هذا الكتاب وصل إلى بلادنا بشهود ووثائق واتعظوا الناس كلهم حين سمعوا كل واحد منهما (الكتابان) وأما حين سمعوا الكتاب الثانى صاموا جميع الناس ثلاثة أيام، وصاحب الخط هو محمد بن على المؤذن كان واحد من الذين صاموا معهم ومن الذى نسخها فى ذالك (كذا) الأرض ونسخ الكتاب الثانى أيضًا مرة ثانية وبعثه إلى مليانة. والله الذى لا إله إلا هو (إن) الذى قلت لكم هو حق. السلام على كل من يقف على مكتوبنا ورحمة الله وبركاته..... فى أول ذى الحجة عام خمسة عشر وألف من هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم، عرّفنا الله خير منه بتوفيقه وفضله (و) السلام.

ملحق ٣

ترجمة مختصرة لرسالة المسيح

الواردة فى المخطوطة رقم ٦١٤٩ بمكتبة إسبانيا الوطنية

- هذه نسخة من رسالة هبطت من السماء إلى الأرض يجب علينا جميعًا أن نؤمن بها. وقد عثر على الرسالة فى بلدة سانتا ماريا لا نويبا على بعد ستة أميال من أبيلا.
- نهى عن شهادة الزور والبخل وعدم توقير يوم الأحد وعدم الذهاب لسماع الوعظ واصطحاب الأولاد إلى الكنيسة وارتكاب المعاصى وعدم التوبة وعدم تقديم العون للأرامل واليتامى.
- الجحيم عاقبة من لا يفعل ذلك.
- من لا يؤمن بهذه الوصية فهو كافر، وكذلك من لا ينشرها بين الناس.
- من يرسلها من بلد إلى بلد فسيغفر الله له ذنوبه ولو كانت بعدد نجوم السماء.
- هذه آخر وصية، فإذا لم يعمل بها فسيرسل الله حجارة تقتل الناس جميعًا وسيحول نور الشمس إلى ظلام دامس.
- على كل مسيحى أن يصوم ثلاثة أيام اثنين وثلاثة أيام ثلاثاء وثلاثة أيام أربعاء وثلاثة أيام جمعة.

معراج النبى محمد

فى المخطوطات الألخميادية وفى مخطوطة عربية

رينولد كونزى

انتشرت أسطورة معراج النبى محمد إلى السماء فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ووصلت أيضًا إلى إسبانيا الإسلامية ومنها إلى العالم الغربى المسيحى. وقد وضح لنا ميغيل أسين بلاثيوس فى كتابه عن " الأثر الإسلامى فى الكوميديا الإلهية" أن دانتى قد عرف هذا الموضوع، وأن الأثر الإسلامى يُلاحظ فى مواضع متفرقة من كتابه. وهذه النظرية عندما أُعلنت عام ١٩١٩ سببت كثيرًا من الدهشة والامتعاض خاصةً فى إيطاليا. كان من الممكن قبول نظرية أسين بسهولة لو أن منتقديه علموا بوجود ترجمات غربية مسيحية لقصة المعراج. ولدينا ثلاث ترجمات إحداها باللغة الفرنسية القديمة، والثانية باللاتينية والثالثة بالإسبانية القديمة [ترجمات لكلٍ من شيروللى، ومونييث سنديو وبيريث ألونسو(١)] هذه الترجمات تدل بالتأكيد علىٍ أن الأسطورة كانت معروفة فى القرن الثالث عشر فى أوساط الغرب المسيحى.

وقد وصلت قصة معراج محمد إلى آخر مسلمى إسبانيا، أى الموريسكيين. نعلم ذلك من خلال الروايات العديدة للمعراج فى المخطوطات الألخميادية. وتروى لنا المخطوطة ٥٠٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد "القصة التى حكاها النبى محمد ﷺ عن صعوده إلى السماء"(٢)، وتستخدم المخطوطة ١١٦٣ بالمكتبة الوطنية بباريس نفس الكلمات تقريبًا(٣)، وهو ما يحدث أيضًا مع المخطوطة رقم ٩ المودعة فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد وهى مكتبة المجموعة سابقًا. من الآن فصاعدًا سأطلق على المخطوطة رقم J9 والمخطوطة T17 وفى مجموعة غايانغوس والمخطوطة J60 تحدثنا عن "صعود النبى" والمخطوطةJ57 كذلك تحدثنا عن "صعود النبى" وبالإضافة إلى كل ذلك هناك مخطوطات باللغة العربية مصدرها الأندلس

تعالج نفس الموضوع أعتقد أن من بينها المخطوطةMarsh S18 في بودليانا، وهناك أخبار عن مخطوطات أخرى باللغة العربية فى كتاب أسين بلاثيوس بعنوان "الآخرة عند المسلمين".

وقد اعتمد أسين بلاثيوس على الموضوعات العربية التى كان يعرفها فى عصره، وذكر لنا فى كتابه تصنيفاً لأسطورة المعراج. والآن نتساءل:

١ – ما هو موقف الروايات الألخميادية فى تصنيفات أسين بلاثيوس؟

٢ – ما هو موقف الروايات الألخميادية فى الترجمات الغربية؟

٣ – كيف يجب أن نصنف الروايات الألخميادية؟

٤ – ما مشاكل الروايات الألخميادية؟

٥ – هل يمكن للنصوص المكتوبة باللغة العربية أن تساعدنا علــى حــل مشــاكل الروايات الألخميادية؟

من الطبيعى ألا أستطيع الإجابة على كل هذه الأسئلة فى الحيز الصغير المتاح لى؛ بل ولا أستطيع أن أطرح كل المشاكل؛ لهذا سأركز الحديث عن علاقة الروايات الألخميادية بالمخطوطات العربية وسأقتصر الحديث على مخطوطة عربية واحدة.

الروايات الألخميادية موجودة فى المخطوطة 1163، J60 ، J57 ، T17 ،J9 (مكتبة باريس الوطنية)، 5053 (مكتبة مدريد الوطنية) أما المخطوطة العربية فهى Marsh 518[٤] هذه المخطوطات جميعها تتناول الحدث: يوقظ محمد فى مكة ويدعوه جبريل إلى أن يمتطى البراق ويصحبه. بعد تردد الدابة العجيبة يمتطيها محمد ويتوجهون جميعًا إلى بيت المقدس. يقطعون المسافة فى لحظة قصيرة. فى الطريق ينادى بعض الأشخاص محمدًا لكى يتوقف ويتحدث معهم لكن جبريل يصر على ألا يعيرهم محمد انتباهًا. يصلون إلى بيت المقدس ويشرح جبريل لمحمد

معنى "المنادين أو الصائحين". فى قبة الصخرة يتحدث محمد مع الأنبياء ويؤمهم للصلاة. من هناك يصعد إلى السماء بصحبة جبريل على "المعراج" وهو سلم مصنوع من مواد قيمة. يمر محمد عبر سبع طبقات فى السماء، ويصل فى النهاية إلى العرش. فى كل سماء يلتقى محمد بنبى. فى كل المخطوطات يحكى أن محمدًا يرى من مكان ما فى السماء النار والعذاب الذى يقاسيه الخالدون فيها، وفى كل المخطوطات يوصف أيضًا كيف يمر محمد بالجنة. إن قمة الرحلة تأتى عندما يمثل محمد أمام الله ويحادثه. فى اللحظة التى كان يستعد فيها محمد لانتهاء المحادثة يفرض الله على محمد وأمته بعض الواجبات الدينية. تحدث مفاوضات حول هذا الأمر يحصل بمقتضاها محمد على تخفيف هذه الواجبات. بعد ذلك يهبط محمد من السماء ويصل إلى مكة. هناك يخبر أصحابه بما حدث ولا يصدقه إلا قليلون.

ما ذكرته الآن تتفق بشأنه كل الروايات الألخميادية والمخطوطة العربية Marsh S18 لنتعرض الآن للتصنيفات. تشكل المخطوطات الألخميادية مجموعتين: مجموعة من أربع مخطوطات ومجموعة من اثنتين: المجموعة الأولى تشكلها المخطوطات BNP 1163، J60 ، J57 ،T17 وهى مجموعة متجانسة ولا توجد بها إلا اختلافات طفيفة. والمجموعة الثانية تشمل المخطوطتين BNM 5053 عندما يقترب محمد من بيت المقدس:

ووجدت جبريل واقفًا على قدميه، وفى يديه ثلاثة أقداح : قدح فيه لبن، وقدح فيه خمر وقدح فيه ماء، وقال لى: يا محمد خُذْ القدح الذى تريده واشرب ما فيه. مددت يدى إلى القدح الذى فيه لبن وشربت ما فيه إلا قليلا ورأيت منْ يقول لو أنكَ شربت اللبن كله يا محمد ما دخل أحدٌ من أمتك النار، وقال : يا جبريل، أعد إلى ما بقى من اللبن، وقال...

كل هذه الفقرة غير موجودة فى المخطوطة J9. هناك مثال آخر للاختلاف: النبى الموجود فى السماء الثانية هو إدريس فى المخطوطة J9 أما فى المخطوطة BNM 5053 ففى السماء الثانية يتواجد عيسى ويحيى. فى المخطوطة J9 يعيش

ملك الموت فى السماء الأولى، أما فى المخطوطة BNM 5053 فنجده فى السماء السادسة. من الواضح أن الأمر يتعلق بخطأ الناسخ كما يتبين ذلك من الفقرة التالية. الوضع هكذا: محمد وجبريل يصلان إلى السماء السادسة. يقول النص:

حتى وصلنا إلى السماء السادسة وهى كلها من الزمرد الأخضر وسيرها andadura كالسماوات الأخرى...أن توضع فى طوبى وحولها طيور خضراء، وأن تمشى إلى الجنة.

بكلمة "الأخرى" يقطع الناسخ فجأة الجملة التى تصف وصول النبى وجبريل إلى السماء السادسة. وكلمات "أن يوضع" هى منتصف جملة أخرى تتحدث عن موضوع مختلف تمامًا. بداية الجملة نجدها فى J9. المخطوطة تتحدث عن روح الميت يحملها ملك إلى الله...... " ويأمر الله تعالى أن تُوضع فى طوبى وحولها طيور خضراء، وأن تسير إلى الجنة". إن النصوص الواردة فى المخطوطتين J9،BNM 5053 ليست متماثلة . يبدو أن المخطوطتين منقولتان عن نص واحد. الموضوع العام هو وظيفة ملك الموت. تحدثنا المخطوطة BNM 5053 بعد ذلك عن المَلَك فى صورة ديك، وعن مَلَك آخر نصفه ثلج ونصفه نار، وعن مالك خازن النار. يقول مالك (BNM 5053) " أبشرك يا محمد أن أمتك ستكون أقل أمة فى العذاب" بعد ذلك نقرأ "...... ونادى جبريل على الباب وخرج مَلَك..."، وهى كلمات يبدأ بها دخول السماء السادسة. بعد ذلك يتواصل الفصل بشكل عادى. كل هذا الجزء المكون من ثلاث صفحات عبارة عن إضافة خاطئة من الناسخ. إن ما يميز هاتين المخطوطتين هو أنها لا تضع مَلَك الموت فى السماء الرابعة؛ كما يحدث فى المجموعة المكونة من أربع مخطوطات.

وتتفق المخطوطتان BNM 5053،J9 فى أن موسى مكانه السماء الرابعة بينما تقول المخطوطات الأخرى إن مكانه عند سدرة المنتهى حيث يلتقى به محمد بعد حديثه مع الله. فى المخطوطتين BNM 5053،J9 يسير محمد مع رضوان فى

الجنة. أما فى المخطوطات الأخرى فليس هناك حديث عن رضوان ولا عن سيره فى الجنة.

يمكننا أن نذكر أمثلة أخرى للاختلافات لكننا نتحدث الآن عن المخطوطة Marsh 518 هذه المخطوطة لها خواص تتميز بها المخطوطات الألخميادية فمثلا يظهر فيها "المنادون" فى الطريق إلى بيت المقدس ويذكر فيها النبيان عيسى ويحى، والمخطوطة العربية أكثر قربًا من المجموعة الألخميادية المكونة من مخطوطتين (BNM 5053،J9) فملَك الموت مثلا موجود فى السماء الرابعة.

والنص العربى – من ناحية أخرى – يختلف عن النصوص الألخميادية فى عدة نقاط. إن النص العربى فى بدايته ونهايته يقدم روايات أكثر مما تقدم المخطوطات الألخميادية. محمد يؤدى ركعتين فى طور سيناء ثم ركعتين فى القدس. أما النصوص الألخميادية فلا تتحدث عن ذلك. والنص العربى يتحدث بإسهاب عما حدث فى مكة بعد عودة النبى من رحلته. المخطوطة J9 تحدثنا عن ذلك فى ست صفحات أما المخطوطة العربية فتحدثنا فى اثنتى عشرة صفحة.

الغموض الموجود فى المخطوطات الألخميادية يمكن توضيحه بالرجوع إلى النص العربى. هذا ما تؤكده الأمثلة التى سأعرضها فيما بعد. الموضوع الرئيسى هو فرض الواجبات الدينية على محمد فى الوقت الذى كان يتهيأ فيه للانصراف من أمام الله.

لنبدأ بالمخطوطتين BNM 5053،J9 يقول النص إن محمدًا قد تحدث مع الله عندما كان واقفًا أمام العرش:

"وعليك بصلاة الليل والناس نيام"

وكلمة "الصلاة" هى الموضوع الذى يستمر إذ يقول الله:

"يا محمد، لقد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاةً فى الليل والنهار".

في تلك اللحظة يتذكر محمد أن موسى قد حذره من ثقل الواجبات الدينية لأن أمته لن تتحملها. لهذا يقول محمد لله:

"يا ربى، إن أمتى لن تتحمل ذلك".

وهذا يعنى أنه يقول ذلك بعد تلقى الأمر مباشرةً وهو أمام الله لم يبتعد عنه. والله يخفف فى الحال بينما محمد لا يزال موجودًا معه. وهكذا تُختصر الصلوات الواجبة إلى أربعين.

بعد ذلك مباشرة يحاول محمد التخفيف. ليست لدينا تفاصيل عن سير المفاوضات . المخطوطة تخبرنا بذلك باختصار (BNM 5053):

ولم أتوقف عن سؤال ربى أن يخفف عن أمتى حتى قال لى: لقد فرضت عليك وعلى أمتك خمس صلوات.

النص يخبرنا عن نتيجة إلحاح محمد. خفف الله الصلوات اليومية فجعلها خمسًا . لدينا إذن:

١ – كان التخفيف حسب النص كما يلى: ٥٠ – ٤٠ – ٥.

٢ – كانت المفاوضات مباشرة بين الله ومحمد فى نفس المكان الذى كلم فيه محمد ربه دون أن ينصرف.

فى الجزء الثانى من هذه النصوص تُفرض على محمد واجبات دينية أخرى: الصوم. كان محمد بالقرب من الله، وقد فرض الله صيام ستين يومًا.

"وقد فرض الله علىَّ وعلى أمتى الصيام ستين يومًا".

مرة أخرى يتذكر محمد نصيحة موسى. يقول النص (BNM 5053):

"بعد ذلك عدتُ إلى ربى وسألته أن يخفف عن أمتى".

ويخفف الله عدد أيام الصيام فتصبح خمسين يومًا. بعد ذلك يقول النص:

"وعدتُ إلى أخى موسى".

لماذا يقول إنه عاد إلى أخيه موسى؟ إنه لم يكن معه مطلقًا. لقد تذكر فقط نصيحته. على أية حال فإن النص يخبرنا بأن محمدًا ذكر لموسى عدد أيام الصيام. وكان رد فعل موسى كما يلى:

"لن تستطيع أمتك تحمل ذلك. عُد إلى ربك واسأله التخفيف كما خفف الصلاة"

أى أن موسى يطلب من محمد التوجه من جديد إلى حيث مكان الله، وبالفعل يعود محمد إلى الله عدة مرات، ويقول النص:

"ولم أتوقف عن سؤاله حتى فرض علىَّ وعلى أمتى صيام شهر رمضان".

أى أن الله قد اختصر وقت الصيام إلى ٢٨ يومًا هى شهر رمضان.

لدينا إذن:

- واجب دينى يُخفف عن طريق المفاوضات بالشكل الآتى٦٠ – ٥٠ – ٢٨ هى عدد أيام الصيام.
- على النقيض مما حدث فى الجزء الأول؛ فإن محمدًا يتحرك باستمرار بين الله وموسى، وموضع موسى ليس محددًا فى مكانٍ معين. إنه فجأة موجود، وليس من المؤكد تواجده فى السماء الرابعة كما تذكر المخطوطات.

هناك تناقض إذن بين الجزأين. فى الجزء الأول تتم مفاوضات تخفيف الصلاة فى حضرة الله دون أن ينتقل محمد، أما فى الجزء الثانى فإن اختصار عدد أيام الصيام يتم عبر تنقلات لمحمد بين الله وموسى.

كيف تتعرض مجموعة المخطوطات الأربع لنفس الموضوع؟ سأتناول الآن المخطوطة T 17، إذ إن المخطوطات الثلاث الباقية تقول نفس الشىء.

محمد يتهيأ للنزول كما تذكر المخطوطة: "بعد ذلك فكرت فى النزول من ملكوته". فى نفس اللحظة يقول له الله إنه يريد أن يفرض عليه واجبات دينية: "أريد أن أفرض عليك فروضًا" . يُعلن محمد أنه مستعــد لقبولها: "السمع والطاعة لك يا ربى".

بعد ذلك يفرض الله ٥٠ صلاةً يومية. يهبط فى الحال حيث سدرة المنتهى حيث يوجد جبريل ومعه شاب. يتعرف محمد على الشاب؛ فهو موسى، ولم يكن قد رآه من قبل فى رحلته السماوية. فى الحال يجرى بينهما حوار. محمد يخبر موسى بأن الله قد فرض خمسين صلاةً فى اليوم. يقول له موسى إن أمته لن تستطيع تحمل ذلك: "يا محمد، ستكون أمتك ضعيفة، ولن تستطيع"، وكان رد محمد عجيبًا: "يا صديقى يا موسى، ومنْ يجتاز العجائب التى رأيتها إلا الله؟"

وأرى أن تفسير الجملة السابقة على احتمالين:

١ – الله قادر على كل شيء.

٢ – رأيت كثيرًا من الأشياء العجيبة – ربما كانت أشياء مرعبة أيضًا – لدرجــة أننى لا أريد معاودة الرحلة.

وبينما كان محمد فى هذا الموقف يفكر ويتردد سمع صوتًا من قِبَل الله ينادى: يا محمد، ادعنى فأنا قريب أجيب دعوة الداعى".

ومن وجهة نظرى، فإن هذه الكلمات يحث فيها الله محمدًا على طلب التخفيف. وفى نفس الوقت يقول النص أن فروع سدرة المنتهى قد أضاءت. وأنا أفهم ذلك على أنه علامة على وجود الله فى ذلك المكان. وعمومًا، فإن محمدًا قد حصل على تخفيف عشر صلوات دون أن يطلب. لم نسمع ما يدل على أن محمدًا انتقل من مكانه، ومع ذلك؛ نقرأ بعد ذلك مباشرةً : "وعدت إلى أخى موسى" كما لو كان محمد قد عاد إليه بعد غياب. وموسى يقول له:

"عُدْ إلى ربك واسأله التخفيف".

بعد ذلك يذهب محمد ويعود حتى يحصل على تخفيف عدد صلوات اليوم إلى خمس صلوات. ويدعو موسى محمدًا أن يعود إلى الله مرةً أخرى ليسأله التخفيف لكن محمدًا يجيبه: "يا أخي موسى إني أستحي".

نلاحظ أن تخفيف عدد الصلوات قد سار على النحو التالي: ٥٠ – ٤٠ – ٥. وهناك ملاحظة أخرى أنه خلال المفاوضات لم يتحرك من مكانه؛ بل إن الله هو الذي هبط إلى مكانه، وبدون سبب يحدثنا النص عن ذهاب وإياب. في منتصف النص هناك انقطاع، كما أن هذا النص لا يحدثنا عن مفاوضات بشأن الصيام.

في المخطوطتين المذكورتين يحدث شيئان : محمد بلا حركة يفاوض ربه حول عدد الصلوات اليومية، أما في موضوع الصيام فإنه يذهب ويعود. هذا الاختلاف لا داعي له ويمكن اعتباره كتناقض.

في المجموعة الأخرى التي تتكون من أربع مخطوطات ليس هناك حديث عن الصوم؛ وإنما يقتصر الحديث عن عدد الصلوات اليومية وهنا أيضًا نلاحظ بعض التناقض لأن محمدًا يحصل على تخفيف دون أن يتحرك بينما هو بعد ذلك يروح ويجيء بين الله وموسى لكي يحصل على تخفيف.

إن حل هذه المشكلات نجده في المخطوطة العربية Marsh S 18. يبدأ النص عندما يتهيأ محمد للنزول "ثم هممتُ بالنزول من عند ربي".

يخبره الله بالفروض، ويُعلن محمد استعداده لقبولها. يفرض عليه الله خمسين صلاةً يومية. بعد ذلك يقول النص بوضوح فنزلتُ بذلك... حتى مررتُ بموسى".

في هذا النص ليس هناك حديث عن سدرة المنتهى. يخبر محمد موسى بأمر الصلوات التي فرضها الله عليه وعلى أمته فيقول موسى في الحال: "ارجع إلى

ربك (كذا) أن يخفف عنك وعن أمتك". إن النص واضح منذ البداية. يعود محمد بجسده إلى موسى الذى كان قد تعرف عليه منذ قليل فى السماء السادسة .

سمعنا أن موسى أعاد محمدًا إلى الله. يعود محمد: "فرجعت إلى ربى فحطً عنى عشرًا، وفرض علىَّ وعلى أمتى أربعين؛ ثم رجعت إلى موسى فأخبرته".

فى هذه الرواية نجد أن كل شىء محكم البناء. عندما يصعد محمد إلى السماوات يجد موسى فى السماء السادسة بعد ذلك يواصل محمد صعوده. يصل إلى أمام العرش ويحدث ربه. بعد الحديث، وعندما يتهيأ محمد للانصراف يفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاةً يومية. يعود محمد إلى حيث مكان موسى الذى يسأله عما حدث، ويقول له إن أمته ضعيفة بحيث لا تستطيع تأدية ٥٠ صلاة يومية. لهذا يطلب من محمد أن يعود إلى ربه. يعود محمد إلى الله ثم إلى موسى ثم إلى الله وفى كل مرة يخفف الله عدد الصلوات. فى هذا النص يسير التخفيف على النحو التالى:٥٠ – ٤٠ – ٣٠ – ٥.

هذا التخفيف الذى يأتى بعد مفاوضات يذكِّرنا بمفاوضات أخرى نجدها فى العهد القديم عندما يجادل إبراهيم الله لإنقاذ مدينة سيدون. تُنقذ المدينة إذا وجد الله فيها ٥٠ رجلا صالحًا ثم يخفف العدد كالتالى: ٤٥ – ٤٠ – ٣٠ – ٢٠ – ١٠.

فى النص العربى لا يذكر موضوع الصيام ورواية النص العربى منسجمة ولا يوجد فيها تناقُض. تبقى قضية وجود الصوم فى المخطوطات الألخميادية. من الممكن أن يتعلق الأمر بإضافات لاحقة. أعتقد أننى قد وضحت بذلك كيف أن غموض المخطوطات الألخميادية يمكن علاجه بالرجوع إلى النصوص العربية.

الهوامش

١ انظر:

Ediciones de traducciones cristiano-occidentales:

Cerulli، Enrico: II "Libro della Scala"e la questtione delle fonti arabo spagnole della Divina Commedia. Citta Vaticana 1949 (Studi e testi 150)

Muñoz Sendino، Jose: La Escala de Mahoma.Trad del arabe al castellano، latín y francés
Mahomet.Die franzosische Fassung einer alfonsinischeu ubersetzung. Bern.1968.

٢ Jesús :"El Miagi".Estudio introductorio y edición crítica del ،Pérez Alonso texto castellano del siglo XIII. Tesis Doctoral de la Universidad de Tubingen. Duisburg 1983.

٣ انظر :

Suárez Piñera، Rosario : *Publicación y estudios de los pasajes aljamiados del ms. 1163 de la Biblioteca Nacional de Paris*.Tesis Doctoral.Oviedo 1973.

٤ درست المخطوطات الآتية:

J 9، J 57، T 17 ، BNP 1163، BNM 5053، M 518.

شرح المختصرات :

J = Biblioteca de la Junta
T = de la Colección Gayangos (en la Real Academia de la Historia)
BNP = Biblioteca Nacional de Paris
BNM = Biblioteca Nacional de Madrid

M = Marsh. Manuscrito arabe de la Bodleian Library، Oxford.

الكلمة الآن للموريسكيين :
أدب الأقلية فى عصر النهضة الإسبانى

لوثى لوبيث بارالت

إن وجود أدب متعاطف مع المسلمين إبان القرن السادس عشر ومحاكم التفتيش يُعد لغزًا فى الأدب الإسبانى. كان أمرًا متناقضًا أن يظهر المسلم فى الأدب بأزياء ثمينة وأسلحة براقة فى الوقت الذى يحظر فيه على المسلم فى الحياة الفعلية أن يحافظ على هويته الثقافية. لقد كُتب الكثير حول هذا الموضوع. يقدم منينديث بلايو[١] تفسيرًا ساذجًا له فيقول إن الشعب المنتصر كان "كريماً" مع المهزومين فجاءت صورتهم فى الأدب مثالية. أما جورج سيروت[٢] فيقتصر على التعبير عن دهشته إزاء البون الشاسع بين "التعاطف مع المسلم" فى الأدب وبين ما يحدث فى الحقيقة. ويعدل كلاوديو غيين فى مقال له المصطلح المذكور، ويقول إن الأدب كان يعرض المآسى التاريخية الموجودة[٣].

ويبدو أن الدراسات الحديثة حول الموضوع ترجح النظرية التى ترى أن قسطًا كبيرًا من الأدب المتعاطف مع المسلمين فى عصر النهضة الإسبانى هو أدب كتبه منشقون، وتقول ماريا سوليداد كاراسكو[٤] [*] إن صورة المسلم المثالى فى الأدب هدفها تعظيم الشعب المضطهد، وتشجع روح التسامح والانسجام بين المسيحية الرسمية والموريسكيين. لنتذكر أن كلاً من "الحروب الأهلية فى غرناطة" و"ابن سراج" مهداتان إلى سادة للموريسكيين معروفين بدفاعهم عن قضايا رعاياهم: بارون باربوليس، ودوق الإمارة. ويسير جيمس ت. مونرو[٥] فى نفس الاتجاه – مستندًا إلى دراسات داريو كابانيلاس[٦] – ويقدم تفسيرًا لكتاب "التاريخ الحقيقى للملك رودريغو" الذى ينتقص فيه ميغيل دى لونا من شأن الملك القوطى

---

[*] انظر كتابها المترجم إلى العربية "مسلم غرناطة فى الآداب الأوروبية"، ترجمة شيرين الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥.

وينسب إلى عرب الأندلس ماضيًا عريقاً. ويقول مونرو إن الهدف من ذلك كله هو إثبات أن التعايش بين المسلمين والمسيحيين ممكن فى إطار الفضيلة وتسامح الطرفين. ويذهب جورج شبلى(٧) إلى أبعد مدى حين يقول إن إيجاد ابن الرئيس كشخصية تنتسب إلى بنى سراج يعتبر شكوى ضد إهانة الأسر العربية واليهودية ذات النسب فى إسبانيا؛ هذه الإهانة قد جعلت دورهم هامشيًّا فى الحياة الإسبانية.

هذا الاتجاه الذى يرى فى الأدب المتعاطف مع المسلمين أدب مقاومة تُتوِّجهُ دراسات لفرانثيسكو ماركيث بيانوبيا(*) وبعضها لم يُنشر بعد. وعلى إثر هذه الدراسات لم يعد الأدب الموريسكى أدبًا "بريئًا" .إن التعارض الظاهر بين الجمال اللغوى والواقع نرى له تفسيرًا فى دراسات بيانوبيا: إن تشدد السلطات المسيحية هو الذى أدى إلى وجود ذلك الأدب المتعاطف مع المسلمين الذى ينم عن احتجاج مستمر. ومن الطبيعى أن يحدثنا ذلك الأدب بين السطور – إنها نصوص كُتِبت تحت رقابة محاكم التفتيش – ويجب أن نقرأها بنفس الوعى الذى نقرأ به أدب المنشقين فى العصر الذهبى ابتداء من "القوادة" إلى "قزمان الفراتشى". إن ميغيل دى لونا ليس معتوهًا كما يظن منينديث بيدال؛ بل هو ثائر مسلم يواجه أسطورة القوطى بصورة المسلم ويقدم خيار إسبانيا التى كانت تحكمها الإنسانية فى ظل التسامح الدينى عند المسلمين " إن أعمالاً أدبية أخرى كتبت " للتسلية" مثل رواية "ابن سراج" تعتبر دعوة إلى التسامح الدينى.

لكن هذا الأدب المتعاطف مع المسلمين الذى اشتهر فى أوربا وأمريكا كان له ما يقابله: إنه الأدب الألخميادو الموريسكى الذى كتبه المسلمون فى الخفاء خلال القرن السادس عشر. لقد نشر كتّاب الأدب الألخميادو الدعوة الإسلامية بين أقرانهم من الجماعة المضطهدة، وكتبوا أدبًا بلغة قشتالية تتخللها ألفاظ أراغونية وبأحرف عربية. إن النصوص الألخميادية هى النقيض لذلك المسلم المثالى الذى يظهر فى

(*) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى"، ترجمة: عائشة سويلم، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المترجم)

الأدب، فهى تعكس بوضوح الوضع التاريخى الذى أدى إلى نشأتها. إن الكلمة – فى النهاية – مع هذا الشعب المقاتل. إنه لشيء رائع أن نستمع إلى أولئك المسلمين وهم يعرضون وجهة نظرهم حول إسبانيا خلال العصر الذهبى. إننا نهدف فى مثل هذه الدراسة بالتحديد إلى مقابلة الأدب "شبه الرسمى" بأدب التمرد. إن هذين النوعين يتعارضان أحياناً، ويتكاملان أحيانًا أخرى. يتعارضان لأن مؤلفى الأدب المتعاطف مع المسلمين هم متعاطفون مع الموريسكيين، وقد كتبوا أدبهم تحت رقابة محاكم التفتيش؛ أما الأدب الألخميادو فهو أدب وثائقى كتبه ثوار متعصبون تحدثوا عن وضعهم بحرية كاملة. كان مؤلفو الأدب المتعاطف مع المسلمين من الأدباء المثقفين؛ أما مؤلفو الأدب الألخميادو فهم من عامة الشعب. ومن ناحية أخرى، فإن هذين النوعين الأدبيين هما وجهان لعملة واحدة. إننا نعتقد أن الأدب المتعاطف مع المسلمين لم يكن عديم الفائدة لأنه كان تتويجًا للمقاومة الجماعية التى عبر عنها الأدب الألخميادو.

لنتأمل كيفية تفسير الأدب المتعاطف مع المسلمين والأدب الألخميادو: إن الرقة التى تعرضها النصوص الأولى تعارضها مؤلفات تتحدث عن أوضاع بائسة؛ هذه المؤلفات لا تحدثنا عن فرسان مسلمين يبارزون برشاقة فى غوطة غرناطة؛ بل تحدثنا عن ثوار لهم خطرهم: زعماء التمرد السريين، ويصف لنا فتى أريبالو – وهو من أبرز مؤلفى الأدب الألخميادو – أحد اجتماعات المسلمين فى سرقسطة. إننا نشهد غضب وإحباط أولئك الموريسكيين الذين يناقشون كيفية مواجهة الأوضاع الناتجة عن حظر ممارسة الإسلام رسميًا. إننا لم نكن قد رأينا من قبل مسلمين بائسين فى الأدب المتعاطف مع المسلمين؛ أما فى "التفسير"[*] فهناك منْ ينَادى بأن ينقذ كل إنسان نفسه كما تشير ماريا تيريسا نارباييث[٨]:

---

[*] تشير المؤلفة إلى كتاب "التفسير" الذى وضعه فتى أريبالو. (المترجم)

وبدأ المسلمون المجتمعون فى مناقشة همومنا... وكان هناك منْ يقول إن خسارتنا كبيرة، وإن مجهودنا فائدته قليلة. وقال عالم آخر إن الجهود التى بذلناها سيكون لها أجر عظيم، وقد رفضوا كلامه قائلين إنه إذا فُقد العمود الرئيسى وهو النداء للصلاة فالعمل لا خير فيه... [٩] .

إن موريسكيى الأدب الألخميادو لا يشتركون فى الملاحم المجيدة وليست لهم أسماء رنانة كما يحدث فى الأدب المتعاطف مع المسلمين. إن أسماءهم سرية، وغالبًا لا يحملون سوى مجرد ألقاب [فتى أريبالو، مسلمة أوبيدا، محمد الكاتب] كما لو أن أبطال ذلك الأدب السرى لا يريدون أن يعلموننا بآخر إشارة عن هويتهم المتنازع عليها، وأحيانًا تكون أسماؤهم مزدوجة الدلالة أو مزدوجة الهوية كأصحابها (على سارمينتو، نوثيتا كالديرون، يوسف بنيغاس).

ربما كان من أهم ملامح الأدب المتعاطف مع المسلمين هو زى الشخصيات المسلمة. إن هذا الوصف يسبقه الأدب الشعبى، وقد رأينا ذلك فى رواية "ابن سراج" و"أوثمين ودراجة" وفى الجزء الأول من رواية "الحروب الأهلية فى غرناطة"، وكانت الأزياء الموريسكية هى ذروة التمسك بالهوية، ولما منعها القانون قدمت الاحتجاجات فى الحال. إن عرض الفارس المسلم نونييث مولاى على سبيل المثال يدافع عن ذلك اللباس كزى تقليدى لا يدل فى حد ذاته على ممارسة دين بعينه. ولنتذكر أيضًا أن زعماء ثورة البشرات قاموا بمحاولة للرجوع إلى الزى الإسلامى.

وقد أدرك خينيس بيريث دى إيتا التذمر الذى سببه حظر ذلك الزى المميز للشخصية الموريسكية. إن كل الملابس التى يرتديها المسلمون القريبون من البلاط فى روايته، كل تلك الملابس قد "قصَّها خياط ماهر". إن المؤلف يبدو لنا هنا على دراية بخياطة الملابس:

كان جسده مغطى بشكلٍ جيد. كان يضع رداءً رقيقًا فوق صديرية الأسلحة وفوق الرداء درع رقيق مبطن بقطيفة خضراء، وعليه رداء من نفس القطيفة مشغول بالذهب(١٠).

وفى مقابلة "عرض الأزياء" الذى يقدمه لنا بيريث دى إيتا سنجد أن الموريسكيين فى النصوص الألخميادية قد جُردوا من أزيائهم. ويتوقف فتى أريبالو عند استعمال الزى فى أحد فصول كتابه عن "التفسير". الفصل بعنوان "العقيدة والعادات الحميدة" وقد درست ماريا تريسا ناربايث هذا الفصل(١١). ويؤكد لنا هذا الفصل أن الموريسكيين لم يكن لديهم ملابس تكفى إلا لستر أجسادهم إذ أن فتى أريبالو كان مهتمًا بأن يغطى المسلمون أجسادهم بحياء "ألا يكشف أحد عورته أو جسده فهذا منكر وإثم" وعلى المرأة أن تخرج وقد غطت جسدها [فى الأدب المتعاطف مع المسلمين لا تبدو المرأة المسلمة على هذه الصورة مطلقًا] وألا يكون زيها ملتصقًا بجسدها أو يكشف ما تحته. إن رفقاء المؤلف فى المأساة كانوا على غير دراية بتطور الأزياء لدرجة أنه ينصحهم بعدم جر الملابس على الأرض، وأن تكون ملابس الرجل حتى منتصف الساق. فى مقابلة عرض الأزياء الذى يقدمه إيتا يعترض فتى أريبالو على الألوان الملفتة للنظر لكن الأمر الملفت للنظر حقًا هو أن المؤلف – رغبة منه فى إنقاذ الكرامة الضائعة لبنى وطنه – ينصح ألا يضع الرجل نعلا فى قدم، وأن تكون القدم الأخرى بلا نعل، وألا يكون النعل فى القدم اليمنى من لون وتكون فى القدم اليسرى من لون آخر.

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للمجوهرات؛ فهى فى الأدب المتعاطف مع المسلمين رقيقة ويكثر وصفها، أما فى الأدب الألخميادو فالمجوهرات غير موجودة. إن المجوهرات القليلة التى يأتى وصفها فى المخطوطات الألخميادية قد اكتسبت أهميةً فى الوقت الحالى. يقول لنا فتى أريبالو فى تفسيره إنه تلقى خاتمًا وحلية صغيرة من يوسف بنيغاس وابنته بعد أن زارهما فى غرناطة .من الواضح أن يوسف بنيغاس قدم الهدية لكى يساعد المؤلف فى مهمته كمسلم خفى متجول

يخطط للذهاب إلى مكة. ومع ذلك فإن الولع بالمجوهرات كان كبيرًا بين الموريسكيين لدرجة أن مجموعة منهم وصلت إلى تونس عام ١٦٠٩، وكان لباسهم يثير حسد أهل البلاد. إن المؤلف المجهول الذى كتب المخطوطة S.2 المودعة فى أرشيف مكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد يقدم لنا شهادة واضحة عن المجوهرات تتضاءل بجانبها تلك المجوهرات التى يرد ذكرها فى الأدب المتعاطف مع المسلمين: "كل امرأة تتزين بما تزيد قيمته عما يوجد فى المحلات الكبيرة. إن أقل امرأة تتزين بأكثر مما تتزين به ملكات هذه الأرض قبل قدومنا". هذا العرض للثروة قد دفع القادمون الجدد ثمنًا باهظًا له كما يؤكد المؤلف.

وكان الذوق فى المعاملة مثاليًا فى الأدب الموريسكى الإسبانى، وفى رواية "عثمان ودراجة" يشك رودريغو أن البستانى عثمان كان من طبقة النبلاء لأن ذوقه فى المعاملة وطريقة حديثه يدلان على ذلك، وفى رواية "ابن سراج" يحكى ابن سراج هذا للقائد المسيحى عن مأساته إذ أسر فى الوقت الذى كان متوجهًا للقاء محبوبته، ويفرج عنه القائد المسيحى لمدة ثلاثة أيام لكى يتمكن من الوفاء بالعهد ويعود ابن سراج فى المدة المحددة ومعه شريفة.

وهناك أثر لذلك فى النصوص الألخميادية ويهتم فتى أريبالو بأن يحافظ الموريسكيون على حد أدنى من الذوق واللطف. إن ذلك المسلم المتخفى يهتم حتى بالعطس "منْ يعطس عليه أن يقول: الحمد لله، ومنْ سمعه فليقل: يرحمك الله"، ويذكر أيضًا أن المصافحة صدقة، وأن المسلم عندما يستيقظ يجب أن يلقى التحية على رفاقه فيسلم أولا على أبويه ثم على الكبار ثم على إخوته. وإذا التقى شخصان فى الشارع يجب أن يلقى الموريسكى التحية على العالِم أو على كبير السن، وأن يُسلم الماشى على الراكب(*).

(*) هكذا وردت فى النص الإسبانى، والأصل : أن يسلم الراكب على الماشى. (المترجم)

ويهتم كتاب "التفسير" بالضيافة. "منْ يذهب إلى بيتك فأكرمه. يجب أن تبسط وجهك لمنْ يزورك فى بيتك" وتقول يتريسا ناربابيث إن بذور الشك بدأت تغير الحياة الاجتماعية للموريسكيين. وينادى فتى أريبالو بأن يطرق المسلم الباب ثلاثًا لطلب إذن صاحب البيت قبل الدخول، وبعد الدخول لا يجب أن يتباعد الضيوف عن بعضهم حتى لا يثيروا الشكوك.

ربما كان الأمر الغريب حقًّا هو أن المؤلف ينصح القراء "بعدم النظر إلى ألعاب الرماح، ولا الجرى وراء الثيران والجياد". إن ألعاب الفروسية التى كانت مثار إعجاب مؤلفى "الحروب الأهلية فى غرناطة" و"ابن سراج" و"أوثمين" يحل محلها هنا تقشف فتى أريبالو.

وموضوع اللغة موجود هنا. من الطبيعى أن يكتب مؤلفو الأدب المتعاطف مع المسلمين رواياتهم بالإسبانية لتعضيد فكرة الاستيعاب الثقافى بشكل سلمى. إن أوثمين يتحدث الإسبانية "كما لو أنه وُلِدَ فى قشتالة"[١٢] ولا يتحدث العربية إلا سرًا مع دراجة فى الحديقة. ولا تكاد توجد كلمة مدح واحدة للغة العربية فى هذا الأدب شبه الرسمى. إن ميغيل دى لونا يمجد لغة القرآن ويترجم فى هامش الصفحات الكلمات العربية الموجودة فى النص "الأصلى" لطريف ابن طريف. وكان ذلك – كما يشير ماركيث بيانويبا – مدحًا قاصرًا على الألفاظ اليونانية واللاتينية، ومع ذلك فإن لونا يتحدث إلينا من بين السطور، وعلينا أن ننتظر الأدب الألخميادو لكى نستمع إلى الشكوى باللغة العربية، ولكى نشهد تفجر الكراهية:

ليس هناك مسلم واحد يعرف اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم أو يفهم حقائق الدين ... إلا إذا شُرحت له بلغة غريبة كلغة هؤلاء الكلاب المسيحيين الذين يضطهدوننا أضلهم الله[١٣].

إن صورة مسلم غرناطة الذى يتنهد بحزن على مملكته الضائعة هى الصورة المشهورة فى ذلك الأدب المتعاطف مع المسلمين. لكن ذلك الحلم ينتهى

تمامًا فى الأدب الألخميادو الذى يقدم لنا صورة مأساوية للذل والحزن الشديد اللذين شعر بهما المسلمون عند تسليم غرناطة.

لنتذكر أن رواية "أوثمين ودراجة" تقدم لنا صورة رائعة للاحترام المتبادل بين النبلاء المسيحيين والنبلاء المسلمين فى أواخر سنوات غرناطة الإسلامية. إن إيسابيل الكاثوليكية تقدم الحماية لأسيرتها دراجة وتحتفل بزواجها. وشريفة الجميلة أيضًا تعيش فى سجن مريح للغاية فى منزل رودريغو دى ناربابيث. أما كتاب "التفسير" فهو يقلب كل تلك الأوضاع ويقدم لنا رؤية مختلفة عن المعاملة التى تعرَّض لها نبلاء غرناطة على يد المسيحيين. إن يوسى بنيغاس وعلى سارمينتو ومسلمة أوبيدا يكررون الشكوى فى كتاب فتى أريبالو. لقد بيعت نبيلات غرناطة كإماء عند سقوط المدينة. ويوسي يحيط المؤلف علمًا فيقول له: "لا تشك فى كلامى... لقد رأيت بعينى كل النبيلات وهن يُعرَضن للبيع... وقد كانت غرناطة زهرة النبلاء"(١٤).

فى الجزء الأول من رواية "الحروب الأهلية فى غرناطة " هناك مكان مناسب يمدح فيه موسى فيرناندو الكاثوليكى لحظة الاستيلاء على غرناطة " انظر إلى الرأفة والرحمة اللتين عامل بهما الملك فيرناندو كل أبناء المملكة حيث تركهم يعيشون بحرية فى بيوتهم ويلبسون أزياءهم ويتحدثون لغتهم ويطبقون شريعة محمد". من الواضح أن المؤلف قد كتب هذه الكلمات حين كان فيرناندو قد خان تعهداته الواردة فى اتفاقية التسليم؛ وعليه فإننا يجب أن نقرأ النص كخيال فى الماضى أو كإدانة للخيانة. أما النصوص الألخميادية فهى تصيب هدفها بشكل مباشر. إن يوسى بنيغاس يتحدث إلى فيرناندو بكلمات تتنبأ بالمستقبل" إذا كان الملك لا يفى بتعهداته فماذا نتوقع ممن يأتى بعده"(١٥).

إن مسلم غرناطة فى الأدب الرسمى لا يأمل فى عودة الإسلام إلى وطنه الضائع، أما فى الأدب الألخميادو فهناك شخصيات كثيرة مثل على سارمينتو تشارك القارئ آماله "لا قدَّر الله أن ينتهى الغرناطيون على يد أعدائهم؛ بل أن يعيد

بناء مساجدهم لكى ينتشر دين الحق وهو الإسلام"[١٦]. ومن ناحية أخرى فإن زفرات مسلمة أوبيدا على ضياع نسخ القرآن والكتب الإسلامية نجدها فى كتاب "التفسير": "لقد رأيت الكتاب الكريم فى يد شخص يمزقه، كان ذلك وأنا طفل، وأتذكر ذلك وأنا كبير بحزن".

ومن ناحية أخرى؛ فإن التنصير لا يتحدث عنه الأدب المتعاطف مع المسلمين. إن تنصير عثمان ودراجة يتم برقة غير متوقعة. لا شك فى أن ذلك يعزى إلى الرقابة الخاضعة لمحاكم التفتيش. أما المسلمون فى النصوص الألخميادية فهم متمسكون بدينهم، وهذا ما يؤكده لنا لاجئ تونس المجهول. إننا إزاء نص له أهمية قصوى فى إطار العصر الذهبى للأدب الإسبانى. أخيرًا يقوم ضحية من ضحايا محاكم التفتيش بإبداء رأيه حول هذه المؤسسة التى لا وجود لها فى الأدب المتعاطف مع المسلمين. إن موقف لاجئ تونس يناقض تمامًا موقف عثمان:

الحمد لله الذى أخرجنا من بين أولئك الملحدين؛ فقد كان من الضرورى أن نتظاهر بما يريدون لأن من لا يفعل ذلك يقدمونه إلى محاكم التفتيش التى كنا نفقد فيها حياتنا بسبب التمسك بالحقيقة... لقد كنا فى سجن مظلم أسود مثل طويتهم حيث كانوا يتركوننا لعدة سنوات نفقد فيها أموالنا وبالإضافة إلى ذلك كان هناك منْ يرى قتلنا جميعًا. وكان هناك منْ يرى إشعال النار فى جزء من جسدنا حتى لا نستطيع الإنجاب.

ومع ذلك فإن الأدب الألخميادو فى بعض الأحيان لا يتعارض بشكل واضح مع الأدب المتعاطف مع المسلمين. لقد رأينا أن أحد الأهداف "السرية" لهذا الأدب كان تدعيم التسامح ودمج الموريسكى فى المجتمع. ونرى أن أحد ملامح الأدب الألخميادو هى الإشارة إلى هذه الفكرة. إن باراى دى رمينو يحدثنا فى "المختصر" عن صداقته لراهب يدعى استيبان مارتيل تعاطف مع موريسكيى أراغون عندما صدر بشأنهم قرار التعميد الإجبارى. لقد جلس باراى والراهب إلى مائدة واحدة

وبكيا معاً، ويؤكد المؤلف أن صديقه لم يتوقف أبدًا عن الدفاع عن الموريسكيين أمام السلطات المسيحية. ويقول فتى أريبالو إن التعايش مع غير المسلم شعيرة لا يجب أن تُلغى إلا فى حالات الضرورة القصوى "يجب ألا تلحق الأذى بمتاع المسيحيين...".

ولم يكن فتى أريبالو بمنأى عن الشعور بالمساواة الاجتماعية الذى كان يشغل تفكير مؤلفى الأدب المتعاطف مع المسلمين. يقول لنا فى كتاب "التفسير" إن اليهود كانوا يتزوجون من عبيد حصلوا على حريتهم... وإن المسلمين يتزوجون من العبيد أيضًا نظرًا لوجود مبدأ المساواة لديهم "إذا كان المسلمون قد فعلوا ذلك فقد فعلوه بطريق العدل لأن المسلمين لا يتفاضلون بينهم أمام القانون وفى الضرائب كلهم متساوون"[١٧]. وفتى أريبالو يحلم أيضًا كما يحلم مؤلفو الأدب المتعاطف مع المسلمين: يحلم بأن يكون البشر متساوين أمام الله.

بهذا ننهى مقابلة نصوص الأدب المتعاطف مع المسلمين ونصوص الأدب الألخميادو، وتبين لنا أن مثالية النصوص الرسمية تعارضها النصوص التى كتبها المسلمون، وكان لهذا التعارض أسبابه؛ فقد كان الأدب المتعاطف مع المسلمين يعبر عن أمانى، بينما عبر الموريسكيون عن مأساتهم بحرية. لهذا فإننى أرى أن هذه النصوص جميعها تتكامل فيما بينها: إن كلاً منها يهاجم اضطهاد المسلمين، وهذا يتضح من خلال الدعوة إلى التعايش والمساواة الاجتماعية.

الهوامش

١- انظر كتابه *Origen de la novela*, CSIC, Santander, 1943.

٢- انظر مقاله " La maurophilie literaire en Espagne au XVI, siecle", Bulletin Hispanique XL (1938),XLI (1939),XLII (1940),XLIII (1941),XLIV (1942),XLVI (1944).

٣- انظر مقاله "Literature as Historical Cotradiction: El Abencerraje, the Moorish Novel and the Ecloque "en Literature as System, Princeton University Press, 1971, p.178.

٤- انظر كتابها *El moro de Granada en la literatura (del siglo XV)*, Revista de Occidente, Madrid,1956 وكتابها *The Moorish Novel: el Abencerraje and Pérez de Hita*, Twayne Publishers, Boson, 1976

٥- انظر كتابه Islam and the Arabs in Spanish Scholarship, E.J.Bnll, Leiden,1970.

٦- انظر كتابه *El morisco granadino Alonso del Castillo*, Patronato de la Alhambra, Granada,1965

٧- انظر مقاله "La obra literaria como monumento histórico: el caso de El Abencerraje", Vournal of Hispanic Philology II (978).

٨- انظر رسالة الماجستير التى قدمتها فى جامعة بويرتو ريكو فى أبريل ١٩٨٣ بعنوان:
En defensa del Mancebo de Arévalo.

٩- انظر كتاب خوليان ريبيرا واسين بلاثيوس:
Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta, Centro de Estudios Históricos, Madrid, 1912.

١٠- انظر كتاب *Guerras civiles de Granada*, Madrid, 1913

١١- انظر رسالة الماجستير المشار إليها، وكذا مقالها:
"Preceptos para la vida cotidiana: ética , moral y buenas costumbres en un capítulo de la Tafcira del Mancebo de Arévalo",
فى كتاب تكريم غالميس دى فوينتيس، مدريد.

١٢- انظر رواية *Guzmán de Alfarache*, de Mateo, Cátedra, Madrid,1979

١٣- انظر Jorge Tickner. *Historia de la literatura española*, Madrid, 1881 – 1885

١٤- انظر مقال لوبيث بارالت وماريا تريسا ناربايث :
"Estudio sobre la espiritualidad popular en la literatura aljamiado morisca", Revista de Dialectología y Tradiciones Populares XXXVI (1981).

١٥- انظر مقال L.P.Harvey "Yuse Benegas. Un moro noble en Granada bajo los Reyes Católicos", Al Andalus XXI (1956).

١٦- انظر مقال L.P.Harvey "Un manuscrito aljamiado en la Biblioteca de la Universidad de Cambridge", Al Andalus XXIII (1958).

١٧- هذه الفقرة والفقرة السابقة مستخرجتان من دراسات ماريا تريسا ناربايث المشار إليها.

القسم الثالث

دراسات موريسكية

(الجانب التأريخى)

حرب غرناطة كما رآها القشتاليون
من خلال مخطوطة لم تنشر بعد

ميغيل أنخيل بونيس إيبارا

كانت حرب غرناطة أحد الأحداث التى شغلت اهتمام الإسبان فى القرن السادس عشر، ورغم أن أهل قشتالة خلال عهدى كارلوس الخامس وفيليبى الثانى كانوا قد تعودوا سماع أخبار المعارك والجيوش الإسبانية فى أوروبا فإنهم لم يفكروا فى احتمال نشوب حرب داخل حدودهم. لقد قطعت ثورة موريسكيى البشرات الهدوء الداخلى وأمن المواطن الإسبانى خلال القرن السادس عشر.

وتدل الدراسات التى كتبت عن هذه الثورة – ونذكر منها دراسات دييغو أورتادو دى مندوثا، ولويس مارمول كارباخال، وخينيس بيريث دى إيتا تدل على قلق رجال القرن السادس عشر [١]. إن العثور على مخطوطة بعنوان " الأحداث المهمة التى وقعت فى أراضٍ مسيحية وخاصة إسبانيا"[٢]، لماتياس إسكوديرو كوبينيا فى مكتبة طليطلة العامة يُتيح لى أن أحدد التفكير والشعــور اللذين أحدثتهما تلك الحرب التى اندلعت فى مملكة غرناطة.

وُلِدَ ماتياس إسكوديرو فى فبراير عام ١٥٢٧ فى قرية الموناثيد دى ثوريتا الصغيرة (إقليم غوادا لا خارا). كان الابن الأكبر لأسرة تتمتع بمكانة اقتصادية بارزة ورثها هو بعد سنوات. ونظرًا لوضعه الاقتصادى والثقافى فقد تولى فى حياته مناصب عامة واستشارية[٣] فى بلده الأصلى، ورغم أنه لم يدرس فى الجامعة فإنه أمضى قدرًا كبيرًا من وقت فراغه فى الكتابة عن أهم الأحداث التى جرت فى عصره. إنه يبدأ كتابه بتقديم فكرة عن أن " الإمبراطور كونستانتينو باليولوغو قد فقد مدينته بالشرق عام ١٤٥٣، ويُنهى الكتاب عام ١٥٩٣ قبل سنتين من وفاته. ولقد حدد أنطونيو إيريرو كاسادو شخصية ماتياس إسكوديرو " كرحالة مثقف وعاشق لبلده الأصلى. ترك لنا كتابًا جميلا لم يُنشر، عنوانه "الأحداث

المهمة"، يظهر فيه بمظهر رجل عهد النهضة. لا يهمه إبداء السخرية من بعض رجال السلطة والطبقة الأرستقراطية فى ذلك العصر. إنه رجل تأثر بلا شك بإيراسمو وآخرين من نوعه، لا يؤمن إلا بما يراه"[٤]. نجد أنفسنا إذن أمام واحد من المؤرخين العديدين للأحداث التى جرت فى ذلك العصر وهم كثيرون فى الأدب الإسبانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ترك لنا عملاً ذا هدفين: أن يذكرنا بأن "الأحداث تجرى فى الدنيا وتتتابع، وأن ذاكرتنا ضعيفة فننساها"، وأن هدفه كان " استغلال وقت فراغه فى كتابة الأحداث المهمة إرضاء لنفسه لمحاولة شغل وقت الفراغ"[٥].

يتضمن الكتاب ٩٢٤ فصلاً كُتبت بالخط الذى كان سائدًا فى نهاية القرن السادس عشر وتهدف فصول الكتاب إلى إخبارنا بما حدث خلال تلك الفترة الواقعة بين عامى ١٤٥٣ – ١٥٩٣، ويدور القدر الأكبر من هذه الفصول حول أنباء محلية وأخبار الحروب الإسبانية فى أوروبا. وتتضمن حرب غرناطة ٤٢ فصلا[٦]، وفى الفصل رقم ٨٠٣ يتحدث عن محاولة موريسكيى إشبيلية التمرد عام ١٥٨٠. إن فصول حرب غرناطة ومقدمات التمرد يحكيها بشىء من الإيجاز والوضوح والتكرار. ويشغل كل فصل من صفحة إلى ثلاث صفحات. يحاول المؤلف ربط الفصول ببعضها فيوجز ما حكاه فى الفصل السابق مما يترك انطباعًا بالركود. لا يحكى إلا بعض فصول الحرب ولا يذكر إلا بعض أسماء القادة والمعارك التى دارت فى البشرات.

ويبدو أن الكتاب كُتِبَ يومًا بيوم إذ نلاحظ تغييرات فى رأى المؤلف حول الشخصيات وحول الأحداث التى يرويها. والمصادر التى استعملها لكى يضع كتابه – إذ أنه لم يتواجد فى غرناطة مُطلقًا – تنقسم إلى صنفين: أ – أخبار رواها له رجال أو جمعها من أحاديث المجالس. ب – بيانات جمعها من قراءة يوميات مؤلفين آخرين أو جمعها من " عرض الأحداث".

ونتيجة لوضعه السياسى، ولمركزه الاجتماعى فقد قام برحلات عديدة إلى مدريد. وكانت هناك فى العاصمة أماكن يتجمع فيها منْ لا عمل لهم ويعلقون فيها على حياة القصر وعلى الأخبار التى تأتى من مختلف أنحاء الإمبراطورية. وعبر هذه الأماكن كان يتوافد الجنود والنبلاء والرحالة، وكانت تُقرأ الرسائل والأخبار، وكان المجتمعون يحللون تلك الأخبار. وكما يقول المؤلف نفسه فإنه كان يزور تلك الأماكن التى كان الشعب فيها يحلل وينقد ويخترع ويبالغ فى الأخبار التى تصل، وفى الفصل المخصص لرواية أسباب ثورة الموريسكيين يقول: "حسب ما وصل إليه علمى، وكما أكد لى كثيرون أنه حدث هكذا".

فى ذلك الوقت بالذات كانت تجوب قشتالة "روايات الأحداث"(٧)، وكان من الشائع أن تجد فيها أخبارًا عن الموريسكيين(٨). كانت تلك المطبوعات تغذيها روايات الرحالة والخطابات الشخصية والوثائق الرسمية وحكايات الجنود. وبعض الفصول الخاصة بحروب غرناطة عبارة عن صور من "روايات الأحداث" فى تلك الفترة.

ونتيجة للمصادر التى يستعملها، ولمكان إقامته فإننا نعلم تصور قشتالة لثورة موريسكيى غرناطة وأثر تلك الثورة. إنها رواية بسيطة موجزة وهى نتيجة منطقية لكتاب وضعه رجل بعيد تمامًا عن موقع الأحداث. إن "رواية الأحداث الهامة" تقدم لنا صورة لفهم الحرب من وجهة نظر مسيحى قديم، وهى صورة تنطبق على مجمل أهل قشتالة فى تلك الفترة.

وأول إشارة إلى المشكلة الموريسكية والتى يبدأ بها ماتياس إسكوديرو سلسلة طويلة متصلة من الفصول الخاصة بحرب غرناطة هى أوامر الملك فيليبى الثانى عام ١٥٦٦. إن الكاتب يعتقد أن الملك قد أصدر تلك الأوامر نظرًا لانقضاء الفترة التى تحددها اتفاقية تسليم غرناطة للوفاء بتلك المطالب(٩). هذا الوضع يتأزم "لأن موريسكيى هذه المملكة رغم أنهم مسيحيون فإنهم يعيشون كمسلمين حقيقيين كما لو كانوا يعيشون فى إفريقيا ولا يحافظون على شعائر واحتفالات الكنيسة

المقدسة"[١٠]. والمؤلف – مثل أورتادو دى مندوثا ومارمول دى كارباخال – يشير إلى وجود الفقهاء رغم أن النص لا يذكر هذه التسمية " بعض الموريسكيين يجوبون البشرات فى جماعات، يسرقون ويقتلون المسيحيين بل ويأسرون الكثيرين ويرسلونهم إلى الجزائر لبيعهم". ويشير كذلك إلى الاتصالات المستمرة بين موريسكيى غرناطة ومسلمى الجزائر، وكانوا يستضيفونهم فى بيوتهم[١١].

ورغم أن كلاً من الملك وماركيز مونديخار ورئيس المحكمة أمروا بنشر الأشخاص المسلحين لحراسة السواحل فإن هذا الإجراء لم يكن مجديًا بسبب الخدمات التى كان السادة يؤدونها إلى الموريسكيين بوصفهم رعاياهم، ولأنهم كانوا يدفعون لهم ضرائب كثيرة[١٢]. ولأن الموريسكيين كانوا مسلمين فإنهم كانوا يواجهون عقوبات كبيرة، ورغم شدة العقوبات فإنهم جميعًا كانوا مصرين وعنيدين"[١٣].

وقد حدث التمرد بسبب الغضب الناتج عن نشر القرار، ولأن رجال الكنيسة والقانون كانوا يتعجلون أن يكون الموريسكيون مسيحيين حقيقة، وأن يعيشوا كمسيحيين. ولما رفض هؤلاء القرار " فإنهم كانوا ثائرين ومصممين على عدم تنفيذ أوامر الملك، وهكذا تشكلت منهم فرق، وسببوا الأذى للمسيحيين"[١٤]وحسب رأى ماتياس إسكوديرو فإن حرب غرناطة هى مواجهة بين مسيحيين ومسلمين، إذ إن تعميد الموريسكيين كان أمرًا شكليًا حيث لم يحدث فيهم أى تغيير.

فيرناندو دى بالور هو الشخص الذى حرك الموريسكيين[١٥]، وبالنسبة لعقلية الشعب فإن وجود متسبب هو أمر يفوق أى شىء " إيرناندو بنيغاس كان موريسكيًا وينحدر من نسل ملوك غرناطة، وقد تفضل عليه الملك فجعله نائبًا عن غرناطة، وهكذا كان يحضر السلاح كأى فارس، وقد صادر الحاجب سلاحه لسبب منطقى،

وطلب إيرناندو[*] سلاحه فلم يستجب لطلبه فاعتبرها إهانة فى حقه، وحاول أن يثأر لذلك من الملك ومن وزرائه"[١٦].

بهذه الفقرة يبدأ ذكر فيرناندو دى بالور فى الرواية، ويرى ماتياس إسكوديرو أن ذلك هو الشخص الرئيسى؛ بل والبطل الوحيد من الجانب الموريسكى إذ تُنسب إليه الأوامر، وهو الذى جمع الموريسكيين على الثورة ضد فيليبى الثانى، وخلال زياراته إلى البشرات جمع الناس حول قضية كان يهتم بها أهل غرناطة. ويبدو أن هذه الفكرة كانت منتشرة بين الناس "وفقًا لمعلوماتى، وكما أكد لى الكثيرون".

وقد اجتمع ابن أمية بأصدقائه وأقاربه فى البيازين "حيث يعيش الموريسكيون فى المدينة بعيدًا عن المسيحيين، وكان فى البيازين ثمانية عشر أو عشرون ألف بيت للموريسكيين من بينهم أغنياء"[١٧]، وكان فيرناندو دى بالور – يحركه الغضب الناتج عن حادثة مصادرة سلاحه – يقنع الناس بضرورة الثورة لإثبات أهميتهم " وحتى لا يكونوا خاضعين للملك فيليبى ولا لوزرائه". وقد أعدَّ خطة للسيطرة على المدينة والمملكة، فقد أغضبهم أن يحرمهم الملك من لغتهم وزيهم. لم يكن الموريسكيون الأثرياء على استعداد لخطة الثورة[١٨]؛ فقد كان من المحتمل أن تفشل وأن يفقدوا لذلك ثرواتهم. إنهم ينضمون فقط إذا انضم كل أهل المملكة إلى فيرناندو، وكان هو يريد الذهاب إلى البشرات للتحدث مع الموريسكيين ومعرفة رغبتهم، وهكذا ذهب بنيغاس إلى البشرات وتحدث مع الموريسكيين وشرح لهم كيف أن الملك فيليبى يريد أن يجعلهم مسيحيين، وأن يحرمهم من اللغة العربية ومن زى المسلمين ومن أسلحتهم. ولما كانت لهم رغبة فى الحرية، ونتيجة لإغراءات إيرناندو لهم فقد اجتمعوا هناك وعقدوا اتفاقهم[١٩].

---

[*] يرد اسم الزعيم الموريسكى بالصيغتين المذكورتين، وقد التزمنا بالنص الإسبانى. (المترجم)

وقام فيرناندو نفسه بإرسال سفارة إلى كل من الجزائر وفاس لطلب المساعدة للقيام بالثورة، وبدأ فى إعداد السلاح وكل ما هو ضرورى للحرب[٢٠]. إن نشاط ابن أمية الفعال ومساعدة مسلمى الجزائر قد أديا إلى انضمام المسيحيين الجُدد إلى الثورة، وقد رأى مسلمو الجزائر أن مواجهة الإسبان وفيليبى الثانى عملية صعبة لكنهم أرسلوا ما طلبه الثوار.

يرى ماتياس إسكوديرو أن اختيار فيرناندو دى بالور كرئيس للموريسكيين كان اختيارًا آليا، فهو الذى بدأ الثورة: "كلهم كانوا يطيعون السيد إيرناندو كسيد وملك، وكلهم كانوا يعتبرونه ملكًا لغرناطة"[٢١].

قاد فيرناندو دى بالور الموريسكيين إلى الحرب بسبب حادثة مصادرة سلاحه ولأن المسيحيين الجدد من البشرات كانوا قد وعدوه بتنصيبه ملكًا على غرناطة، وأول أمر أصدره هو ممارسة شعائر "طائفة" محمد، وقد عين رؤساء وأرسلهم إلى البشرات، وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة فى ليلة عيد ميلاد عام ١٥٦٨ من عمل موريسكيى البشرات الذين ساعدهم أهل البيازين. ولما جاءه الرد من ملكى الجزائر وفاس[٢٢] أصدر أمرًا بأن يقوم ستة أو سبعة آلاف مسلم من خيرة منْ يجيدون الإسبانية بالدخول إلى مدينة غرناطة فى الواحدة أو الثانية فجرًا. كانت الخطة تقضى بأن يتجمع ثلاثة آلاف فى ميدان بيارامبلا، وألفان فى الميدان الجديد، وألفان فى قلعة بيباتاوبين (باب التوابين؟)، وألفان فى حقل الأمير، وخمسمائة فى المحكمة، وخمسمائة فى بيت الرئيس، وخمسمائة فى بيت أسقف غرناطة، وخمسمائة فى مقر محكمة التفتيش، وكان على كل خمسمائة أن يذهبوا إلى دير وإلى الأماكن الرئيسية"[٢٣]. كان عليهم أن يدخلوا ليلا "عندما يكون المسيحيون فى الكنائس، وأن يدخلوا المدينة بحيث يكون كل خمسمائة فى مجموعة، وأن يقتلوا المسيحيين، وأن يسير آخرون فى الشوارع ويصيحون "المسلمون... المسلمون" حتى يخرج المسيحيون فيقتلونهم بسهولة[٢٤]، وأن يذهب آخرون إلى البيازين حتى يفعل السكان هناك نفس الشيء".

بالنسبة للموريسكيين الذين كانوا يريدون احتلال غرناطة كان لابد من قتل ماركيز مونديخار حتى يمكن دخول قصر الحمراء. ورواية ماتياس إسكوديرو عن خطة قتل مونديخار تفيدنا عن أهمية النبلاء فى النص "إن الله المعبود قد جعل الماركيز مشغولا بأعمال بحيث لم يتمكن من الذهاب، وهكذا أنقذ من الغدر والشرور" كان ماركيز مونديخار هو ممثل السلطة فى غرناطة ؛ ولهذا يشير المؤلف إلى شخصيته وإلى مركزه. إن الموريسكيين فى الفصول الأولى من "الرواية" يخشونه، ويرون أنه طالما بقى على قيد الحياة فإن الاستيلاء على القلعة أمر مستحيل".

وقد فشلت خطة الموريسكيين لاحتلال المدينة لأن الموريسكيين كانوا قد قرروا دخول المدينة لإراقة دماء الأبرياء ولارتكاب السرقة والشرور، ولتعطيل أوامر العبادة التى أقرها ربنا، ولما نظر الرب إلى المسيحيين بعين الرحمة ورأى أنهم فى خطر فقد أنقذهم بهذه الطريقة فى يوم العشاء الأخير، بعد الظهر بدأ نزول الجليد بغزارة بحيث لم يكن من الممكن رؤية الطرق، وكانت الرياح شديدة وباردة[٢٥]، واهتم كل موريسكى بصحته وبالبحث عن الوقود لكى يتدفأ ونسوا أمر الذهاب لغزو المدينة.

ظن أهل البيازين أن الخطة قد اكتشفها الماركيز، وفضلوا انتظار فرصة أخرى مواتية. خمسمائة مسلم فقط هم الذين دخلوا وحاولوا إثارة أهل البيازين. بعد مفاوضات، وبعد أن أُعلموا بأن مسلمى الجزائر وفاس سيأتون للمساعدة قال أهل البيازين: "يا إخوتنا أنتم قليلون، وقد أتيتم متأخرين، وماركيز مونديخار قد شعر بنا، وقد طلب منه الملك أن يحتاط منا"[٢٦].

لو أن الله لم يُفسد خطط الموريسكيين لكانوا قد ارتكبوا فى غرناطة المجازر التى ارتكبوها فى كنائس البشرات ضد المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك... وهى آثام لم يفعلها بشر من قبل، وكانت تزداد كلما ازداد قدر الأشخاص، وامتنع عن ذكر تلك الآثام لكثرتها ولقسوتها، ويقولون إنهم كانوا يريدون اقتلاع عيون كل

من أسقف غرناطة ورئيس المحكمة وحرقهما، ويريدون فعل الشيء نفسه مع الرهبان"[٢٧]. من المهم أن نلاحظ الإشارة إلى أن القسوة تزداد بازدياد أهمية الأشخاص إن الموريسكيين الأغنياء أيضًا لهم معاملة مختلفة ؛ فهم أقل ميلا إلى الثورة لأنهم هم الذين يخشون الخسارة "وحتى لا يخسرون أموالهم وحريتهم فقد حاولوا الهدوء"[٢٨].

ولما لم يستطع الموريسكيون الثائرون الاستيلاء على غرناطة ؛ فقد قرروا التجمع فى مكان يُسمى أوخيخار، وهاجموا قائد أدرا وأربعين جنديًا كانوا معه وارتكبوا معهم الفظائع. استولوا على أبراج أوخيخار، وذبحوا كل المسيحيين صغارًا وكبارًا، واقتلعوا عيون القائد والحاجب وحرقوهما أحياء وبينهما خنزير ثم جابوا البشرات يقتلون المسيحيين.

قرر خوان ثاباتا سيد غواخاراس الذى عُرِفَ عنه احترامه لرعاياه زيارتهم حتى لا ينضموا إلى الثوار. وصل إلى القرية ومعه مائة جندى، ورغم أنه تحدث معهم وطلب إليهم عدم الانضمام إلى الثوار فإنهم " كانوا فى داخلهم مصممين على تنفيذ عزمهم على الثورة فلم يستمعوا إلى سيدهم الذى نصحهم بما ينفعهم". لجأ المسيحيون إلى الكنيسة، حيث تم إحراقهم أحياء. وخلال الأيام التالية لعيد الميلاد استمر الموريسكيون فى تعطشهم لإراقة دماء منْ يعيشون بينهم لكى يعلموهم الدين "الكاثوليكى المقدس"[٢٩]. ويقدر ماتياس إسكوديرو- استنادًا إلى قراءته لروايات الأحداث – أن الموريسكيين قتلوا ثلاثة آلاف مسيحى قديم فى أوائل أيام الثورة ووصلوا إلى حد إخراج الموتى من القبور لارتكاب الفظائع، وبلغ أكبر قدر من الفظائع فى الكنائس ضد القساوسة والرهبان.

ولما رأى ماركيز مونديخار حالة الفوضى بسبب دخول أهل البشرات لم يخرج لمطاردة الموريسكيين "لأنه لو كانت هناك خطة للاستيلاء على قصر الحمراء فسيكون فى ذلك إضاعة لمظهره أمام الملك وإهمال لما طلب منه"[٣٠]

أرسل إلى فيليبى الثانى رسالة حكى له فيها الوضع وطلب المساعدة من مدن أندلوثيا لكى يرسلوا له أكبر عدد من أفضل الرجال.

وفى يناير عام ١٥٦٩ شكّل ماركيز بيليث جيشًا قوامه أربعة آلاف فارس بمجرد علمه بأن الموريسكيين "قد خرجوا عن طاعة الله والملك فيليبى سيدهم وملكهم"[٣١]. ولما رأى الموريسكيون الاستعداد للحرب - ولأنهم كانوا يخشونه - قرروا ذبح كل المسيحيين الأسرى. استولى الماركيز على فيليكس وحرر المسيحيين الذين لم يتسع وقت الموريسكيين لقتلهم، وقتل نصف عدد المسلمين الموجودين فى القرية، أى ألف شخص، وقتل الأطفال والنساء لأنهم كانوا يقذفون الحجارة أثناء المعركة. وفى أول فبراير دخل أنداثار Andazar[٣٢] "ولما كان المسلمون يحاربون بشجاعة ضد الماركيز" فإنه حفّز فرسانه وكسر المسلمين وقتل منهم ألفًا وأسر ألفًا وستمائة وحرر ثلاثين مسيحيًا " وعندما حاول المسلمون الدخول فى معركة ضد الماركيز قتلوا ثلاثة وعشرين امرأة مسيحية ذبحتهن نساء المسلمين... وهكذا نرى سوء الطوية عند المسلمين والمسلمات ضد المسيحيين[٣٣].

عندما رأى ماركيز مونديخار أن المسيحيين قد خرجوا لقتل الموريسكيين وسرقتهم "منع ذلك ووضع عقوبات كبيرة ضد منْ يفعله". نظّم جيشه وسار نحو تابليتى حيث حرر مائة وستين أسيرًا مسيحيًا ثم توجه إلى بوكيرا حيث حرر ثلاثمائة طفل وامرأة لم يقتلهم الثوار ومن بينهم زوجة قائد أوخيخار التى وضعت وليدها فى الثلج من سوء معاملة المسلمين للمسيحيين". ثم توجّه إلى فيريرا، وهاجمه المسلمون ليلا فى خوبيليس وقتلوا خمسمائة مسيحى. غضب مونديخار لهذا الحادث فاستولى على خوبيليس وقتل كل منْ فيها من المسلمين وأسر أم الملك وزوجته وأبناءه "، مما سبب حزن الملك الذى فقد أعز منْ لديه". وفى ١٢ فبراير استولى على حصن غواخاراس حيث[٣٥] برزت شجاعة لويس دى ليون وخوان سيبيا رويل وأغستين بنيغاس. وقد ترك المسلمون عند هروبهم النساء والأطفال فقتلهم المسيحيون ذبحًا[٣٦]، ويُشيد ماتياس إسكوديرو بشجاعة المسيحيين فى

المعركة، وتقتصر رواية المعركة على ذكر عدد الموريسكيين الذين حاربوا المسيحيين وعدد القتلى والأسرى. وقد حرر ماركيز مونديخار فى حملته ألفًا وخمسمائة من الأسرى المسيحيين وحملهم إلى غرناطة، وقد ساروا فى المدينة فى موكب دينى يتقدمه راهب سان فرانثيسكو.

ويقدر ماتياس إسكوديرو عدد الموريسكيين الثائرين فى البشرات فى أوائل شهور الحرب بسبعة وثلاثين ألفًا، وكان الأسطول التركى على وشك الإبحار لمساعدتهم [٣٧]، وقد خرج من الجزائر أربعون قاربًا لتزويدهم بالمؤن.

وفى نهاية فبراير ١٥٦٩ بدأت انشقاقات داخل الجيوش المسيحية "ووصل الأمر إلى تخلى ثلث العدد عن الجيش لأن كل ماركيز كان يستقطع من الجنود الغنائم، ومع الجهد الذى يبذلونه فى الحرب ضد المسلمين فإنهم ظلوا فى انتظار أن يدفع لهم الملك رواتبهم" [٣٨].

وكان المسيحيون المقيمون فى غرناطة يهاجرون منها خوفًا من سبعة عشر أو ثمانية عشر ألفًا من الموريسكيين فى البيازين. "ولما كان الحاكم يرى أن الموريسكيين قد ارتكبوا عملا ما فإنه كان يعاقبهم بشدة ومع ذلك لم يأمن جانبهم" [٣٩].

مع وصول مساعدات مسلمى الجزائر والأتراك كان عدد القرى الموريسكية المتمردة يزداد، وكان أهل البيازين - وهم خيرة المسلمين وأغناهم ورؤساؤهم [٤٠] - يريدون التمرد على مسيحيى المدينة عندما علموا - عن طريق العرافين - أن أنهارًا من الدم ستسيل فى البيازين، ولم تُنفذ الخطة [٤١]، لكنهم تجمعوا. ورغم أنهم استولوا على الشارع إلا أنهم حوصروا بعد أن قتلوا خمسة من المسيحيين وجرحوا ثلاثين. هاجمهم الجنود المسيحيون فهتفوا باسم محمد وماتوا" [٤٢].

بعد ذلك يقص علينا أمر تعيين فرانثيسكو دى كوردوبا ونشاطه [٤٣] فى مدينة المريه، وغزو حصن أنوكس بمساعدة أسطول خيل أندرادا. كان الاستيلاء على

الحصن أمرًا صعبًا بعد " أن صمم الموريسكيون على الموت ولم يبد أى واحد منهم دليلاً على الجبن"(٤٤)، وكانت نتيجة المعركة كالتالى: ألفان وخمسمائة أسير، وثلاثة آلاف دوقية من الذهب والفضة، وألفا رأس من الأغنام. وبعد فصل نصيب الملك قسم فرانثيسكو الغنائم بين الجنود، ولما علم ماركيز مونديخار بالحادث الذى وقع مع فيرناندو أمر بتقسيم الغنائم على أفضل صورة...، ولما علم ماركيز بيليث بما فعله السيد فرانثيسكو ورجاله قال إنه لم يسره ذلك كثيرًا. ولما كان جنود ماركيز مونديخار وماركيز بيليث فى الجيش يعلمون بطريقة فرانثيسكو الممتازة مع رجاله فقد تركوا الخدمة فى الجيوش الملكية وانضموا إلى جيش فرانثيسكو"(٤٥).

ويخصص فصلاً لعرض شكوى الجنود والقادة إلى فيليبى الثانى ضد الماركيز " إن سبب خسائر المسيحيين يرجع إلى أن ماركيز مونديخار وماركيز بيليث لم يمكِّنا القادة والجنود من مواصلة الحرب بحماس ونظام ضد العدو كما ينبغى، وقد أمرا بعدم إساءة معاملة مسلمى مملكة غرناطة لأن كثيرًا منهم أصدقاء ورعايا لهما... " (٤٦). ويرى ماتياس إسكوديرو أن عدم انتهاء الحرب يرجع إلى أن المسلمين الثائرين كانوا رعايا للماركيزين، وقد أرسلا إلى فيليبى الثانى رسالة شرحا فيها الوضع لكن الجنود استمروا فى التخلى عن الجيوش الملكية، ولما رأى الموريسكيون وضع المسيحيين أرسلوا إلى السلطان التركى سفارة محملة بالهدايا المسروقة من الكنائس وهجموا على المسيحيين بشراسة وألحقوا بهم أضرارًا كثيرة.

ولما علم فيليبى الثانى بتطورات الحرب عيَّن خوان دى أوستريا قائدًا عامًّا فى أبريل عام ١٥٦٩ "وفرح بذلك الجنود والفرسان لأنهم أيقنوا أنه بفضل الرب وبوجود القادة الأكفاء ستنتهى الحرب قريبًا"(٤٧) وبمجرد أن وصل خوان دى أوستريا إلى غرناطة أرسل جواسيس إلى البشرات لكى يعلم عدد الموريسكيين الثائرين والمؤن التى لديهم ومدى صحة وصول باشا تركى إلى غرناطة وأمر

ماركيز بيليث أن يضغط على المسلمين بجنوده وشكل جيوشاً جديدة وعيَّن كل من أنطونيو دى لونا ودوق سيا قائدين لها"(٤٨).

وقد ساعد الحظ الموريسكيين فى الحرب، وكانوا على ثقة من الاستيلاء على غرناطة وأندلوثيا كلها. وقد احتل أنطونيو دى لونا البانويلاس فى ٢٩ مايو عام ١٥٦٩ وأسر مائة مسلم وجرح ستة آلاف بالقرب من بادول لكنهم لم يلحقوا أضرارًا بجيشه(٤٩).

كان فى البيازين سبعة عشر ألف مسلم " ليس من بينهم مسيحيون، وكان بها كنائس يذهب إليها الموريسكيون فى الأعياد، والذى لا يذهب كان يُعاقب" هؤلاء الموريسكيون كانوا يمدون الثوار بالمعلومات عن تحركات المسيحيين. وقد أصدر خوان دى أوستريا نداءً فى ٢٢ يونيه عام ١٥٦٩ من أجل أن يجتمع الموريسكيون الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤- ٦٠ فى مستشفى غرناطة. "وقد فهم الموريسكيون أنهم يريدون جمعهم ليذبحوهم هناك، وهكذا شاع بينهم البكاء والحزن" فى هذا الجو المتوتر حاول موريسكى اغتيال خوان دى أوستريا " لكى يثأر لموت الموجودين هناك"(٥٠) وقد أخطأ فطعن أحد القادة المسيحيين فى رأسه، ولما رأى خوان دى أوستريا خيانة الموريسكى ضربه برمح كان فى يده. بدأ المسيحيون فى قتل الموريسكيين وهم يصيحون " سانتياغو" حتى هدَّأ أسقف غرناطة الوضع بقوله إنه لا يقر أن يدفع الأبرياء خطأ الموريسكى. تقرر بقاء أولئك الموريسكيين فى غرناطة للقيام على خدمة المسيحيين، وتم ترحيل الباقين إلى أندلوثيا، وقد استقبلوا فى المدن والقرى وفى بعض القرى قتلوا الموريسكيين حتى لا يجاوروهم"(٥١).

رأى المالح ملك البشرات ومعه الثوار ترحيل كثير من أصدقائهم ومعاونيهم بحزن كبير ولمعالجة هذا الوضع الناتج عن حرمانهم من عدد كبير من المؤيدين أرسلوا إلى عم فيرناندو دى بالور ستين ألف عملة لكى يشترى أسلحة ومؤن(٥٢)، ويصف لنا ماتياس إسكوديرو كيف اكتشف الموريسكيون فى البشرات مكاناً يصنعون فيه البارود، ويقول المسلمون إن الله منحهم ذلك لكى ينتصروا فى الحرب

على المسيحيين " وقد استعملوا هذا البارود عندما حاولوا الاستيلاء على قلعة كوريا. فى تلك الموقعة أجبر خمسون جنديًا مسيحيًا ألفًا وخمسمائة مسلم على الفرار" لأن البارود كان سيئًا ولا تبلغ قوته درجة القتل أو الجرح لأن الله أراد ذلك لكى ينصر دينه المقدس"(٥٣).

وفى ٨ يوليه عام ١٥٦٩ تمرد ألفا موريسكى فى غيخار وتوجه مونديخار وجنوده للاستيلاء على المدينة لكنهم عندما وصلوا لم يكن أحد هناك. فى ذلك اليوم تمرد مائتا موقع فى البشرات، وكانت هناك قرى لم تتمرد بعد لأنها فى موقع مسطح وليس بها ما تتحصن فيه، وكانت هناك قرى لم تتمرد خوفًا من قوات خوان دى أوستريا (٥٤) ويُقدر إسكوديرو أنه فى ذلك الوقت كان هناك ثلاثون ألف مسلم متمرد فى البشرات.

ويخصص فصلا كاملا عن موت خوان ثيبيديس دى مولينا أحد قادة جيش أنطونيو دى لونا الملكى. هذه الفقرة يمكن فهمها إذا وضعنا فى الاعتبار وجود الرغبة حينذاك فى قراءة القصص البطولية. كان خوان ثيبيديس رجلا متكبرًا يُعجب به رفقاؤه، ومات ومعه مائتان من المشاة واثنان وسبعون فارسًا فى شراك أعده الموريسكيون. استمرت المعركة ساعتين وأثبت فيها شجاعته وشرفه " ترجل عن فرسه، ونادى على المشاة قائلا: إخوتى، أريد أن أكون جنديًا مثلكم؛ وبما أننا جميعًا أتينا لعبادة الله والدفاع عن دينه المقدس ولخدمة ملكنا فلنمت جميعًا" أعجب المسيحيون بذلك فقتلوا خمسمائة مسلم، وبعد أن فقد ثيبيديس ساقه استمر فى المعركة حتى مات مُحاطًا بجثث الأعداء.

لا يكتفى ماتياس إسكوديرو برواية تفاصيل المعركة ؛ بل يقدم تأملاته عنها: "كانت هناك حاجة إلى المؤن والعتاد الحربى والنقود لدفع رواتب الجنود الذين هم عصب الحرب"(٥٥).

وفى ٣ أغسطس قام ستة آلاف مسلم بالهجوم على فرقة قادمة من تروخيو تحمل العتاد ورواتب الجنود، وفى ٦ أغسطس احتل ماركيز بيليث قرية بالور حيث مقر إقامة الملك المسلم، وقد سُر المسيحيون لذلك، واستمرت المعركة ساعتين وقُتِلَ فيها مائة وخمسون مسيحيًّا وستمائة مسلم، وهرب الملك وجنوده.

ويحدد ماتياس إسكوديرو تاريخ ثورة بيليث فى يوم السادس من أغسطس عام ١٥٦٩. وفى الفصل التالى يحكى قصة الحملة والاستيلاء على حصن فريخيليانا فى مارس من نفس العام[٥٦]. فقد وصل ربكينس ومعه أربعة آلاف جندى بناء على طلب من خوان دى أوستريا وانضم إلى قوات مالقة[٥٧]، وقد مات فى أثناء احتلال الحصن ثلاثمائة جندى، وكانت هناك ثروات عظيمة فى الحصن لم يستطع الجنود أن يحملوها كلها معهم.

ولما استمع الصدر الأعظم إلى الباشا وإلى السفارة الموريسكية وشاهد الرسائل والخرائط التى أرسلها الملك الموريسكى قرر إرسال أحد عشر قاربًا عليها ألفا جندى تركى وأسلحة لكى تصل إلى ميناء غاتا. وقد أنهى السفراء الموريسكيون حديثهم مع الصدر الأعظم بهذه الكلمات: "لا نقول يا سيدى إن وصول أسطولكم إلى إسبانيا سيمكننا من الاستيلاء على مملكة غرناطة؛ بل على أندلوثيا كلها وهى أفضل أرض فى الدنيا" وأحد الأسباب التى جعلت الصدر الأعظم يقرر إرسال الأسطول كان عدد الموريسكيين الكبير فى أندلوثيا وفالنسيا وأراغون.

وقد وصلت أنباء المعونة التركية بسرعة إلى مسامع الإسبان، وقد ألقى القبض على مجموعة تركية جاءت للتأكد من سلامة طريق البحر، واعترف الأتراك بعد تعذيبهم بأنه قد جاءت لمساعدة الموريسكيين فى البشرات سبعة سفن وسفينتان محملتان بالجنود والعتاد، وقد اختبأ المسيحيون خلف جبل فى مضيق ميسينا، وبعد معركة استمرت أربع ساعات مات ١٣٢٥ تركى، وهكذا مُنِعت عن

مسلمي البشرات سُبل النجدة والحماية التى كانوا ينتظرونها من الأتراك والتى لو وصلت لشكلت خطرًا على بلاد إسبانيا، فالحمد لله الذى وقانا[٥٨].

وقد اجتمع النواب الإسبان فى قرطبة وأقروا طلب فيليبى الثانى بإرسال ٤٠ ألف جندى من قشتالة للاشتراك فى حرب غرناطة[٥٩]. بعد ذلك يقص علينا حملات كل من دوق سيسا[٦٠] وخوان دى أوستريا[٦١] بعد إقالة ماركيز بيليث "لما كان الملك وتسيد خوان لديهما كثير من التحفظات على الماركيز طلب منه أن يذهب إلى بيته ليستريح وقد ساءه ذلك"[٦٢].

سأنقل بالنص الفصل الذى تذكر فيه الرسائل التى بعث بها الموريسكيون والمسيحيون إلى الثوار لإنهاء الحرب وإجابة هؤلاء. فى هذا الفصل ترد على ألسنة الشخصيات الكبيرة اتهامات لأشخاص يتولون السلطة فى مملكة غرناطة وبعض ذرائع الموريسكيين التى دفعتهم إلى الثورة ضد المسيحيين.

"...... إيرناندو بنيغاس المعروف باسم مولاى عبد الله ابن أبو ملك[٦٣] البشرات.لما رأى بعض فرسان هذه الممالك كثرة عدد القتلى كل يوم من المسيحيين والمسلمين بالإضافة إلى السرقات التى تحدث، ولما رأوا الأضرار الأخرى التى تحدث من جراء إرسال المقاتلين إلى المدن والقرى بالقوة وبسبب أوامر الملك بإرسال المؤن إلى مملكة غرناطة لأن أهلها مشغولون بالحرب، ولأن المسلمين يحرقون أراضى المسيحيين وهؤلاء يحرقون أراضى المسلمين. لكل هذا قرر الناس أن يكتبوا رسائل إلى الملك إيرناندو بنيغاس، وإلى إيرناندو حبقى قائد جيوشه لإقناعهما بألا يتسببا فى موت كثير من الناس وإلحاق الأضرار، و ذكروا أن الملك فيليبى الثانى لديه القدرة على تدمير الجميع فى وقت قليل؛ ولكنه لم يفعل ذلك، وأنه أرسل أخاه خوان دى أوستريا ودوق ثيسار نظرًا لعناد الموريسكيين، ولأن خوان دى أوستريا ودوق ثيسار كانا لا يتركان المقاتلين الموريسكيين يستقرون فى بلدٍ ما؛ بل يبحثان عنهم فى السهول والجبال، وأنهما لن يكفا عن المطاردة حتى يقتلاهم أو يحولاهم إلى عبيد وأسرى فى بلاد غريبة. وأن على

القائدين المسلمين أن يبحثا عن المصلحة العامة لشعبهما الثائر لا عن مصلحتهما الخاصة. ومن بين منْ كتب الرسائل أنطونيو بنيغاس ابن عم ملك البشرات الذى كان فى خايين، وقد ردَّ الملك والحبقى أيضًا، وهذه إجابة الملك على رسالة ابن عمه: سيدى استلمت رسالتكم علمت منها حرصكم على مصلحة هذه المملكة وعلى طاعة ملككم كمسيحى مخلص، وهذا ما يدفعكم إلى البحث عن سبل وقف هذه الأضرار التى حدثت للمسيحية، ولهذه المملكة ويدفعكم إلى البحث عن كيفية إقرار السلم فى المملكة. وفيما يتعلق بأنى أضع نفسى فى خطر فإننى أعلم أن الملك فيليبى قوى، ويجب عليكم أن تفهموا أيضًا أننا يمكن أن نُحدث به أضرارًا أكثر مما أحدثنا بالفعل، وكل هذه الأضرار التى حدثت والتى قد تحدث ترجع إلى الملك فيليبى الذى لا يريد علاج الوضع. لا أنتم ولا الملك فيليبى بمقدوركم أن تحملونى ذنب هذه الحروب ؛ بل إن سبب تفجر الوضع أن الملك لم يشأ تصديق الرجال الحريصين على طاعته واستمع إلى القساوسة خاصة رئيس غرناطة فهو رجل لا عهد له بهذه المملكة فسار وراء أحد المرتدين ويُدعى أوروتكو. هذا وأمثاله هم المذنبون، ولو أن الملك صدَّق منْ يعرفون هذا البلد مثل ماركيز مونديخار وأنطونيو إنريكيث لما حدث كل هذا الأذى فى المملكة. إنه قد أقال ماركيز مونديخار من السُلطة ومنح السُلطة لرجال فاقدى الحكمة، وهؤلاء أدخلوا تشريعات جديدة لا عهد لأهل هذه المملكة بها ولا يستطيعون الحياة معها، وقد فضل البعض الموت على تحمل الظلم وهذا هو سبب الأضرار التى حدثت وقتل الأبرياء؛ ولهذا فإنه لا أنتم ولا الملك فيليبى تستطيعون أن تحملوا الذنب لأهل غرناطة... وفيما يتعلق بطلبكم أن أرسل رجلين ممنْ أثق فيهم إلى خايين تحت حمايتكم فإننى أعلم أنكم ستنفذون ذلك لكن هناك منْ يخالفونكم فى الرأى. ولقد كتب إيرناندو باراداس وهو من غواديكس إلى إيرناندو حبقى قائد قواتنا لكى يجتمعا واجتمعا للبحث عن حل يطفئ هذه النار، وبعد ذلك اجتمع الحبقى وفرانثيسكو دى كوردوبا وآخرون للبحث عن حل، وقد أحاطنا الحبقى علمًا بذلك إذا أردتم الاجتماع به فأرسل أمان الملك له ولمنْ يذهب معه من جانبنا، ومن جانبنا فإننا نعطى الأمان لكم ولمنْ

يأتون معكم... البشرات فى ٣٠ مارس عام ١٥٧٠ توقيع مولاى عبد الله ابن أبو"(٦٤).

ويخلط ماتياس إسكويدورو بين ابن أبو وابن أمية. الحبقى هو المكلف بتنفيذ بنود استسلام الموريسكيين لخوان دى أوستريا "رغم أن ملك البشرات بعد ذلك لم ينفذ اتفاق السلام الذى وقعه الحبقى لأنه غير صادق" ويعتبر الحبقى رجلاً "كان على المسيحية دائمًا" إن وضعه الدينى هو الذى حفزه على تحقيق السلام، وهذه المواصفات قد اعترف بها خوان دى أوستريا " الذى خلع سلسلة ذهبية كانت فى عنقه ووضعها فى عنق الحبقى، وقد أعطى الفرسان كثيرًا من الهدايا للمسلمين"(٦٥).

أخبر الحبقى ملك البشرات ومستشاريه بمجرى المفاوضات، وعندما علم الملك بذلك حزن إذ رأى أنه يفقد سلطاته بذلك "ولما علم بعض المسلمين بحزن الملك عقدوا مجلس الشورى"، وكانت آراء الموريسكيين منقسمة؛ ولما علموا أن الملك لا يريد السلام أرادوا اعتقاله "وأخبره بعضهم بذلك، واتهم الملك الحبقى فقُتل"، وقد حزن المسلمون على موت القائد لأنه كان شخصًا محبوباً. كان الموريسكيون "بلا مؤن ومرهقين من كثرة الموتى وفقد الأموال فكانوا يريدون السلام" وهكذا انتقلوا ومعهم النساء والأطفال إلى جيش خوان دى أوستريا.

ويُعلن عن موت ملك البشرات أول الفصل بحروف صغيرة وهذا ما يدل على أنها إضافة كتبت فيما بعد، لكن الفصل لا يتحدث عن ذلك. وتخصص السطور الأخيرة من الصفحة للإذن الذى منحه خوان دى أوستريا للجنود المسيحيين لمطاردة الموريسكيين الموجودين فى البشرات، وكان يدفع لهم ثمانى عملات مقابل كل موريسكى يُنقل حيًا إلى غرناطة.

إن أخبار حرب غرناطة التى كانت تصل إلى قشتالة – والتى جمعها ماتياس إسكوديرو – متحيزة وجزئية. إنها تهتم ببداية الثورة وتطورات القتال.

يفتقد النص إلى النقد لطريقة إدارة الحرب وللوضع فى المملكة. إنها رؤية رسمية للمسيحيين القُدامى. والفروق بين فصول المخطوطة تعزى إلى مستوى المصادر المستعملة. وتتميز بعض "روايات الأحداث" بمجرد التعصب الدينى. إن ماتياس إسكوديرو يكتب رواية متصلة مستعملا مصادر متحيزة وناقصة يحاول ربطها. إن بقية سكان قشتالة لم يكن لديهم قدر أكبر من المعلومات عن الحرب الدائرة فى البشرات. وفى رأيى فإن قيمة " رواية الأحداث الهامة" تكمن فى تجاوزها للتفكير الشخصى لمؤلفها وتحولها إلى ملتقى لأفكار ومصادر العقلية القشتالية فى القرن السادس عشر.

الهوامش

١- للتعرف على التاريخ الموريسكى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشـــر انظـــر كتابنا:

Los moriscos en el pensamiento histórico. Historiografía de una minoría marginada; ed.Cátedra, Madrid, 1983.

٢- توجد هذه المخطوطة فى مكتبة طليطلة العامة تحـــت رقـــم ٦٥. وبعـــض فصـــول المخطوطة قد نشرها فيرنانديث إثكيردو عام١٩٨٢.

٣- كانت الموناثيد هى رأس حزب ثوريتا وهى أراضٍ تابعة لجماعة قلعة الـــرب وهـــذا الموضع يقع بالقرب من باسترانا التى اشتراها أمير إيبولى منتصف القـــرن الســـادس عشر، وهذا قد أدى إلى كثير من المنازعات القضائية بين إيبولى وجماعة قلعة الرب.

٤- Herrero Casado: *Glosario alcarreño..Por los caminos de la alcarria* .Guadalajara,انظر كتاب 1974,pp.66-68.

٥- انظر: Fernández Izquiado, p.46

٦- تقع هذه الفصول بين الصفحات 635-665, 678-684.

٧- أهمية هذه المصادر لاشك فيها لكتابة الفصول الخاصـــة بالموريســـكيين. إن عنـــوان المخطوطة نفسه دليل على ذلك وبعض فصول المخطوطة تقـــل صـــرف لروايـــات الأحداث.

٨- انظر كتاب:

Fajardo: Relación verdadera sacada de una carta que vino al ilustre Cabildo y regidor desta ciudad. Marquez de Veler … con los moriscos revelados, Sevilla de lo sucedido al Marqués de Vélez 1569.

وكتاب San German: Relación verdadera de las causas que su Magestad a echo averiguar para echar a los mariscos de Espaňia y los vandos, Zaragoza,1611.

وهناك روايات أخرى للأحداث تتعلق بالموريسكيين خاصة بحرب غرناطة والطرد وأكبر عدد من هذه الروايات نجده فى كتاب: Agullo y Coso: Relaciones de sucesos 1años 1477-1619.Cuadernos Bibliográficos X,Madrid,1966.

٩- ماتياس إسكوديرو - أو المصادر التى استقى منها - لا يفرق بين مضمون اتفاقية تسليم غرناطة والقرارات الملكية اللاحقة، يعتقد أن تنصير الموريسكيين كان أمرًا مُتفقًا عليه بين فيرناندو الكاثوليكى وملك غرناطة. لا يذكر أبدًا أن ثيسنيروس هو الذى أمر بذلك عام ١٥٠٢ ولا تنص الاتفاقية على تاريخ معين لتنفيذ بنودها. إن ذكره لهذه الأخبار يرجع إلى أنه لم يكن قد ولد عند هذه الأحداث ولأن المصادر التى يستقى منها لا تشير إليها.

١٠- يستعمل المؤرخون الذين يقصون أمر طرد الموريسكيين من ذاكرتهم - يستعملون حجة من هذا النوع - كان القشتاليون فى القرن السادس عشر يرون حرب غرناطة كمحاولة من جانب الموريسكيين للعودة إلى دينهم والقضاء على الديانة المسيحية.

١١- كانت الاتفاقيات مع الجزائريين سابقة على قرارات فيليبى الثانى، ويحكى لنا أورتادو دى ميندوثا ومارمول كاربخال أن المسيحيين كانوا على حذر دائمًا من هجوم البربر والقراصنة على سواحل غرناطة.

١٢- القرارات التى تحظر على الموريسكيين استعمال الزى واللغة العربية وحمل السلاح تكررت منذ عام ١٥١٦. أول هذه القرارات أصدرها ثيسنيروس عام ١٥١٦ ثم تكررت عام ١٥٢٦ ثم أمر بها فيليبى الثانى عام ١٥٦٧ (ليس عام ١٥٦٦ كما يؤكد إسكوديرو) وتم تنفيذها.

١٣- يجب أن تُفهم مقاومة الموريسكيين لهذا الأمر كمحاولة للحفاظ على هويتهم. لقد خسر الموريسكيون أموالهم ثم وُضعوا تحت حكم مسيحيين يتعجلون الاستفادة من ممتلكاتهم الجديدة ولم يبق لهم إلا اللغة؛ ومن المنطق أن يدافعوا عنهما.

١٤- يحاول إسكوديرو أن تكون روايته متصلة. لهذا يكرر أفكارًا وفقرات ذكرها آنفًا. إن وجود اللصوص الموريسكيين فى هذا الفصل دليل على "شر الموريسكيين لعدم خضوعهم للأوامر"، ويعد من باب تبسيط الأمور قوله إن سبب ثورة الموريسكيين الوحيد هو صدور تلك الأوامر. هذا نهج معهود عند القشتاليين الذين كانوا يجهلون حقيقة الوضع فى مملكة غرناطة.

١٥- رغم أن فيرناندو بالور كان على علم بخطط الثورة فإنه لم يخطط لها. يقول مارمول كارباخال إنه كان على وشك الرحيل إلى فلانديس إذ كان يمر بضائقة اقتصادية.

١٦- يقدم لنا خينيس بيريث دى إيتا رؤية قصصية مسرحها مبنى بلدية غرناطة. صحيح أنه مُنِعَ من دخول مكان الاجتماع بالسلاح لكن ذلك كان حادثًا عرضيًّا ولم تكن له الأهمية التى يتحدث عنها ماتياس إسكوديرو وآخرون.

١٧- عقد الموريسكيون - حسب روايات مارمول كارباخال وأورتادو دى مندوثا - اجتماعات عديدة للاتفاق على خطط الثورة. ورغم أن بعض تلك الاجتماعات عقد فى

البيازين فإنه لم يكن لها تلك الأهمية التى يتحدث عنها إسكوديرو. عقد الاجتماع الأول فى شوريانا والثانى فى بيت ثيثان (فى ٢٧سبتمبر١٥٦٨) فى البيازين والثالث فى بيت هاردونى فى البيازين (فى ٢٩ سبتمبر١٥٦٨). يحاول إسكوديرو الإيهام بأن الاجتماعات حدثت قبيل يوم محاولة الاستيلاء على غرناطة.

١٨- تبرز فى النص أهمية دور الأثرياء من المسيحيين والموريسكيين فى سير الحرب.

١٩- كان موريسكيو البشرات هم الذين يريدون الثورة. لم يكن أهل البيازين يهتمون بتلك الشكاوى، وكان دورهم فى الحرب سلبيًا، وكان أهل البشرات هم الذين قاموا بالثورة. كان خط سير فيرناندو – حسب رواية مارمول كارباخال – كالتالى : خرج من غرناطة فى ٢٣ ديسمبر فوصل إلى بثار فى اليوم التالى فى بيت أحد أقربائه. فى تلك الليلة اجتمع أهل بالور وأصروا أن يكون هو رئيسهم [النص المذكور يشير إلى ذلك الاجتماع تقريبًا] فى ٢٦ ديسمبر تم تنصيبه ملكاً. يصل ابن فرج بعد فشل محاولة الاستيلاء على غرناطة ويعلم بأمر التنصيب. لا يسره الأمر لكنه يحترمه ... الحقيقة والتسلسل التاريخى للأحداث لا يتفقان مع رواية إسكوديرو.

٢٠- تم إرسال السفارات إلى الجزائر وتركيا فى وقت واحد. كانت مساعدة الجزائريين سريعة، ويفيدنا بيريث دى إيتا أن عددًا قليلا من الأتراك وصلوا فى فبراير ١٥٦٩ وتأكدوا أن الوضع الحقيقى لا يتفق مع التقارير التى أرسلها الموريسكيون.

٢١- راجع الملاحظة رقم١٩. إن تنصيب ابن أمية ملكًا لم يتقبله بعض الموريسكيين استقبالا طيبًا، فلم يكن ابن أمية – كقائد عسكرى – متميزًا. بل كان هناك منْ هو أفضل منه كابن فرج والحبقى وابن عبو. كان ابن أمية مجرد رمز وبعد ذلك بالغ المؤرخون المسيحيون فى تضخيم صورته. لم تكن له مطلقًا تلك البطولة التى يتحدث عنها إسكوديرو.

٢٢- محاولة الاستيلاء على غرناطة قام بها اللصوص وبعض موريسكيى البشرات الذين أرسلهم ابن فرج.

٢٣- يبدو أن الأرقام التى يقدمها إسكوديرو مبالغ فيها. فى أوائل أيام الثورة كان عدد الموريسكيين الثائرين أقل كثيرًا ولم تكن بداية الحرب هى حادث غرناطة ؛ بل الهجوم على ايريرا وجنوده.

٢٤- كان الذين أعدوا للهجوم على المدينة – حسب رواية مارمول كارباخال – هم ابن فرج والثغرى ومونفاريكس وسالاس. لم يؤخذ مسيحيو المدينة على غرة كما يظن إسكوديرو. إن قوله إن الخطة وضعت عندما كان المسيحيون مشغولين بصلواتهم عبارة عن محاولة لإظهار سوء نية الموريسكيين ورغبتهم فى الهجوم على الكاثوليكية.

٢٥- لم يكن الجليد هو الذى منع تنفيذ الخطة، أهل الغوطة لم يذهبوا إلى المدينة لأنهم لم –

يسمعوا الإشارة المتفق عليها وأهل البيازين لم يذهبوا لأنهم ظنوا أن الخطة لم تنجح لقلة العدد.

٢٦- دخل الجزائريون المدينة مع قوات ابن فرج. وكان أهل البيازين يعلمون تمامًا خطط أهل البشرات ووصول الدعم الجزائرى.

٢٧- تهتم " الروايات" بهذا النوع من الأحداث ونظرًا لأنه أدب دعائى فإن أفعال الموريسكيين قد أحدثت جوا معاديًا لهم. ومنذ نهاية حرب غرناطة حتى بعد الطرد بوقت طويل كانت هناك منشورات فى قشتالة وفالنسيا تتحدث عن قتل الموريسكيين للمسيحيين القدامى.

٢٨- كانت مملكة غرناطة فى القرن السادس عشر تعيش فترة من أزهى عصورها. كان النبلاء يعاملون رعاياهم الموريسكيين معاملة طيبة وكان اهتمام الموريسكيين المقيمين فى غرناطة وفى الغوطة نسبيا. يقول مارمول كارباخال " إن أثرياء البيازين كانوا لا يريدون الثورة ولا قدوم البربر ويريدون استمرار الوضع".

٢٩- كان رجال الدين المسيحى المقيمون مع الموريسكيين فى البشرات فى أوضاع مختلفة ففى بعض الأحيان كان تواجد هؤلاء مع الموريسكيين عبارة عن " ترحيل" ولم يكن بعضهم مؤهلا للتعليم الدينى والأخلاقى كما تقتضى الظروف.

٣٠- كتب ديثا أيضًا إلى فيليبى الثانى يطلب المساعدة. إن دور الماركيز ليلة عيد الميلاد لم يكن سلبيًا كما يقول إسكوديرو. كان مسيحيو غرناطة - ومعهم مونديخار - على علم بتحركات الموريسكيين المحتملة، فقد حاول هؤلاء التمرد من قبل.

٣١- عندما قرر ماركيز بيليث أن يشترك فى حرب غرناطة حدثت مواجهة مع مونديخار. كان قائد قوات غرناطة يرى أن تكون الحرب سرية ومحدودة. كان كل من بيليث ومونديخار له مصالح اقتصادية مع الموريسكيين فقد كانت لهما أراضٍ يزرعها الموريسكيون. يقول مارمول كارباخال إنه فى حالة طرد الموريسكيين سيفقد جزءًا من ماله فى هذه المملكة.

٣٢- بدأت حملة ماركيز بيليث فى أوائل يناير عام ١٥٦٩، وقد مرَّ بالأماكن التالية: بيليث بلانكو، روبيو، أولولا دى أوربا، تابرنيس، أوثيخا، فيليكس، كانخايار، لوسا، تركى، بييرخا، أدار، خوكاينينا، أوخيخار، بالوس، كالاورا، خيرغال، باشا، أوسيكار. وعندما جاء دى أوستريا سلمه القيادة، ولا يحكى لنا إسكوديرو إلا أنباء المعارك المهمة، وبعض التواريخ التى يقدمها لا توافق الحقيقة.

٣٣- الجانبان فى الحقيقة اتصفت أفعالهما بالوحشية وارتكب المسيحيون والموريسكيون على السواء أفعال السرقة وقتل المهزومين ويحكى إسكوديرو تفاصيل الحرب من وجهة نظر المسيحيين ولا يشير إلى أفاعيل جنود فيليبى الثانى.

٣٤- في الأيام التالية على محاولة الاستيلاء على غرناطة كان المسيحيون مذعورين. ولما كان بعض المسيحيين يخرج لمعاقبة الموريسكيين وسرقتهم، وكان هؤلاء ينصبون لهم الكمائن، أراد مونديخار أن يوقف تلك المصادمات، وكان يريد أن تكون له القيادة المباشرة في الحرب ولم يكن يستطيع أن يسمح بالفوضى ومحاولة البعض تحقيق أمجاد شخصية ومخالفة أوامره.

٣٥- لم تحدث أية معارك في خوبيليس، عند وصول قوات ماركيز مونديخار خرج مسيحي قديم ومعه موريسكيان لتسليم مفاتيح الحصن الذي كان به موريسكيون ونساء وأطفال. يقول أورتادو دي ميندوثا إن أحد الجنود أراد أن يعرف ما إذا كانت إحدى الموريسكيات تتحلى بالذهب فدافع عنها زوجها فحدثت ضجة، ولم يبق موريسكي واحد على قيد الحياة. ويقول مارمول كارباخال إن الغنيمة التي كانت في الحصن كانت وفيرة (ذهب وفضة وحرير) وإن الحصن كان به ثلاثمائة رجل وألف ومائة امرأة.

٣٦- في الفترة بين ١ يناير - ١٤ فبراير عام ١٥٦٩ التقى ماركيز مونديخار بالموريسكيين في غواخار فوندون، غواخار فاراغيت، وغواخار ألتو.

٣٧- غير موجود في الأصل الإسباني.

٣٨- كان سخط الجنود أمرًا شائعًا في تلك الحرب. كان يمكن إخماد ثورة الموريسكيين في وقت أقل لو أن جيش المسيحيين كان أكثر تنظيماً. كان الجنود المشتركون في الحرب يبحثون عن الثروة السريعة فشاعت السرقة وشاع النهب.

٣٩- لا يشير مارمول كارباخال ولا أورتادو دي ميندوثا إلى هذا الحد. من المؤكد أن مسيحيي غرناطة كانوا يحتاطون من موريسكيي البيازين، وكانوا يرون أعداء في كل جانب.

٤٠- يقول أورتادو دي ميندوثا كان في سجن المحكمة حوالي مائة وخمسون موريسكيا سجيناً كلهم من أفضل الناس وأكثرهم أموالا ومعظمهم لا عهد له بالأسلحة.

٤١- يقول مارمول كارباخال إن ابن أمية وبعض رجاله ذهبوا إلى غرناطة ذات ليلة باتفاق مع أهل البيازين، ولما علم المسيحيون بذلك زادوا من عدد الجنود الذين يحرسون السجن حتى لا يستطيع ابن أمية أن ينقذ أباه وإخوته.

٤٢- كان الموريسكيون قد سُجنوا قبل حدوث الثورة إذ كانت لهم قضايا لم يُفصل فيها. يقول مارمول إن أولئك الموريسكيين (وهم من أثرياء البيازين) قد سجنهم ديثا بين فبراير ومارس، وإنهم خرجوا بعد ذلك. يقول المؤلف إن السوقة هم الذين قتلوا الموريسكيين السجناء قبل وصول تينديا.

٤٣- كل المؤرخين يتحدثون عن فرقة تركية (من ثلاثين جنديا) بين المسلمين المدافعين عن حصن إينوكس.

٤٤- يُبرز كل المؤرخين شجاعة الموريسكيين واستبسالهم إلا أنه كلما اشـتدت مقـاومتهم زادت بطولة المسيحيين.

٤٥- بعد أن استولى فرانثيكو دى كوردوبا على الحصن وضع منصبه تحت تصرف الملك. وقال إنه لما كانت هذه الأراضى تقع تحت نفوذ ماركيز بيليث فلـيس مـن المناسـب لحسن سير الحرب كثرة عدد القادة.

٤٦- عيَّن فيليبى الثانى أخاه خوان دى أوستريا قائدًا للقوات المسيحية فى حـرب غرناطـة عندما رأى النزاع على القيادة وسخط السكان فى المملكة والإحباط الذى سببه التوصل إلى السلام بأى ثمن. وكان النبلاء يخشون رحيل رعاياهم الموريسـكيين فهـم أمنـاء وأيدى عاملة رخيصة.

٤٧- فرح سكان المملكة بتعيين خوان دى أوستريا إذ كانوا يرون أن قدومه سيعجل بنهايـة الحرب، وقد اختلف المؤرخون حول هذه الشخصية.

٤٨- جاء تقدم دوق سيسا بعد أيام من دخول خوان دى أوستريا إلى غرناطة.

٤٩- نتج عن فشل حملة أنطونيو دى لونا الثانية أن زاد عدد القرى الموريسكية الثائرة.

٥٠- بدأ اتخاذ قرار ترحيل الموريسكيين بمجرد وصول خوان دى أوستريا إلى المدينة، وقد نشر القرار فى ٢٣ يونيه بعد أن وافق الملك، ورغم أن مونديخار وخوان دى أوستريا هما اللذان اقترحا هذه الخطوة فإنها لم تُنفذ إلا بعد موافقة الملك.

٥١- عن محاولة اغتيال خوان دى أوستريا يقول أورتادو دى ميندوثا إنه كان حاضرًا، وإن أحدهم جرح منْ بجواره، وكان يعتقد أنه خوان، ويقول مـارمول إن سـبب الحـادث يرجع إلى أمر أصدره قائد برفع راية عليها صورة المسيح، وظن الموريسـكيون أن تلك إشارة لقتلهم فهجم موريسكى على جندى، وقام خوان بتهدئة الجو بين المسـيحيين والموريسكيين.

٥٢- تكرر طلب المساعدة من الجزائر طوال الحرب. ولم يتسبب طرد الموريسـكيين فـى إرسال سفارة جديدة ؛ بل ظل الموريسكيون يرسلون المال والأسرى ويتلقون السلاح.

٥٣- يرى ماتياس إسكوديرو أن حب الله للمسيحيين هو الذى أرشدهم إلى الصـواب. كـل طرف كان يرى أن الله بجانبه هو وكلهم كان موقنًا بالنصر فى النهاية.

٥٤- فى يوليه ١٥٦٩ لم يخرج ماركيز مونديخار لغزو الموقع، وقد ضعفت سلطته بوصول خوان دى أوستريا الذى تسلم القيادة.

٥٥- أورتادو دى ميندوثا أيضًا مولع بالتأمل.

٥٦- تم الاستيلاء على حصن فريخيليانا بين ٧، ٩ يونية ١٥٦٩.

٥٧- تمت حملة ريكينس بمخالفة أوامر فيليبى الثانى. كان عليه أن يبقى فى أدرا لمعاونـة بيليث.

٥٨- يخشى ماتياس إسكوديرو أن يصل الأتراك لنجدة الموريسكيين المتمردين. يرى أن اشتراك قوات الإمبراطورية الثانية يعنى طول الحرب وقصر الأمل فى الانتصار. لم يكن يضع فى اعتباره أن القسطنطينية تبعد كثيرًا عن غرناطة، وأن السلطان مشغول بأموره الخاصة أكثر من انشغاله بأمر موريسكيى غرناطة.

٥٩- فى الفصل الثانى يحكى لنا كيف تم التوزيع وعن الرجال الذين خرجوا من ثوريتا والموناثيد. لم يسر القشتاليون كثيرًا لإخراج الناس وذهب الشباب مضطرين.

٦٠- خرج من غرناطة فى ٢٣ ديسمبر ١٥٦٩ وسار عبر غيخار أوخيخار وبالور وبويرتو دى لوه وكالا أورًا.

٦١- فى هذه الفصول يحكى لنا قصة الاستيلاء على غاليرا. ماتياس إسكوديرو يكتفى بسرد تفاصيل المعارك والمواجهات دون الاهتمام بأسماء الأماكن التى يمر بها الجيش المسيحى.

٦٢- أمر بذلك نظرًا للانتقادات التى وجهت إليه من قبل القادة الآخرين. كتب ريكينس إلى الملك، وقال إن الماركيز ليس الرجل المناسب لقيادة الحرب، وقد حملت الأوامر عبر خوان دى أوستريا إلى ماركيز خويسكار.

٦٣- يبدو أن إسكوديرو قرأ " رواية" تتضمن نص الرسالة. إنه يخلط بين الشخصين نظرًا لبُعد الأحداث أو لنقص معلوماته.

٦٤- كان فيليبى الثانى يرغب فى إقرار السلام مع الموريسكيين بدلا من الاستمرار فى الحرب. يقول مارمول كارباخال إن الوزراء كان لهم رأى آخر.

٦٥- دور الحبقى البارز فى مفاوضات السلام لا جدال فيه. كل المؤرخين تقريبًا يُبرزون دور هذا الوسيط ويأسفون لموته على يد ابن عبو.

مصدر لمعرفة تاريخ الموريسكيين

محاضر اجتماعات المجلس البلدى

نيكولاس كابريانا ثيسار

لعل مما لا غنى عنه أن أقدم بعض الإيضاحات المسبقة وهى موجهة أساسًا للمستمعين ممنْ لا عهد لهم بتاريخ إسبانيا.

كانت المدن الإسبانية خلال قرون كثيرة تتمتع بنوع من الحكم الذاتى يسرى على مناطق شاسعة تشمل قرى وأماكن. وكان يتولى السلطة عدد من الأشخاص يشكلون البلدية. ليس من المهم أن أعرض تطور نظام البلدية على مدى التاريخ، فالموضوع الذى أتحدث عنه يتعلق بالقرن السادس عشر وبإقليم مالقة الذى كان يتبع مملكة غرناطة.

كانت البلديات فى القرن السادس عشر لها أقسام كثيرة:

الرواتب السنوية للوظائف البلدية فى المذابح والسجون والمخازن والموازين وحرس السواحل والحرس القروى.

- إدارة المنافع التجارية والخاصة.
- العدل (العُمد والحُجَّاب).
- الصحة (المستشفيات).
- جمع الضرائب.
- النظام العام.
- تنظيم المليشيات المدنية.

وكان مجلس بلدية مالقة يتشكل من شخصيات تنتمى إلى صفوة المدينة. كان بعض هؤلاء ينتمى إلى طبقة النبلاء أما معظمهم فكان ينتمى إلى البرجوازية.

غنى عن الذكر أن مصالح كل هؤلاء (الزراعية والرعوية والتجارية) كانت تتعارض فيما بينها فى بعض الأحيان.

كان الأشخاص الذين يمارسون السلطة ينقسمون إلى "مراجعين"، وهؤلاء يعينهم الملك عادة، و"محلفين" [اثنين عن كل حى] يحيطون البلدية علمًا بالموضوعات ذات الاهتمام العام.

وكان يرأس المراجعين والمحلفين العمدة الأكبر، أما فى المدن المهمة مثل مالقة فكان هناك إلى جانب ذلك المراجع الأكبر وهو أعلى سلطة فى المدينة ويعينه الملك لمدة عام وكان من الشائع أن يستمر فى منصبه أعوامًا متتالية وفقًا لمصلحة الملك.

وكان الاجتماع الذى تعقده السلطات المحلية لمناقشة الأمور الخاصة بالمدينة يُسمى Cabildo أى اجتماع المجلس البلدى وكانت قراراته تصدر بالأغلبية.

كانت هذه الاجتماعات دورية إلا أنها كانت تعقد أحيانًا بصفة استثنائية فى تاريخ ومكان محددين.

أواصل تقديم الإيضاحات فأقول إن كلمة محضر Acta تعنى الوثيقة التى تسجل المناقشات والقرارات التى نتجت عن اجتماع المجلس البلدى وهى وثيقة حررها كاتب المجلس.

كانت الوثيقة تحرر أثناء مداخلات الأعضاء، وكان يسجل فيها دخول وانصراف المراجعين والمحلفين وأى أمر آخر له أهمية ما. كانت الوثيقة تُحرر فى سجل مخصص لذلك تجنبًا لأى تزييف. إن تحرير الوثائق على يد كاتب يُضفى عليها طابع الأمانة فهو يسجل المناقشات والقرارات التى اتُخِذت والاعتراضات فى

الجلسة. من هنا فإن كل صفحة يُوقع عليها الكاتب، وهو يوقع أيضًا فى نهاية المحضر بجوار توقيع المراجع العام أو العمدة الأكبر وأحد المراجعين.

والذى يُورخ للمشكلة الموريسكية لديه عدة أسباب لاستعمال محاضر اجتماعات المجلس البلدى منها:

١. فى هذه المحاضر توجد نصوص كاملة لوثائق قد لا توجد فى أماكن أخرى.

٢. خلال الاجتماعات تُذكر تفاصيل معينة لا توجد فى مصادر أخرى.

٣. القرارات البلدية تسمح لنا برؤية محلية للمشكلة الموريسكية توضح جوانب جديدة منها.

إذا ركزنا الاهتمام على العامين اللذين جرت فيهما حرب غرناطة ١٥٦٩-١٥٧٠ نجد أن الوثائق التى نُسِخَت فى محاضر اجتماعات المجلس البلدى لمدينة مالقة غنية جدًّا. قد تكون بلدية مالقة ذات طابع خاص بالنسبة للقضية الموريسكية إذ أن رئيس المجلس البلدى فى خلال سنوات الحرب كان أريبالو دى ثواثو الذى كان أحد القادة العسكريين خلال النزاع فى مملكة غرناطة.

تُذكر فى المحاضر أيضًا التحذيرات الشفوية التى صدرت عن مرشدين، والقوات التى أُرسلت إلى قادة الحصون.

كان من المعتاد فى الاجتماعات أن تقرأ الرسائل الواردة، وأن تُنسخ تلك الخطابات على يد الكاتب الذى يشهد بذلك، وكان نص الخطاب يُذكر مرة أخرى إذا كان أحد الأعضاء غائبًا فى بداية الجلسة.

وبالنسبة لثورة الموريسكيين فإن الخطابات الواردة من المرية وأدرا وسالوبرينيا والمونييكر تكتسب أهمية خاصة، فهى تطلب معونات وتصف الوضع هناك. بعض هذه الرسائل منقولة بالنص، والبعض الآخر يُذكر موجزه فى محاضر الاجتماعات(١).

خلال سنوات الحرب وصلت أربع رسائل من فيليبى الثانى تتعلق بالموريسكيين. الأولى بتاريخ ١ يناير ١٥٦٩، وقد قُرأت فى الاجتماع المنعقد فى ١٠ يناير، وفيها يأمر الملك بأن تأخذ المدينة حذرها ضد أى هجوم، وأن تسارع بنجدة الأماكن التى تطلب منها ذلك.

وفى اجتماع يوم ٤ يولية ١٥٦٩ قُرِأت رسالة من الملك (مُرسلة بتاريخ ٢٥يونية) يشكر فيها مالقة على الخدمات التى قدمتها إلى قائد قشتالة، ويشكرها على تعاونها فى معركة حصن فريخيليانا، وقد نُسِخَت الرسالة كلها فى المحضر وتقرر إيداعها فى أرشيف المدينة.

وفى رسالة ثالثة كُتِبَت بتاريخ ١٣ يولية ١٥٧٠ يأمر الملك المراجع العام فى مالقة - أريبالو دى ثواثو- أن يسير على رأس رجال من المدينة لنجدة دوق أركوس ضد الثائرين المسلمين فى روندا(٢).

وُجِدَتْ أربع رسائل كتبها خوان دى أوستريا كلها متعلقة بالحرب ضد الموريسكيين؛ رسالة ١٧ مايو ١٥٦٩ يحذر فيها المدينة من هجوم جزائرى مُحتمل، وقد نُسِخَتْ كلها فى رسالة أخرى قُرِأت فى اجتماع ٢٨مارس ١٥٧٠ يتناول أحداث تيخولا، وفى رسالة ٢١ يونية يحذر من ذهاب ابن على إلى روندا لمساعدة الثوار المسلمين(٣).

لن أتعرض للرسائل التى بعث بها لويس دى ريكينس قائد قشتالة إلى بلدية مالقة يطلب فيها معونة من الرجال والعتاد(٤).

ولا أذكر أيضًا اثنتى عشرة رسالة كتبها المراجع أريبالو دى ثواثو إلى المدينة يتناول فيها سير المعارك، ويُعرب فيها عن قلقه، ويحكى عن سير المعارك فى الجبهات الأخرى(٥).

وإذا أضفنا أيضًا رسائل دوق أركوس وانييغو مانريكى... إلخ فإننا يمكن أن نُدرك أهمية هذا الكنز الوثائقى الموجود فى المحاضر.

بعض هذه الوثائق كان يجب أن تُحفظ، وكان يُخشى أن تختفى من الأرشيف فسُجِّلت فى كتاب المحاضر. أذكر على سبيل المثال ما حدث بين حرس مدينة مالقة والموريسكيين فى قرية غوارو فى مارس١٥٥٩. لما شعر الموريسكيون باضطهاد الحُجَّاب لهم اختاروا للدفاع عنهم فى المجلس البلدى المحلف غوميث باثكيث، وهذا الأخير أصر على أن يُقرأ الطلب فى المجلس، وأن يسجل كاملا فى المحضر(٦).

الرغبة الشديدة فى تملك الأراضى:

توضح لنا محاضر الجلسات أيضًا قضايا أخرى تهم الأقلية الموريسكية إزاء جماعات الضغط فى المدن والقرى.

إن قراءة الموضوعات التى نوقشت تدل على الأهمية القصوى لموضوع الأراضى وهى مشكلة سببت مناقشات طويلة فى العقد السابق على ثورة الموريسكيين.

اعتبارًا من عام ١٥٥٩ نتج عن الرغبة فى تملك الأراضى عدد من القضايا قدمتها سلطات مالقة إلى محكمة غرناطة تشتكى فيها من احتلال أراضٍ قريبة من قرى الموريسكيين.

كان السكان يحولون الممتلكات العامة إلى ممتلكات خاصة ويزرعون الأراضى بالكرم والأشجار.

ورغم أن هذا الموضوع يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر فإن المناقشة التى حدثت فى جلسة المجلس البلدى يوم ٦ مارس١٥٥٩ تكتسب أهمية خاصة؛ فقد نوقش فيها طلب قدمه موريسكيو غوارو المتهمون بغرس أشجار فى أراضٍ أميرية. وكان الحرس قد أجبرهم على دفع غرامات كبيرة واقتلاع الأشجار.

كان الموريسكيون قد اعتادوا شراء صمت الحُراس، وهؤلاء كانت رواتبهم ضعيفة؛ فكانوا يقبلون الرشاوى بسهولة إلا أن الموريسكيين فى هذه المرة كان رد فعلهم جديدًا ينم عن تغير فى عقليتهم.

إزاء شكوى الحُراس أرسل موريسكيو غوارو إلى مجلس بلدية مالقة مدعيًا اسمه راميرو جانييث قال إن الأراضى قد زُرِعَت منذ عشرين عامًا، وإن السلطات لم تعلم بذلك لأنه قد تمت رشوة الحراس "إننا نعطى لهم ما يطلبونه منا حتى لا يقتادوننا إلى سجن المدينة. إن ما يطلبونه منا يزيد عما تساويه الكروم التى زرعناها. إن سطوة هؤلاء الحراس لا تُحتمل؛ ولهذا نرجو منكم وضع حدٍ لها"(٧).

إن هذا الإعلان الموريسكى يوضح موقفًا ثائرًا، وأن الموريسكيين قد قرروا ترك الإذعان الذى تعودوا عليه فيما سبق.

إن موريسكيى غوارو لم يكتفوا بالشكوى من فساد الحراس بل إنهم أعلنوا "أنهم ليسوا وحدهم الذين غرسوا أشجارًا فى أراضٍ أميرية، وأنهم سيفعلون ما يفعله الآخرون وسيدفعون الضرائب التى تقررها المدينة".

يوضح النص موقفًا كريمًا للموريسكيين الذين ملوا أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثالثة وأصروا على أن يتساووا بالمسيحيين القُدامى. وفى مواجهة سطوة الحراس طلبوا معاملتهم كالآخرين، أى كمواطنين فى المملكة.

كان الاستيلاء على الأراضى الأميرية ناتجًا عن زيادة عدد السكان، وعن أرباح المحاصيل الزراعية، ولم يكن حِكرًا على الموريسكيين؛ ففى تلك الأعوام كان لمجلس بلدية مالقة قضية ضد ماركيز ارداليس الذى احتل رعاياه أراضى فى بيا بردى التابعة لمالقة. لكن أراضى الموريسكيين كانت تخص مجموعة من أكثر المجموعات المسيحية تأثيرًا وهى أصحاب الماشية فهم المتأثرون مباشرة بالاستيلاء على الأراضى الأميرية. هذا عامل مهم يجب أن يوضع فى الاعتبار لكى نتفهم الأحداث التى ستجرى فى ديسمبر عام ١٥٦٨ فى الإقليم.

كان الاستيلاء على الأراضى الأميرية منتشرًا فى كل الجهات لدرجة أن الملك اضطر لإرسال لجنة الدكتور سانتياغو الشهيرة. إن أداء هذه اللجنة المعادية للموريسكيين لدى فحصها لعقود الأملاك الزراعية يمكن اعتباره أساس الثورة الموريسكية. قام هذا الموظف بزيارة للإقليم عام ١٥٦٢ وطلب من كل مزارع عقد ملكيته.

لم يستطع كثير من الموريسكيين إثبات ملكيته لأراضيه لأنهم لم يحتفظوا بعقودهم التى ترجع إلى أيام بنى نصر فطُرِدوا من الأرض(٨).

مع ذلك لم تتوقف حركة الاستيلاء على الأراضى الأميرية، واستمر الموريسكيون والمسيحيون على السواء فى زراعة الأراضى خلسة. أسوأ ما فى الموضوع أن الظاهرة انتشرت "إن ما حُكِيَ حتى الآن لا يُقارن بما حدث بعد ذلك، فكثير من السكان استولوا على أراضٍ فى جميع الجهات..."(٩).

ويُنهى المحلف خوان دى ليون طلبه إلى المجلس البلدى بالإشارة إلى كميات الأشجار الكثيرة التابعة للمدينة والتى يتم قطعها، والفوضى فى الاستيلاء على الأراضى. كل ذلك يقلل من مساحات المراعى؛ بل ويمنع مرور قُطعان الماشية؛ لهذا يشترط أن تقوم السلطات بإعادة الممتلكات، ويطلب تشكيل لجنة تقوم بالتحقيق فى وقائع الاستيلاء على أراضٍ منذ عام ١٥٦٢، وأن تُرسل نتائجها إلى المجلس الملكى(١٠).

تطور العنف:

إذا كانت محاضر المجلس البلدى مهمة للتعرف على العوامل الأساسية التى أدت إلى ثورة الموريسكيين فإنها مهمة أيضًا لدراسة تطور الأزمة الاجتماعية وتدهور العلاقة بين المسيحيين والموريسكيين.

كانت مواقف المراجعين والمحلفين تتغير تبعًا لتطور الأحداث خلال عام ١٥٦٩. إن تطور العنف والعدوانية يتبين فى إعلانات المجالس البلدية؛ بل وفى الألفاظ المستعملة.

من المدهش أن نعرف أن مجلس بلدية مالقة لدى علمه بأخبار التمرد ظن جميع المحلفين أن الأمر عبارة عن فوضى أحدثها اللصوص الموريسكيون لأنهم خسروا أراضيهم نتيجة لقرارات لجنة الدكتور سانتياغو.

إن الفرق بين اللصوص (وهم متشردون تصعب السيطرة عليهم) وبين الموريسكيين واضح جدًا فى عقلية المراجعين فى مالقة.

فالموريسكيون مسالمون وسكان قرى وصُنَّاع مَهرة يعملون فى تحويل العنب إلى زبيب لتصديره. هؤلاء – كما يعتقد المجلس البلدى – لا يمكن أن يثوروا ضد الملك فهذا أمر يخرج عن النظام المألوف.

فى ٢٧ ديسمبر ١٥٢٨ قُرِأت ثلاث رسائل جاءت بالبريد من الساحل وهى تحذر من أن عددًا من اللصوص قد شوهدوا ومعهم رايات، وأنهم قتلوا عددًا من المسيحيين. ورغم أن الأنباء مشوشة فإن المراجع العام أرسل خطابات إلى القرى التابعة له لكى يُعد كل الرجال سلاحهم، وأن يسهروا ليلا، وأن يُعلِموا العاصمة بكل ما يعرفونه لاتخاذ الإجراءات الضرورية، وقد اتخذ نفس الإجراءات فى مالقة[١١].

وفى يوم ٢٩ ديسمبر وصلت أخبار جديدة من السواحل " قامت بعض قرى البشرات بالثورة وقُتِلَ عدد من المسيحيين، وفى مساء أمس شوهد أربعون رجلا فى (بلدة) نهر بيليث Vélez يُطلقون النار... وعلمنا أن هؤلاء اللصوص ربما يأتون من الساحل للذهاب إلى بلاد البربر، ولهذا نأمر أن يخرج الصيادون ورجال البحر إلى عملهم نهارًا..."[١٢].

في ٣٠ ديسمبر اجتمع المجلس إزاء الخوف العام وقرأت رسائل وصلت إلى أدرا يُقال فيها إن القرية محاصرة، وإنه في يوم ٢٤ عندما كان دييغو دي إيريرا يسير من غرناطة مع أربعين جنديًا هاجمه أهل البشرات بالأسلحة، وإن قرى أخرى انضمت إلى الثورة هي كاديار ونصلة وبيرشول، وتعرض الرسائل كيف أن الثائرين أخرجوا المسجونين من السجن في أوخيخار، وأن المسيحيين اضطروا إلى اللجوء إلى الأبراج"(١٣).

ومع كل ذلك يسجل الكاتب في الهامش: "لصوص" لكن الأخبار تزداد وتدعو إلى مزيد من القلق. ترد رسائل من الموننييكر وسالوبرينيا وموتريل: إن كل قرى الساحل قد هوجمت.

في أول يناير عام ١٥٦٩ اجتمع المجلس في مكانه المعتاد. إن الكلمات التي استُهِلَّ بها الاجتماع تعكس القلق العام.

في مخازن السلاح الملكية بين البارود وصناديق الرصاص اجتمع المحلفون والمراجعون بالمراجع العام أريبالو دي ثواثو وهناك قُرأت رسالة وردت من المرية يُذكر فيها أن المدينة محاصرة. أخيرًا، بدأ الناس في مالقة يفهمون أن الوضع أخطر مما كان مُتَصَوَّرًا: "ترى أن الأضرار التي يُحدثها الموريسكيون تزداد"(١٤) . منذ ذلك الحين بدأ استعمال لفظ "الموريسكيين" بدلا من "اللصوص" في مناقشات المجالس.

لنذكر أنه في ماربيا حدثت ظاهرة مشابهة: عندما جاء اسكالنتي ومعه خبر ثورة الموريسكيين في استان "لم يكن هناك منْ يصدقه...كانت الثقة في هؤلاء الناس الأغنياء لدرجة أنه لا أحد يصدق أنهم يريدون الخسارة..."(١٥).

ويرد خبر ثورة استان في المحاضر [وهو شيء غريب] بعد سبعة أيام من اندلاع الثورة. في محضر اجتماع يوم ٢ يناير كُتِبَ "علمنا اليوم أن الموريسكيين في استان قد تمردوا، ونفس الشيء حدث في بعض مناطق مدينة ماربيا"(١٦).

يزداد الخوف فى مدينة مالقة يومًا بعد يوم. لقد زادت ثورة موريسكيى استان من الشعور بالخطر. لم يعد الأمر مجرد شغب لصوص من البشرات. إن رُسُلا من ماربيا يتحدثون الآن عن الخطر الموريسكى، والأسوأ من كل ذلك أن يعلموا أن المتمردين على صلة بالأتراك والجزائريين مما يجعل الوضع متأزمًا. فى اجتماع يوم ١٦فبراير١٥٦٩ تحدث الحاضرون عن الوضع. يتحرك الأتراك وقد خرج ملك الجزائر على رأس ثلاثة وثلاثين سفينة وسلطان فاس يتحرك أيضًا"(١٧).

هذه الشائعات المرعبة تزداد عند وصول رسالة خوان دى أوستريا من غرناطة والتى يُحذر فيها من أن كثيرًا من متمردى البشرات يتحركون نحو مالقة لمساعدة القرى الموريسكية "وهم على ثقة من تلقى مساعدات من الجزائر..."(١٨).

وأدت رسالة خوان دى أوستريا إلى عقد اجتماع طارئ فى ١٩ مايو١٥٦٩ نوقش فيه الخطر الذى يهدد المدينة، وتقرر فيه إغلاق أبواب السور.

تزايد عدد سكان مالقة مع الوقت لأن مواطنى كوين والهورين وكارتاما وغيرها تركوا متاعهم ولجأوا إلى مالقة وقيل إن ذلك التزاحم كان خطيرًا؛ فقد وردت أخبار بتفشى الطاعون فى إشبيلية وأوتريرا وغيرها(١٩).

زحام وحرب وخطر تركى...كل ذلك أدى إلى جو من العداء والكراهية ليس ضد الموريسكيين الثائرين بل ضد أولئك المسالمين الذين يعيشون فى مدينة مالقة.

وفى اجتماع المجلس بتاريخ ٢٣ مايو تحدث المحلف بدرو لوبيث دى بيالوبوس بإسهاب عن "وجود الأعداء فى قلب بيوتنا"، وأكد أنه إذا كان "المسلمون" يسعون إلى إثارة مسلمى أوريا وأخاركيا فمن الأفضل أن نمنع عنهم الحبوب، وأن نحبسهم فى مخازن المدينة(٢٠).

تزايد عداء المسيحيين للموريسكيين كثيرًا عندما بدأت المؤن تقل فى المدينة خلال الصيف نظرًا لصعوبة نقل القمح والشعير والزيت ... إلخ من مناطق الإنتاج خوفًا من هجوم الموريسكيين على البغال التى تحمل البضائع.

فى ٢٢ أغسطس١٥٦٩ قررت السلطات المحلية المجتمعة إرسال خطاب إلى خوان دى اوستريا تطلب منه أن يسمح بفرض ضريبة على المتنصرين الجُدد فى مالقة وروندا تخصص لتجهيز مائة جندى واثنى عشر فارسًا من مالقة ومائتى جندى وأربعة وعشرين فارسًا من روندة.

هؤلاء الحراس سيخصصون لحراسة الطرق وتسهيل تزويد المدن والقرى بالمؤن وتأمين العمل إذ أن العمال كانوا يرفضون الخروج من منازلهم خوفًا على حياتهم وعلى أغنامهم.

لم يكن هذا هو الطلب الوحيد الذى طُلِبَ من خوان دى أوستريا. كان هناك طلبٌ آخر ساهم فى زيادة التناحر بين الجانبين؛ هذا الطلب هو "أن يأمر سموه بأن تصبح الغنائم مِلكًا لمنْ يسلبها من الموريسكيين"(٢١) تقرر أيضًا أن تُكتب رسالة إلى الملك حتى يسمح بذلك.

من الصعب أن نعرف ما إذا كانت بلدية مالقة تعلم نتائج هذا الإجراء على سير الأحداث فقد أدى الإجراء بالفعل إلى حرب شنها المسيحيون الطامعون، سلبوا خلالها متاعهم ونشروا الرعب والفوضى، فلم يعد المهم هو الحرب بل الأسلاب.

تقديم المحلف خوان دى ليون بطلب إلى بلدية مالقة فى ٥ سبتمبر١٥٦٩ تحدث فيه عن كثرة القتلى المسيحيين على يد الموريسكيين، وطُول أمد الحرب دون نتائج.

بدأت الحرب بالفعل تصبح مملة بالنسبة للجميع ما عدا موريسكيى بنتوميث الذين هجموا على الفرناتى فى مالقة وبالتحديد على مخزن حبون كان يُخزن فيها علية القوم من مالقة غلالهم. إن الخوف من فُقدان الغلال والماشية قد دفع المحلفين

والمراجعين إلى الكتابة إلى الملك لكى يُرسل عددًا يخلصهم من الموريسكيين، وقد أُحيط الملك علمًا بما حدث(٢٢).

يجب أن نركز الاهتمام أيضًا على العبيد المسلمين المقيمين فى مالقة؛ فقد هرب بعضهم إلى الجبال وانضموا إلى الثوار وأحاطوهم علمًا بوضع التحصينات. من غير المفهوم حدوث ذلك؛ فقد كانت الأوامر قد صدرت بتقييد العبيد بالسلاسل الحديدية خلال الليل.

فى ٥ أكتوبر تلقى أصحاب العبيد المسلمين أمرًا بتفتيش هؤلاء وإدخالهم الأسوار ليلا مع تعرض منْ لا يفعل ذلك للعقوبة.

وقام كل نائب بتحرير قائمة بالموريسكيين والعبيد المسلمين الذين يدخلون ويخرجون من أبواب المدينة.

وتعين على المسيحيين الجُدد الذين يزورون مالقة للعمل أن يقضوا الليل فى فنادق بحى المسلمين مع تعرض منْ يستضيفهم فى منزله للعقوبة، وقد طلب إعدام العبيد المسلمين الذين يُقبض عليهم(٢٣).

حتى الآن يمكن القول بأن المجالس البلدية فى مالقة تحركت ضد الموريسكيين المتمردين كرد فعل منطقى. لكن منذ ١٦ نوفمبر ١٥٦٩ حدث تغيير جذرى؛ فقد طلب المراجع دييغو دى توريس – يسانده الأعضاء المناهضين للموريسكيين – شن الحرب "ضد المسلمين المسالمين الذين لم يتمردوا بعد فهذا أهم عمل لعلاج بقية الأمور". يؤكد المراجع فى طلبه أنهم مسلمون كالآخرين، وأن لديهم نفس الرغبة فى الثورة، وأنهم يساعدون الثوار ويزودونهم بالحبوب والماشية.

كان الثوار يعرفون الطرق والمسالك جيدًا عن طريق المسلمين المسالمين فهم يحذرونهم من أى هجوم مسيحى، ولهذا كان الثوار على علمٍ دائمًا.

يؤكد المراجع دييغو دى توريس أن الحرب لن تنتهى أبدًا ولن تكون هناك مؤن كافية إلا بعد طرد المسلمين المسالمين.

وكما نرى، فإن العداء قد وصل إلى درجة إدانة أشخاص بجرائم لم يرتكبوها بعد ولم تثبت ضدهم.

يؤكد أنه لا يجب أن يسمح للموريسكيين المسالمين بالدخول إلى المدينة لمصلحة عامة أو خاصة "كما يحدث عند تفشى الطاعون"، وعلى الموريسكى أن يقيم فى فندق خارج الأسوار، وأن يسجل صاحب الفندق اسم الموريسكى ويوم وصوله ويوم خروجه. إن هذه الوسائل لا غرابة فيها، فهى موجودة فى فرنسا وإيطاليا حتى فى زمن السلم. ويعترف المراجعون المؤيدون لدييغو دى توريس أن هذه الإجراءات قد تؤدى إلى ثورة الموريسكيين لكن ذلك من المناسب "فمن الأفضل أن يعلنوا عداءهم حتى نعلم ممنْ يجب أن نحذر..."(٢٤).

وكما يرى القارئ فإنه على مدى أحد عشر شهرًا زادت نزعة العداء لدى كل أعضاء المجلس البلدى فى مالقة ضد الموريسكيين لأسباب اقتصادية واجتماعية بل وبسبب الدفاع عن النفس. إن أولئك الذين ظنوا أن الأمر عبارة عن شغب لصوص فى يناير اقترحوا – فى نوفمبر – طرد الموريسكيين الذين لم يتمردوا بعد.

يجب أن نسجل أن الموريسكيين المقيمين فى مالقة لم يظهروا أنهم مسيحيون حقيقة. وقد قام الموريسكيون بجرح أنفسهم حتى يعطف الناس عليهم ويتركوهم فى المستشفيات كمرضى ولا يطردوهم، لكن غالبية الموريسكيين استمرت دون تعميد. إن هذه المقاومة السلبية للشعائر الكاثوليكية قد أججت شعور المحلفين والمراجعين بالعداء للموريسكيين. وفى اجتماع يوم ١٨ نوفمبر ١٥٦٩ قيل "إنهم مسلمون كالآخرين تماماً"(٢٥).

فى ذلك اليوم اقترحت المجالس البلدية فى مالقة على المراجع العام أريبالو دى ثواثو أن يقوم الحاجب بإبلاغ الموريسكيين الغرباء بضرورة التوجه إلى قراهم الأصلية، وأنه قد انقضت فترة الأيام الثلاثة التى حُددت لمغادرة المدينة بمقتضى مرسوم يوم ١٢ نوفمبر.

وقد اتهم المراجع العام بعدم الفعالية؛ فبالرغم من فرض غرامة ستة آلاف عملة ضد الموريسكيين الذين لا يغادرون المدينة إلا أنه لم تُحَصل غرامات، ولم يطرد أحد. وقد تخلى أريبالو دى ثواثو عن صمته المعهود ورد قائلا "إن طرد الموريسكيين عمل بالغ الشدة"... وإن طرد أولئك الذين كان بإمكانهم التمرد والانضمام إلى الثوار لكنهم "كمسيحيين جاءوا إلينا يحتمون بنا، وقد أحضروا نساءهم وأولادهم ومتاعهم ...إن طردهم الآن قد يدفعهم إلى التمرد ولو ضد رغبتهم... وليس من الصحيح أن كل الموريسكيين أشرار كما يُقال ..."[٢٦].

من المهم أن نوضح أن ممثل الملك بالتحديد كان له رأى حول طرد الموريسكيين يخالف رأى صفوة المدينة.

استمر المحلفون والمراجعون على رأيهم وقالوا إن الموريسكيين المسالمين مسلمون تمامًا. وإنهم يفيدون الثوار ويرسلون إليهم الأغذية والأسلحة ويستضيفون الجواسيس.

اقترحوا على المراجع العام أن يمنع دخول الموريسكيين وخروجهم، وأن تكون عقوبة المخالفة هى الإعدام، وأن ينفذ الإعدام أى مسيحى ..."[٢٧]، وقالوا إن هذا الإجراء ضرورى لأن الموريسكيين يستطيعون مهاجمة المواقع الاستراتيجية.

تعاطف مبدئى مع الموريسكيين تحول فى النهاية إلى إصدار حُكْم بالإعدام، وهكذا وصلت العدوانية إلى ذروتها.

الحرب يومًا بيوم:

تقدم لنا محاضر اجتماعات مجلس بلدية مالقة معلومات وفيرة خلال أيام الثورة، فبالإضافة إلى الاجتماعات الدورية كانت هناك "اجتماعات حرب" مخصصة بشكلٍ كاملٍ للقضية الموريسكية. إن وفرة هذه المعلومات تسمح لنا بتوضيح تواريخ محددة لأحداث لا توجد فى مصادر وثائقية أخرى.

موقعة فريخيليانا:

كانت معركة فريخيليانا فى رأيى أهم حدث خلال الحرب ضد الموريسكيين فى محافظة مالقة. إن اشتراك اريبالو دى ثوثو فيها كأحد القادة الرئيسيين يضفى على المحاضر أهمية كبرى كمصدر تاريخى للمعلومات.

إن المؤرخين الحاليين يتابعون الأحداث كما يرويها مارمول كارباخال وهذا قد جمع معلومات من بيليث وغيرها تكثر فيها المعلومات عن الموريسكيين، كما لو أن رواة الأحداث هم الموريسكيون المطرودون.

فيما يتعلق بالجانب المسيحى يجب أن أوضح هنا بعض الأخطاء فى معلومات مارمول كارباخال، هذه الأخطاء ترجع إلى أنه كتب مؤلفه بعد خمسة عشر أو عشرين عامًا من جمع المعلومات.

فى محضر اجتماع يوم ٤ يونيه ١٥٦٩ – وهو "اجتماع حرب" – نُسِخَتْ رسالة بعث بها أريبالو دى ثواثو من بيليث يوم ٣ يونيه. وقد بدأ الاجتماع بهذه الكلمات "أيها السادة، لقد وصل قائد قشتالة صباح اليوم ومعه خمس وعشرون سفينة إلى تورى ديلا مار لطرد المسلمين"[٢٨]، أما النص الذى كتبه مارمول كارباخال فيقول إن قائد قشتالة وصل إلى أدرا يوم ١ مايو، ولم يبق بها غير عدة ساعات ثم سار على رأس خمس وعشرين سفينة إلى مدينة المونييكر حيث علم بما حدث لرجالنا فى فريخيليانا ثم أبحر حتى شاطئ بيليث ووصل إلى تورى ديلا مار..."[٢٩].

وهكذا تدل الرسالة التى نُسِخت فى محضر الاجتماع على أن تاريخ وصول قائد قشتالة إلى أدرا هو يوم ١ يونية وليس ١ مايو كما يؤكد مارمول.

لا يجب أن نغفل تعليق مارمول على آراء القائدين حول المعركة التى يُعدان لها؛ فالمحاضر أيضًا تتحدث عن ذلك. يؤكد مارمول أنه عندما وصل قائد قشتالة لويس دى ريكينس إلى تورى ديلا مار أراد أن يعرف الأحداث من مصادرها فأرسل قاربًا أحضر اريبالو دى ثواثو وناقش الاثنان معًا خطة الهجوم على حصن فريخيليانا. يقول مارمول "وقد عوض هذا النقص [فى المؤن] رغبته الصادقة وكمية الرجال والجياد التى يمكن أن تصل وكذلك المؤن..."(٣٠).

وهكذا نفهم أن أريبالو دى ثواثو قد وعد قائد قشتالة بالرجال والعتاد، ومع ذلك فإن الرسالة التى بعث بها إلى مجلس البلدية ذكر فيها "ربما يطلب صاحب السمو رجالا وإنى أرى ألا يخرج أحد إلا بعد صدور الأمر من المدينة..."(٣١). وهكذا نرى أن المراجع العام تهمه سلامة مالقة أكثر مما تهمه معركة فريخيليانا.

غنائم ألوثاينا:

من بين أحداث حرب الموريسكيين التى يرويها مارمول بالتفصيل نجد الاستيلاء على الممتلكات فى ألوثاينا. إن التحدث بالتفصيل عن الأماكن تدل على أنه استقى روايته من شهود عيان.

يؤكد مارمول أنه فى ٥ يوليه تجمع فى تولوكس ستمائة موريسكى يقودهم كل من الجبيلى ولورينثو الفقيه، وأنه فى يوم ٧ يوليه اختبئوا فى خوروث Joroz وراقبوا حركة خروج الناس ودخولهم إلى ألوثاينا، ولما رأوا أن الرجال قد ذهبوا إلى أعمالهم الزراعية اقتحموا القرية صباحًا. وقد لجأ الأطفال والنساء فى القلعة يقودهم إنييغو مانريكى الذى كان موجودا هناك"(٣٢).

ورغم دقة التفصيل الزمنى، فإن التاريخ غير صحيح. إن محضر اجتماع بلدية مالقة فى ٧ يونية ١٥٧٠ يذكر فيه "أن المراجع العام قال إنه وردت رسالة

من إنييغو مانريكى يتحدث فيها عن وجود المسلمين الثائرين فى ألوثاينا، ويتناول فيها قصة الهجوم وحرق الغلال وأسر النساء والأطفال [٣٣].

إن تاريخ الحادث يرجع إلى ٨ يونيه وليس إلى شهر يولية كما يؤكد كارباخال.

معركة سييرا برميخا:

رأينا أنه يمكن تصحيح بعض الأخطاء الواردة فى الوثائق بالرجوع إلى محاضر اجتماعات المجلس البلدى، ونقول أيضًا إن هذه المحاضر تمدنا بمعلومات لا تتوافر فى مصادر أخرى مما يمكننا من إكمال دراسة ذلك الفصل التاريخى.

إذا تناولنا معركة سييرا برميخا كمثال، وهى معركة يصفها مارمول كارباخال، نجد أنه لا يكاد يتحدث عن تواريخ متعلقة بالإعداد للمعركة وسيرها. ونظرًا لنقص تلك المعلومات، فإنه يستخدم كثيرًا لفظ "بعد ذلك" أو لفظ "فى ذلك الوقت" أو "فى نفس وقت وقوع الأحداث"[٣٤].

يتحدث مارمول عن تفاصيل كثيرة متعلقة بالفظائع التى ارتكبها الجنود المسيحيون ضد القرى الموريسكية التى لم تتمرد بعد، ويعرض لنا جهود دوق أركوس لإقناع الموريسكيين المسالمين بعدم الثورة وقبول شروط فيليبى الثانى المعقولة ويخبرنا أيضًا عن دور زعماء الموريسكيين الذين تنصلوا من الاتفاقيات المبرمة، وكان لهم نشاط فى عمليات السلب والنهب.

ويبحث القارئ عن تاريخ ما يمكِّنه من ترتيب الأحداث. أخيرًا نجد تاريخ يوم ١٦ سبتمبر (١٥٧٠) الذى قرر فيه الدوق عملية الهجوم بالتعاون مع ميليشيات رونده وماربيا ومالقة وأنتيكرا وخيريث.

من حُسنْ الحظ، فإننا إذا اطلعنا على محاضر الاجتماعات فى المدن المذكورة، فإننا نحصل على بيانات تمكننا من ترتيب الأحداث: الرفض، الترحيب،

الشكوك، رسائل الملك ودوق أركوس التى يطلبان فيها المساعدات من رجال وعتاد....

كانت كل مدينة ترد حسب وضعها الاجتماعى والاقتصادى، وحسب اهتمامها أو عدم اهتمامها بالحرب.

بالنسبة لمالقة، فإنها لم تُفاجأ بمعركة سيرا برميخا، ففى اجتماع بلديتها يوم ٢٨ يوليه ١٥٧٠ قرأت رسالة من الملك بتاريخ ١٣ يوليه يطلب فيها من المدينة التعاون بأقصى ما تستطيع فى تلك المهمة، ورسالة أركوس يقول فيها إنه عين قائدًا لكل المشتركين فى الحرب.

وقد سُرَّ مجلس بلدية مالقة لذلك التعيين ووافق على طلب الملك، وكتب رسالة سلمها بدرو دى مدريد مامباسو إلى الملك.[٣٥]

ولما وصلت إلى مالقة أنباء المعركة بدأت الاستعدادات؛ فقد توجه الفرسان إلى الأحياء للتواجد مع الجنود.

فى ٩ أغسطس خرجوا جميعًا فى اتجاه كارتاما. كان الكل مسرورًا "كما لو كانوا فى حفل زفاف". البعض أملاً فى الغنائم، والبعض دفاعًا عن نفسه وعن حاله، والبعض الآخر تحركه الرغبة فى شن حرب صليبية.

لم يذهب إلى الحرب المجهزون فقط؛ بل إن "كل الأشخاص الآخرين الذين بقوا فى المدينة لحراستها والدفاع عنها ساروا مع المراجع العام بلا نظام..."[٣٦].

تحكى لنا المحاضر وقائع المعركة بالتفصيل، وتبين لنا القلق العام فى المجلس؛ ففى الليلة السابقة على ١٠ أغسطس؛ لم يبق فى مالقة أحد يقدر على حمل السلاح، وقد زاد الشعور بالقلق عندما وردت أنباء تفيد بأن موريسكيى بورخى قد عادوا إلى الثورة هم وأهل أخاركيا. وقد زاد القلق عندما علم الناس أن الأسطول الجزائرى قد استعد.

وتقرر أن يذهب محلف بحثًا عن المراجع العام، وأن يعرض عليه مخاوف المدينة لكى يأمر بأن يعود غير المعينين للحملة إلى قراهم، وأن يعود إلى مالقة المكلفون بحراسة القلعة.

لا أدرى ما إذا كان قد لحق به، لكن مارمول كارباخال يؤكد أنه فى يوم ١٨ سبتمبر وصل المراجع العام إلى معسكر دوق أركوس ومعه ألف جندى من المشاة ومائة فارس.[٣٧]

نظم الدوق عملية الهجوم على حصن أربوتى "بحيث كان جنودنا متلاصقين بحيث يستطيع كل اثنين أن يتصافحا" [٣٨].

لا يجب أن أسترسل فى هذه التفصيلات التاريخية التى تسمح بها محاضر المجلس البلدية حتى لا أسِئ استغلال صبركم.

الهوامش

١- لكتابة هذه الدراسة استعنت بالمحاضر الموجودة فى أرشيفات بلديات أرشيدونا ومالقة وبيرا، وبأرشيف كاتدرائيات المرية ومالقة، أما النص النهائى فقد استعنت فيه بأرشيف بلدية مالقة. لهذا ، من الآن فصاعدا سأكتب فقط كلمة "محاضر" ، وسأذكر رقم السجل ورقم الصفحة. المحاضر، ١٨، نسخة من رسالة أدرا، ص٢٧٢، موجز رسائل القائد لاغسكا التى يشكر فيها وصول المساعدات، ص. ٢٨٠

٢- المحاضر، ١٨، ص ٢٧٩،٣٨٨، المحاضر، ١٩، ص ١٢٥

٣- المحاضر، ١٨، ص ٣٥٨، المحاضر، ١٩، ص ٨٠- ١٢٠

٤- المحاضر، ١٨، ص٣٧٢، ٣٧٤

٥- المحاضر، ١٨، ص٣٦٥ ، ٣٧١ (النص الكامل فى المحاضر، ١٩، ص.١٥٦)

٦- المحاضر، ١٤، ص ٢٠٩

٧- المحاضر، ١٤، ص ٢٠٨- ٢٠٩

٨- انظر كتاب خوليو كارو باروخا Los moriscos del reino de Granada, Madrid, 1976,p. 154 وكتاب نيكولاس كابريانا Almería morisca, Universidad de Granada, 1982, cap. 8

٩- المحاضر، ١٨، ص ٩٧

١٠- المحاضر، ١٨، ص ١٠٨، ١٠٩

١١- المحاضر، ١٨، ص٢٦٩ - ٢٧٠

١٢- المحاضر، ١٨، ص ٢٧١

١٣- المحاضر، ١٨، ص ٢٧٣

١٤- المحاضر، ١٨، ص ٢٧٥

١٥- Mármol Carvajal: Historia del rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada, BAE, tomo XXI, Madrid, 1946,p. 216

١٦- المحاضر، ١٨، ص ٢٧٦

١٧- المحاضر، ١٨، ص٣٢١

١٨- المحاضر، ١٨، ص ٣٥٨. يؤكد مارمول كارباخال أن أهل غرناطة علموا أن ابن أمية أرسل سبعة آلاف مسلم إلى الغرب لنجدة بنتومات وخركية وأويا دى مالقة حتى تتمرد تلك الأماكن، وأنه أشاع أن بحوزته رسائل من (علوش؟) على حاكم الجزائر من قبل السلطان التركى يعده فيها بالنجدة قريبا. ص ٢٦٥

١٩- المحاضر، ١٨، ص ٣٥٩
٢٠- المحاضر، ١٨، ص ٣٦٠
٢١- المحاضر، ١٨، ص ٤٠٥
٢٢- المحاضر، ١٨، ص ٣١٥
٢٣- المحاضر، ١٨، ص ٣٢٠-٣٢٢
٢٤- المحاضر، ١٨، ص ٤٤٤
٢٥- المحاضر، ١٩، ص ٣
٢٦- المصدر نفسه
٢٧- المحاضر، ١٩، ص ٤
٢٨- المحاضر، ١٨، ص ٣٧١
٢٩- انظر كتاب مارمول المذكور ص ٢٧٣
٣٠- المصدر نفسه
٣١- المحاضر، ١٨، ص ٣٧١
٣٢- مارمول، ص ٣٠٢
٣٣- المحاضر، ١٨، ص ١١٥
٣٤- مارمول، ص ٣٥٥، وقد درس بنثيث سانشيث بلانكو هذا الموضوع مؤخرا. انظر Moriscos y cristianos en el condado de Cáceres y Córdoba, 1982.
٣٥- المحاضر، ١٩، ص ١٢٥. كان البريد يحمل أيضا رسالة أخرى موجهة إلى رئيس مجلس الدولة، الكاردينال دييغو دى إسبينوسا، ردا على رسالة كتبها هو ولا يرد ذكرها فى المحاضر.
٣٦- المحاضر، ١٩، ص. ١٥١
٣٧- مارمول، ص ٣٥٧
٣٨- المصدر نفسه

خصومة بين السيد كوينكا وموريسكيي أورناتشوس
فى إقليم إكستريمادورا١٦٠٧-١٦٠٩
معالم الأزمة بين المسيحيين والمسلمين داخل مجتمع محلى

فيرنانديث نييبا

منذ مؤتمر مونبلييه عام ١٩٨١، وبعد أن عرفنا مصادر محاكم التفتيش واستعملناها كانعكاس للمجتمع الإسبانى آنذاك، بدأت أتوسع فى نوع المصادر المستعملة. كل هذه المصادر مجتمعة تساعدنا فى محاولتنا توضيح أبعاد القضية الموريسكية المعقدة.

والمصادر الجديدة التى استعملتها تتمثل بصفة أساسية فى السجلات الشرعية المحفوظة فى أرشيفات باداخوث وميريدا وثافرا الخاصة بالأعوام ١٥٧٠-١٦١٠. إن هذه المصادر من توكيلات وكتابات أمام كتبة شرعيين(عقود بيع وشراء وهبات وعقود عمل ووصيات... إلخ) تلقى مزيدًا من الضوء وتُثرى موضوع القضية الموريسكية من حيث بناء العائلة (نستفيد هنا من سجلات الكنائس) والوضع الاقتصادى والاجتماعى والقانونى للموريسكيين، بما فى ذلك موضوع تحويل الموريسكيين إلى عبيد؛ وهو الموضوع الذى أثاره الأستاذ أراندا دونثيل[١]، بالإضافة إلى الأمور الخاصة بالضرائب والأمتعة والصراعات، وكل هذه جوانب سأتعرض لها فيما بعد.

فيما يتعلق بالصراعات وارتباط هذه الصراعات مباشرةً بصلب موضوع البحث – أقول إن مجمل المصادر التى اطلعت عليها تقول إن الصراعات تظهر فى مستويين:

١. المستوى العادى أو المنزلى، أى المشاكل البسيطة الفردية التى تنتج بشكلٍ يومى نتيجة للتعايش، وهو أمر يشمل المسيحيين والموريسكيين على السواء:

قضايا الجنايات، مشاجرات كلامية، تهديدات، صراع المصالح، تقسيم الأملاك، مقاومة توزيع الأعباء وإقرار العقوبات، الحدود بين القرى، العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج... إلخ.

٢. المستوى العام أو السياسى الاجتماعى؛ وهو يشمل معضلة أبعادها أكبر، يتواجه فيها الفريقان الإسبانى المسيحى، والإسبانى المسلم؛ وهذا الصراع بدوره له مظهران :

أ- المظهر السياسى ذو الطابع القومى أو الدولى أو المحلى: وأعنى بذلك محاولة التمرد التى قام بها الموريسكيون فى أورناتشوس وثافرا وتروخيو وقرى تلك المنطقة مثل كانياميرو وعاليه وبيافرانكا دى لوس باروس أو اتهام موريسكيى أورناتشوس بالاتصال بالأتراك أو بالمسلمين فى غرناطة وطُليطلة أو دعاوى مواطنى أورناتشوس باتحاد القرى المجاورة وتمردها[٢].

ب- المظهر الاجتماعى الدينى:

فى محيط إقليم إكستريمادورا حدث النزاع بين الجماعة الموريسكية فى أورناتشوس وبين عناصر مسيحية قديمة بعضها مقيم فى المنطقة، والبعض الآخر موجود بها بحكم وظيفته، وكان النزاع أحيانًا ضد مؤسسات معينة.

وسأتحدث بالتحديد الآن عن هذا الجانب الأخير. يعلم كل المتخصصين فى الدراسات الموريسكية أمر النزاع داخل أورناتشوس - وهو مجتمع كان مسالمًا وهادئًا حتى عام ١٥٨٥ - وخاصة بعد زيارة محاكم التفتيش عام ١٥٨٨ وحتى قُبيل لحظة طرد الموريسكيين، ولم يكن كفاح الموريسكيين ضد محاكم التفتيش وحدها؛ بل ضد القادة المحليين والقسيس ومؤجرى الأراضى الزراعية والشرطة... إلخ.

إن دراسة الموضوع بشكل شامل تتطلب تناول هذا الجانب فى ثلاث مراحل:

١- النزاع خلال ربع القرن الأخير من إقامة الموريسكيين فى إسبانيا(كيف نشأ الصراع، ما هى أسبابه، منْ هم الزعماء... إلخ).

٢- عملية الطرد وما سبقها من أحداث[٣].

٣- استمرارية المجموعة الموريسكية فى المنفى[٤].

والدراسة التى قمت بها تنحصر فى المرحلتين الأولى والثانية. وفى مؤتمر مونبلييه قدمت دراسة أولية عن النزاع فى طوره الأول[٥]. والآن يتعين تناول الموضوع بشكل تحليلى. إن أزمة موريسكيى أورناتشوس قد مرت بعدة مراحل. بدأت المرحلة الأولى بسلسلة من المنازعات القضائية بين البلدية وبينهم؛ وهو ما أدى إلى خلق جو عدائى وكراهية وأعمال انتقامية. أما المرحلة الثانية؛ فقد بدأت بنشاط محاكم التفتيش الفعَّال لكنه عاجز عن إظهار "الحقيقة"، وتطور الوضع بوصول القاضى مورينو دى موريدا عام١٦٠٦. كان هذا القاضى قد أُرسل للتحرى حول "ما إذا كان الموريسكيون يصنعون عملات مزيفة"، إلا أنه وسَّع مجال عمله من تلقاء نفسه ليشمل اتهام الموريسكيين " بالقتل وبالتعامل مع مسلمى إفريقيا". والمرحلة الثالثة والنهائية تبدأ عام ١٦٠٧ بنشاط السيد كوينكا قسيس المنطقة الذى اتخذ الإجراءات الرسمية إزاء تحريات مورينو دى موريدا. إن طلب القسيس من الملك هو الذى عجل بإرسال لوبيث ماديرا المتشدد إلى المنطقة وما أتبعه من عملية الطرد.

هذا الوصف العام الذى قدمناه يوضح لنا أهمية المصادر القضائية - غير الخاصة بمحاكم التفتيش- التى تفسر لنا الأحداث وتُثرى الرؤية الشاملة للموضوع.

المصادر والمنهج:

من بين هذه المصادر القضائية التى لم تُستعمل حتى الآن سأستعمل واحدًا منها يتعلق بالمرحلة الثانية فى طورها النهائى: " منازعة قضائية تتشكل من ٦١٠ ورقة استمرت منذ أبريل عام١٦٠٧حتى مارس عام١٦٠٩ بدأت إجراءاتها أمام

محكمة إيرينا Llerena أمام النائب العام بدرو دى بياريس أولا ثم أمام نائب مجلس الأوامر العسكرية فى مدريد فيما بعد. كان النزاع بين مجلس بلدية أورناتشوس كمدَّعِى والسيد كوينكا قسيس المنطقة كمدَّعَى عليه(٦)متهم بعدم تقديم القربان المقدس لهم.

تم قبول الادعاء ثم أُضيف إلى القضية اتهام جنائى آخر ضد المدعى عليه ألا وهو تحريض الشهود. أما القسيس فقد قدم من جانبه دعوى ضد مواطنيه يتهمهم بأن ما ذكروه ضده محض افتراء؛ وهو ما يقوض شرفه ويتعارض مع موقعه كمسيحى أصيل غيور على دينه. من هنا جاء حجم القضية، ومع ذلك فإن القضية ليست كاملة ؛ فقد ضاع جزء من أوراقها من جراء التنقل أو أُخفى هذا الجزء عمدًا: إننى أعنى هنا شهادة الشهود الذين أتى بهم السيد كوينكا.

لن أتعرض الآن لتحريات القاضى مورينو دى موريدا – وهى وثيقة قيمة تستحق دراسة منفصلة – والخاصة باتهام الموريسكيين بتصنيع عملات مزيفة؛ وهى جريمة ضد الدولة. إن هذا الاتهام يأتى ذكره هنا، لكن ليست له علاقة مباشرة بالقضية التى نتناولها.

يجب أن أقول فى النهاية إنه تم الإعلان عن انتهاء القضية إلا أنه لم تصدر أحكام: كان قد صدر قرار طرد الموريسكيين، وكانت إجراءات التنفيذ تسير على قدم وساق.

كان موريسكيو أورناتشوس على علم تام بخطورة القضية، والدليل على ذلك هو الحرص الذى ميز تحركهم. كانوا يعلمون أن رفض تقديم القربان المقدس لهم هو بمثابة رفض منحهم الوضع الاجتماعى المناسب لهم كمسيحيين أتقياء، وكان ذلك فى إسبانيا الموحدة دينيًا وسياسيًا أمرًا خطيرًا. علموا أن القضية ستفصل فى أمر"حياة وشرف المواطنين" و"نقاء عاداتهم"، ولهذا فقد دافعوا عن وضعهم

كمسيحيين مخلصين فهو أمر"لا ينزعه منهم أحد"(٧) كان ذلك هو المخرج الوحيد الذى تبقى لديهم إزاء محاولة تنصيرهم وطمس هويتهم.

إن الوثائق المستعملة هنا تكشف لنا عن موقفين متناقضين كل منهما يعمل ويناور ويتخذ المبادرات بشكل تلقائى دفاعًا عن مصالحه. إن هذه القضية تكشف عن طبيعة كل طرف من أطراف النزاع: طبيعة التشدد والتعصب، أو طبيعة المقاومة، وهى طبائع لم يكن من السهل التوفيق بينها.إن العوامل الدينية تتداخل هنا مع العوامل الاجتماعية والاقتصادية بحيث يصعب التعرف على العامل الأهم والعوامل الأقل أهمية. وعلى مدى القضية تظهر شخصيات أخرى لها مواقفها وحكمها على الأمور. إن هذا النوع من المصادر التى لدينا تمكننا من التوغل داخل أعماق الشخصيات المختلفة التى تنتمى إلى هذا الطرف أو ذاك.

القـــضيـــة

١ – الدافع والمقدمات وأطــراف الــنزاع:

فى أوائل شهر أبريل عام١٦٠٧، ربما خلال الأسبوع المقدس الذى يعترف فيه المسيحيون عادةً بذنوبهم، انتشرت شائعة فى أورناتشوس تقول إن "السيد كوينكا أعلن أنه لن يقدم القربان المقدس لمواطنى هذه المنطقة لأسباب لديه..."(٨).

هذا الأمر لم يكن مفاجأة؛ ففى نفس الوقت من العام السابق كان القسيس قد رفض تقديم القربان المقدس إلى المسيحيين الذين طلبوه واستعدوا له. وقد أدى ذلك القرار الذى اتخذه القسيس من جانب واحد إلى أن يتقدم لويس ثاباتا إيدالغو نيابةً عن القرية بطلب إلى النائب العام عن إيرينا، السيد/ بدرو بياريس؛ وهو المكلف قانونًا بمعالجة الوضع وإقرار العدل "إزاء هذا الاستغلال للسلطة". فى هذا الطلب قال إيدالغو إن ذلك الأمر "شىء جديد لم يحدث مطلقًا من قبل فى القرية"، وإنه لما كان القرار عامًّا فإنه ربما يؤدى إلى شائعات وفضائح وأضرار تؤذى منْ يُطبق

عليهم. وقد عرض كوينكا من جانبه الموضوع من وجهة نظر مختلفة، وتحدث عن "شعائر أجدادهم" و"عاداتهم السيئة"[٩].

وقال مقدم الدعوى إن القسيس قد أتى بذلك الفعل تحركه الرغبة فى النزاع، ولذلك فهو يطلب أن يتخلى القسيس عن موقفه، وأن يقدم القربان المقدس "بلا تأخير وبلا تفرقة بين الناس".

لم يتأخر رد فعل النائب العام، ففى نفس يوم تقديم الطلب أصدر أمرًا يقول فيه إنه استنادًا إلى مقتضى واجب طاعة القسيس له فإنه يأمره " من الآن فصاعدًا بتقديم القربان المقدس إلى كل منْ يطلبه من أبناء القرية"، وإنه إذا كانت لدى القسيس أسباب تمنعه من ذلك "فعليه الإعلان عن أسبابه خلال يوم واحد من علمه بهذا الأمر، وفى حالة عدم امتثاله للأمر فإنه سيتخذ ضده الإجراءات اللازمة وفقًا للقانون"[١٠].

لا نعلم ماذا حدث فى ذلك العام خلاف ما أوردنا. يبدو أن القسيس قد ردَّ على النائب العام، وأن مواطنى القرية قد وُعدوا بتغيير موقف القسيس، وأن الأمر قد ظل على نفس الحال حتى العام التالى.

قبل أن نواصل الحديث نظن أنه من المناسب أن نعلن عن شخصية أطراف النزاع، وأن نشير إلى بعض ملامحهم المميزة.

كانت الأغلبية الموريسكية فى أورناتشوس أهم التجمعات الموريسكية فى ذلك التاريخ، لا فى إكستريمادورا؛ بل فى قشتالة كلها وأندلوثيا، ولم يكن يعادلها فى الأهمية إلا ريكوتى وبايى فى مورثيا وسيرا دى إسبادان فى كاستيون بمملكة فالنسيا. لما تحول موريسكيو أورناتشوس إلى المسيحية – كشرط لبقائهم فى إسبانيا – كان لهم، بعد ثمانية قرون، وضع فيه تناقض إذ كانوا يحتفظون بجزء من التراث الثقافى الإسلامى العربى داخل إطار كاثوليكى يحيط بهم وهم يضطرون إلى قبوله. كان إيمانهم الإسلامى يجمعهم ويربطهم لكنهم كانوا يعلنون أنهم

مسيحيون أتقياء ورعايا مخلصون. كانوا يمارسون هذا الدور ببراعة فائقة وخاصة الطبقة الحاكمة منهم، وكان الشعب يلتف حولهم. وسنرى فيما بعد تلك الطبقة الحاكمة تتحرك فى القضية وتتخذ القرارات وتحدد الاتجاهات دائمًا باسم الشعب. لهذا السبب نجد أن القسيس كوينكا يتهم الطبقة الحاكمة بأنهم أعظم الناس ذنبًا لأنهم" يقودون الشعب ويدافعون عن القضية باسم الجميع"[١١]، ولهذا السبب أيضًا تعمل لجنة القاضى لوبيث ماديرا "ضد الطبقة الحاكمة"[١٢]، لهذا كله نتفهم أن يتحدث الناس عن أورناتشوس " كجمهورية لها رؤساء" أو عن "عالمية هذه القرية" مما جعل مواطنيها "أشخاصًا لهم حنكة فى التفاوض بحيث حصلوا ويحصلون دائمًا على مرادهم"[١٣].

معلوماتنا عن القسيس دييغو دى كوينكا ليست وفيرة، إذ لا نعرف عنه سوى أنه رجل دين وقسيس المنطقة. للأسف لم يُحتفظ بملفه الخاص بالالتحاق بجمعية سانتياغو، فذلك الملف كان من الممكن أن يُلقى الضوء على شخصيته وحياته الخاصة[١٤]. لدينا معلومات متفرقة عن حياته: منها أنه كان قسيسًا فى ممبريًا Membrilla بمحافظة قشتالة، وأنه كان ممنْ يقومون بالتفتيش داخل جماعة سانتياغو؛ لهذا نجده عام١٥٧٥ كمفتش فى أورناتشوس (هل هناك علاقة بين انطباعه عن القرية خلال تلك الزيارة وبين القضية التى رُفِعت فيما بعد ؟)[١٥]. بعد ذلك عمل قسيسًا فى قرى قريبة من أورناتشوس : ثارثا دى ألانخى، بيافرانكا دى لوس باروس. (إذن فقد كان يعرف القرية وما يحيط بها). لدينا كذلك معلومات عن إقامته فى دير سان ماركوس عام١٦٠٤، وهو نفس العام الذى وصل فيه إلى أورناتشوس[١٦]. وقد تدخل دون إذن فى عمل محاكم التفتيش فى إيرينا، مما أدى إلى أن تُوجه له رسالة احتجاج من قِبل نائب المحكمة[١٧]، وكانت له منازعات قضائية أخرى فى القرية وردت إشارات إليها فى ملف القضية التى نتعرض لها، منها نزاعه مع دييغو تيو عام ١٦٠٦ على نحو مائتى وبضع وخمسين ريالا [١٨]. ليست لدينا دلائل على وجود عيوب أخرى به غير تلك التى عُرِفت عن القساوسة

آنذاك[١٩]؛ بل نجده قسيسًا غيورًا مناهضًا لحرك الإصلاح غير متسامح[٢٠]يرفض في داخله أى طريقة أخرى للتفكير أو الاعتقاد[٢١] .إن دييغو دى كوينكا يمثل الجهود الأخيرة لتنصير مواطنيه، وقد ألزمهم بتغيير نمط حياتهم.

٢ – قرية أورناتشوس ترفع دعوى ضد القســيس.أســباب الــدعوى، وأســماء المدَّعين والاستجوابات:

لما انتشر نبأ رفض القسيس تقديم القربان المقدس ف ١٦ أبريل عام ١٦٠٧ اجتمع ممثلو العدالة وحُكام القرية ونائب الحاكم العام، وخمسة نواب دائمون، وقد فوَّضوا السيد/ ألبارو غونثاليث وكاتب الحكومة لوبى دى ثاياسفى تمثيلهم أمام المحاكم، وطلب أى شيء فى صالح القرية. وكانت محكمة الدرجة الأولى فى إيرينا.

وفى نص التفويض نجد رد الفعل الأول: " لأن ذلك فيه أذى وإضرار بشرف مواطنى هذه القرية"، ونجد أيضًا هدف إقامة الدعوى " هو ألا يعود القسيس المذكور إلى محاولته، وأن يُؤمر بالالتزام بتعاليم الكنيسة، وأن يقدم القربان المقدس للمواطنين كما تلقوه دائمًا"[٢٢].

كان أول عمل قام به لوبى دى ثاياس هو إعلام القسيس بالأمر الذى أصدره النائب العام فى السنة الماضية كمحاولة لحل المشكلة إلا أن القسيس أجاب قائلاً إنه سيرد الآن كما فعل فى العام الماضى[٢٣].

هناك دليل على أن إجابة القسيس كانت حاسمة؛ فقد أراد الزج بالقساوسة الآخرين فى المشكلة، وأمرهم بعدم إصدار صك اعتراف لأهالى المنطقة. لم يُطع كل القساوسة أمر كوينكا، فلم يكن أحدهم يريد إعطاء "ذريعة لكى يعود الناس إلى الشكوى"[٢٤].

كان رد فعل كوينكا المشاكس مختلفًا؛ ففى نفس اليوم الذى كان يتأهب لإلقاء الوعظ عندما أُمر بتقديم القربان المقدس" عاد وخلع زيه، ولم يلق خطبة الوعظ".

فى اليوم التالى تلقى أمرًا جديدًا بتقديم القربان المقدس لكنه لم يُطع الأمر. فى ذلك اليوم كان هناك كثير من الناس من الحكام والكتبة وغيرهم يطلبون القربان المقدس. فيما يلى رواية الكاتب العام إيرناندو بلانكو:

خرج القسيس وبدأ فى إلقاء الوعظ، بعد ذلك أدار وجهه للناس وطلب أشخاصًا بعينهم غرباء ليسوا من القرية وقدم لهم القربان المقدس، وعندما كان يصل إلى أحد أبناء القرية كان يتركه ولا يقدم له القربان المقدس. عندئذٍ قال له لوبى ثاياس – وكان جاثيًا على ركبتيه – "اسمع منى كلمة نيابةً عن القرية: إننى أطلب منك ألا تفرق بين الناس فى أمر القربان المقدس، وفيما يتعلق بالإهانة؛ فإننى سأشكوك إلى الملك سيدنا".

لم يؤثر ذلك فى القسيس "وتركه جاثيًا على ركبتيه وأهانه"(٢٥).

لم يكن هناك من مخرج للمشكلة سوى التقاضى. ولذلك فقد عيَّن كل طرف من أطراف النزاع محاميه ليمثله فى المحاكم. عيَّن القسيس كوينكا كلا من السيد/ ميغيل دى مينا والسيد/ فرانثيسكو دى بارغاس [فيما بعد سيشترك معهما أيضًا السيد/ لوكاس سواريث] أما أهالى أورناتشوس فقد عينوا كلاًّ من السادة خوان كالديرون وبدرو دياث دى ثاراتى وتوماس دى باليسانيو وإيرناندو غارثيا وأورتيث دى أغريدا وفيليبى دى ماتيننثو(٢٦).

وفى رده على سؤال حول عدم إطاعته الأوامر الصادرة بتقديم القربان المقدس قال القسيس:

- إن كل رواد الكنيسة من النواب والنساء وكلهم يتحدث اللغة العربية.
- كلهم يؤدى الشعائر والاحتفالات الخاصة بطائفة محمد.
- لا يؤدون تعاليم الله والكنيسة.
- لا يحضرون الوعظ فى أيام الأعياد.

- اعترافاتهم ليست حقيقية.

- ليسوا متدينين كمسيحيين، ولا يتبعون عادات الكنيسة المجيدة.

أى أنهم عرب مسلمون وليسوا كاثوليكيين، ولهذا فلا يمكن تقديم القربان المقدس لهم حتى يتغير موقفهم(٢٧).

وقد رد لوبى دى ثاياس على كل ما سبق بقوله:

- إن كل مواطنى أورناتشوس مؤمنون وكاثوليكيون معمدون، وأنهم منذ تعميدهم يتلقون القربان المقدس من القساوسة بما فيهم القسيس الحالى.

- إن محافظتهم على تعاليم الدين المسيحى قد جعلت الملك فيليبى الثانى يساويهم فى الإنعام بالمسيحيين القدامى.

- لقد عاشوا وماتوا كمسيحيين ولا يستثنى من ذلك سوى الذين ماتوا فجأة.

- والدليل على كونهم مسيحيين أتقياء هو أنهم كونوا جمعيات مسيحية.

- وهم يرفضون الشعائر والاحتفالات التى تُنسب إلى طائفة محمد، ولو أنهم كانوا مسلمين لاكتشفت محاكم التفتيش ذلك ولعاقبتهم.

- إن بعض الأطعمة التى يتناولونها يُعزى تناولهم لها لمسألة التذوق، وهناك كثيرون يتناولون هذه الأطعمة ومن بينهم القسيس نفسه.

- إن عيد العصير عام فى جميع أرجاء المملكة.

- إن كل الاتهامات مرجعها عداء القسيس كوينكا لهم طبقًا لمصالحه الخاصة.

لكل ذلك فهم يطالبون بأن يقدم القسيس القربان المقدس لهم(٢٨).

هناك تعديلات كثيرة وردود ثم ردود على الردود، وقد قرر القاضى – بعد سماع دعاوى الطرفين – أن يقدم القسيس كوينكا القربان المقدس لكل من يطلبه(٢٩).

علم القسيس بالقرار، وحضر إلى الكنيسة عدد كبير من أهالى أورناتشوس؛ لكنه رفض تقديم القربان المقدس لهم[٣٠] واشترط أن يغيروا موقفهم علانية، وقال "إنه لا يكفى أن يكون الإنسان مسيحيًا بالتعميد لكى يتلقى القربان المقدس، واتهمهم باستعمال اللغة العربية وعدم أكل لحم الخنزير، وعدم شرب الخمر، وممارسة عادات المسلمين أجدادهم، وأن مسلكهم ذلك إنما هو استغلال لقوانين المملكة، واتهم الطبقة الحاكمة والأثرياء بالدفاع عن كل الأهالى، وأن هؤلاء الوجهاء لو تخلوا عن الدين الإسلامى ومارسوا الدين المسيحى كما ينبغى لاتبعتهم عامة الشعب كما تتبعهم الآن"[٣١].

اشترط خوان كالديرون – باسم أهالى أورناتشوس – أن يلتزم القسيس بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه؛ بل وإعلان تمرد القسيس على الكنيسة، واتهم القسيس بعدم الحيطة مع أن المفترض فيه أن يكون قدوة للناس، وأن يسلك مسلك المسيح مع يهوذا، وأن يصلح الناس باللين والكلام الطيب. وبدأ خوان كالديرون فى شرح العادات والشعائر التى يُقال إنها إسلامية وبيَّن أنها ليست كذلك، وأن أحدًا لا يستطيع أن ينفى أن أهل أورناتشوس مسيحيون مخلصون[٣٢]. وهكذا لم يكن هناك بُد من طلب الأدلة.

٣ – طلب الأدلة واستجواب الشهـــود:

أشرت إلى استجواب أطراف النزاع ولخصت مضمونه. اجتمع الأهالى واختاروا أربعة أعضاء "للإجابة على الأسئلة التى يطرحها القسيس"[٣٣].

أعرب أطراف النزاع عن تحفظاتهم تجاه شهادات الشهود، وهذا يدل على وجود جو من الشكوك وعدم الثقة فى مصادر الأخبار. وهكذا بينما كان القسيس يتهم الكتبة الشرعيين بالقرية كان يطلب من النائب العام تفويضًا باختيار كتبة آخرين[٣٤]. أما المجلس البلدى من جانبه فقد طلب رد شهادة كل الكتبة الشرعيين الموجودين فى الدائرة المحيطة بأورناتشوس[٣٥].

كان القسيس يرفض تنفيذ الأوامر ويطلب شهادة المسيحيين القدامى المقيمين بالقرية، أما أهالى أورناتشوس فكانوا يطلبون أن يذهب شهود القسيس إلى الملك، وأن يقوم جلالته شخصيًّا باستجوابهم. كان هناك منْ يريدون التواجد لدى قيام الشهود بحلف اليمين، وكان القسيس يطلب أن تكون الأيام الأولى فى الاستجواب له، وتُخصص الأيام الأخرى للطرف الآخر، وكان هناك منْ يطلب مد الفترة القانونية...إلخ(٣٦).

وقد عين النائب العام لإيرينا – بعد موافقة أطراف القضية – عين بدرو ماتيوس قسيس ماغيا وعضو محاكم التفتيش للاستماع إلى شهادة الشهود(٣٧).

بعد وصول بدرو ماتيوس إلى القرية كان كوينكا هو أول منْ قدم شهودًا وتم الاستماع إلى شهاداتهم فى الفترة بين ٣٠ أبريل و ٧ مايو.

كان عدد الشهود عشرين، كلهم من أورناتشوس عدا واحد مقيم فى إيرينا وخياط برتغالى مقيم فى أيرينا أيضًا واسمه أمارو غونثاليث(٣٨). ما لم يتوقعه القسيس هو أن يشهد الشهود بطريقة مخالفة للمراد من الأسئلة التى طرحها. قال الشهود:

- إن أهالى أورناتشوس يتحدثون القشتالية، ولا يتحدثون العربية إلا كمسيحيين قدامى.
- من حيث الشعائر رأى الشهود العكس تمامًا؛ فهم يأكلون الخنزير ويشربون الخمر.
- إن حصاد العنب وأعياده تتم عند نضج المحصول كما يحدث فى القرى الأخرى.
- إن الأهالى يذهبون إلى الكنيسة عادةً إلا إذا كانوا فى الخارج.
- إن الشهود رأوا الأهالى وهم يطلبون القربان المقدس.

إن من بين أهالى أورناتشوس هناك بعض رجال الدين المسيحى.

وفى ١٤ مايو أخبر بدرو ماتيوس النائب العام أنه قد أتم استجواب شهود القسيس، استمر استجواب شهود مجلس البلدية من٧ مايو حتى أوائل يوليه ١٦٠٧، ويُعزى طول فترة الاستجوابات إلى كثرة عدد الشهود، وإلى رد شهادة بعضهم من قِبل القسيس، وقد أمر القاضى أن يتم استجواب كل الشهود من قبل بدرو ماتيوس[٤١].

كان عدد شهود المجلس ثلاثة وأربعين شخصًا منهم مسيحية قديمة وقسيس[٤١] شهدوا جميعًا فى صالح المجلس، وقد أكّد كريستوبال دى سالثيدو أنه وفد إلى القرية وعمره عامان، أى تربى مع أهالى أورناتشوس[٤٢].

ويبدو أن كوينكا قد شعر بأن شهادة الشهود لن تكون فى صالحه فطلب الإطلاع على استجوابات مورينو دى موريدا خلال العام الماضى[٤٣]وبالفعل تم نقل نص الاستجوابات، وكانت تكاليف استخراج النصوص مرتفعة، وكان القسيس قد أنفق على القضية كل مدخراته، فطلب من جمعيته الدينية مبلغ أربعمائة ريال، وهكذا تمكن من استخراج المعلومات التى أرادها، وهو أمر سيمكنه من الانتصار فى النهاية كما سنرى فيما بعد[٤٤].

٤- رد الشهود. دعاوى ومعلومات أخرى:

تم الإعلان عن شهادة الشهود فى ٢٧ يوليه ١٦٠٧ . كانت المدة المحددة لرفض شهادة الشهود - إذا توافرت أسباب ذلك - هى ستة أيام، ولهذا فقد تقدم القسيس فى ١ أغسطس برفض كل الشهود: شهود البلدية، وشهوده هو شخصيا.

قال عن شهود البلدية إنهم فقراء ومستأجرون، وأنهم مدينون لأصحاب القرية، ولذلك فإنهم أدلوا بشهاداتهم على ذلك النحو بدافع الخوف، وقال عن الشهود الوافدين من خارج القرية إنهم أعداء له، وهناك منازعات معهم، وإنهم يحبون أهالى أورناتشوس.

وقال عن شهوده الذين قدمهم هو شخصيا إن بعضهم من الفقراء ويعيشون بفضل معاملاتهم مع أهالى أورناتشوس.

نتيجة لكل ما تقدم طلب القسيس شهودًا آخرين يُدلون بشهاداتهم أمام النائب العام "حتى يقولوا الحقيقة بحرية، وحتى لا يتعاملوا مع آخرين دفعًا للشبهات". فى ذلك الوقت قدم استجوابات مورينو دى موريدا(٤٥)التى أشرنا إليها.

قال خوان كالديرون عن الإجراء الذى اتخذه القسيس كوينكا إنه " ينم عن سوء نية". لقد رفض شهادة الشهود أمام الكاتب الشرعى، لا أمام القاضى، فى وقت لا يسمح بإعلان الطرف الآخر به لكى يرد عليه. وقال عن استجوابات مورينو دى موريدا إنها لاغية لأسباب عديدة منها أنها تتعلق بواقعة مختلفة، وأشاد بشهود أهالى أورناتشوس؛ فقال عنهم إنهم "أهل صدق وشُرفاء وأصحاب صيت ورأى بعضهم قساوسة، وبعضهم محامون ومعظمهم مسيحيون قدماء وكلهم قال الحقيقة دون هوى" لكل ذلك فلا يمكن رد شهاداتهم ؛ بل يجب رفض طلب القسيس"(٤٦).

سافر كوينكا إلى العاصمة لإبلاغ جلالة الملك والسادة أعضاء المجالس بتطورات القضية مما شغله عن تقديم ردود، ولهذا فقد طلب فيما بعد من النائب العام العودة إلى النقطة التى كانت القضية قد وصلت إليها قبل سفره(٤٧). عارض الطرف الآخر كل ذلك، وقال إن ذلك المطلب مرفوض إذ ليس له أساس(٤٨).

يُضاف إلى ما سبق تبادل الاتهامات بين الطرفين، وقد قدم خوان كالديرون اتهامًا جنائيا ضد القسيس.

فقد وردت أنباء صحيحة إلى أهالى أورناتشوس أنه – أى كوينكا – يحاول أن تتناقض أقوال الشهود، وأن يشهدوا بشىء يخالف ما هو مسجل ... إنه بهذا المسلك الضال يحاول توجيه الشهود لصالحه.

لذلك فإن المتهم – كوينكا – قد ارتكب جريمةً تستحق العقاب، والمطلوب هو التحرى عن ذلك، وفى حالة ثبوت التهمة يجب اعتقاله ومحاكمته بحزم(٤٩).

في مواجهة ذلك ؛ قدم كوينكا من جانبه اتهامًا جنائيًا ضد أهالي أورناتشوس لأنهم لا يخافون الله ولا يراعون شرفي وتديني وغيرتي على المسيحية التي تجعلني أواصل القضية، وقد كذبوا وقالوا إنني قدمت رشوة للشهود وطلبت منهم أن يكذِّبوا ما قالوه سابقًا من أن أهالي أورناتشوس مسيحيون مخلصون.

ولهذا فقد طلب الاستماع إلى شهوده مرةً أخرى لكن النائب العام رفض الطلب، ولما ألح القسيس في طلبه أمر النائب العام بتنفيذ قراره[٥٠].

واستجابة لشكوى المجلس؛ فقد فوض بدرو دي بياريس السيد/ خوان ديلغادو في الذهاب إلى أورناتشوس للتعرف على شهود المجلس والاستماع إليهم حتى يمكن إقرار العدل...[٥١].

في يوم ١٣ سبتمبر وصل خوان ديلغادو إلى أورناتشوس وطلب الاستماع إلى الشهود، وبين يومي ١٥ و٢٢ سبتمبر استمع إلى أربعة شهود كلهم أكدوا واقعة الرشوة التي عُرضت عليهم[٥٢].

فيما يلي جزء من شهادة لاثارو خيل:

ذات يوم استدعى كوينكا هذا الشاهد، ولما سأل الشاهد منْ أرسلهم كوينكا إليه عن مرادهم قالوا إن كوينكا قد جُن ولابد من علاجه من الجنون ... ولما ذهب إليه سأله عن شهادته فقال إنه شهد الحق. قال كوينكا إن بقية الشهود يقولون إن الكاتب الشرعي هو الذي كتب ما هو مسجل في المحكمة، وإن الشاهد بإمكانه التنصل مما هو مسجل، فقال الشاهد إنه قال الحقيقة ولن يغيرها لا لإرضائه ولا لإرضاء غيره. فحاول كوينكا استمالته وعرض عليه تصويره[*] فأبى الشاهد كذلك

(*) أي أن يكلف أحدًا بأن يرسم له صورة، وكانت تكاليف رسم الصور آنذاك مرتفعة للغاية. (المترجم)

فقال كوينكا إنه سيُعلن أنه ارتد عن الكنيسة وسيجعله ينفق كل ثروته لمعالجة ذلك(*). وقال الشاهد إنه يعلم أن كوينكا فعل نفس الشيء مع الآخرين(٥٣).

أراد المجلس توسيع نطاق الشهود والاستماع إلى شهادة رهبان ثالاميا (**) فطلب الإذن بذلك، وجاء فى التصريح بالاستجابة لطلبهم أنهم "ممنْ يقدمون هبات كثيرة إلى دير سان إلديفونسو" على حد تعبير جوان دى بارغاس"(٥٤).

وبناء على طلب لويس ثاباتا ؛ فقد شهد ستة رهبان فى ثالاميا بأن أهالى أورناتشوس مسيحيون أتقياء. هؤلاء الستة هم فيليبى غونثاليث، ألونسو أمادور، خوان روميرو، كريستوبال دى باث، سيباستيان دى الغارو، وبدرو دى ثالاميا(٥٥).

مر الوقت، وكان النائب العام قد منح القسيس كوينكا مهلة أخرى مدتها أربعين يومًا لتقديم شهود. لم يتقدم الشهود الأصليين للإدلاء بأقوالهم "لأنهم خارج القرية" فقدم شاهدين جديدين أحدهما من إيبرا والثانى من أثواغا(٥٦) لكن شهادتيهما غير موجودتين فى ملف القضية(٥٧).

منذ تلك اللحظة تمثل هدف محامى أهالى أورناتشوس فى إصدار الحكم فى القضية(٥٨). أما الطرف الآخر – كوينكا – فكان يسعى إلى إطالة أمد القضية "نظرًا لأهميتها الاستثنائية ولإجلاء الحقيقة"، ولما فشل فى الحصول على ذلك من النائب العام فإنه طلب إذنًا ملكيا بذلك. وقد حصل على الإذن فى ١٨ أكتوبر عام١٦٠٧.

ورغبةً منه فى حسم القضية؛ أصدر النائب العام قرارًا فى ٧ نوفمبر يقول:

(*) نفهم من قضية كوسمى بن عامر الواردة فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" أن اتهاما بالردة عن المسيحية كان يكلف المتهم ثروة طائلة، بين نفقات التقاضى ودفع تكلفة السجن والحراس. انظر الكتاب المذكور، تأليف غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١)

(**) قرية ثالاميا هى التى تقع فيها أحداث مسرحية "عمدة ثالاميا" الشهيرة، والتى انتقم فيها العمدة لشرفه من ضابط إسبانى. الجدير بالذكر أن لوبى دى بيغا كتب هذه المسرحية، ثم أعاد صياغتها كالديرون دى لا باركا. (المترجم)

بعد الإطلاع على ملف القضية، ولما كانت مدة الاستماع إلى الشهود قد بلغت ثمانين يومًا ثم مُدت أربعين يومًا أخرى ثم ثلاثين... ولأن من العدل أن تكون هناك نهايات للقضايا وألا تكون القضايا بلا نهاية؛ فإننى آمر بأن ينتهى السيد كوينكا من تقديم شهوده خلال ثمانية أيام، وأن يتمكن أى طرف من الاستماع إلى الاستجوابات"[٦٠].

وهذا القرار أكده فيما بعد السيد بياريس بعد مرور عشرين يومًا - لا ثمانية - على القرار الأول.

كان القسيس كوينكا يريد فرصةً غير محددة المدة؛ لهذا فقد قدم استئنافًا ضد القرارين اللذين أصدرهما النائب العام، وطلب إلغاء الآثار المترتبة عليهما[٦١]. لم يكن أمام كوينكا حل آخر؛ فقد كان على وشك أن يخسر القضية.

٥ - كوينكا يستأنف: القضية تُحجز للحكم:

كان القسيس فى وضع خطير بعد صدور قرار النائب العام فى ٢٣ نوفمبر١٦٠٧ الذى يقضى بأن يمثل أمامه كوينكا فى اليوم التالى للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الجنائية التى قدمها مواطنو أورناتشوس، وفى حالة عدم تنفيذ ذلك فإنه سيُعلن تمرده على الكنيسة، ولهذا فقد طلب القسيس إلغاء القرار، وطالب بأن يتولى أحد رجال النيابة الدفاع عنه فى القضية.

وبالفعل فى ١٣ يوليه؛ كان القسيس قد طلب ذلك فى رسالة وجهها إلى رئيس محكمة الاستئناف.

لقد دفعتنى الغيرة على الدين إلى توجيه الأهالى إلى أداء العبادة بحيث لا تشوبها شعائرهم القديمة التى ورثوها عن أجدادهم والتى يحتفظون بها منذ مائة عام. ولأننى لم أستطع أبدًا إبعادهم عن عاداتهم الممنوعة، كما أشرت فى رسالة وجَّهتها إلى سمو الأمير وإلى الملك سيدنا، ولأن هذه القضية الخطيرة لا يجب أن يصدر الحكم فيها النائب العام فإننى أرى أن قضية بهذا الشكل لا يجب أن يُصدر

الحكم فيها إلا سمو الأمير، ولهذا أرجو أن يطلب سمو الأمير من النائب العام إرسال ملف القضية إليه (٦٣).

وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ قال القسيس إنه لما كانت شهادة الشهود الذين قدمتهم تدين أحد خدم النائب العام ويُدعى بدرو ماتيوس، فإن تلك الشهادات لا يجب أن يطلع عليها النائب العام(٦٤)، وطلب أن تُحال الوثائق إلى الملك.

اعترض أهالى أورناتشوس على ذلك، وقال ممثلهم بدرو دياث دى ثاراتى إن على المحكمة أن تفصل فى القضية أولا ثم يستأنف الحكم منْ يشاء أمام سمو الأمير (٦٥).

بعد إلحاح كوينكا، وتعلله باحتياجه إلى المال، ولذلك يطلب أن يتولى الدفاع عنه أحد رجال النيابة إذ أن القضية لا تخصه وحده(٦٦)، قررت محكمة الاستئناف:

أن تختص هى بنظر القضية، وأن يُرسل إليها ملف القضية، وأن يقدم القسيس القربان المقدس للمواطنين الذين ثبت أنهم اعترفوا أمام قسيسين مجازين، وأن يتولى السيد إنريكى تقدير تكاليف القضية التى دفعها كوينكا من ماله الخاص لكى يسترد هذا المال. التاريخ ١٩ ديسمبر ١٦٠٧ (٦٧).

استطاع كوينكا إذن أن يذهب بالقضية إلى العاصمة، وكان ذلك هو انتقامه. لن يستطيع أحد القبض عليه وإيداعه السجن، ولن يهدده أحد بإعلان تمرده على الكنيسة، ولن يخسر القضية. لسنا متأكدين من أن كوينكا قد نفَّذ الأمر السابق بشكل حرفى. منذ تلك اللحظة غيم ضباب كثيف على القضية. لن تُجدى شكوى الأهالى مع أنهم أهل علم وأصحاب ضمير ورأى ...(٦٨).

فى عام ١٦٠٨ كانت القضية قد تحولت إلى شيء ماضٍ، ففى نفس العام شب نزاع مدنى بين نفس القسيس والسيد/ دييغو ثيو، وكان من بين ما قاله كوينكا فى القضية إنه... قد رفض تقديم القربان المقدس لأهالى أورناتشوس، ولهذا فهم لا يحبونه...(٦٩).

نستطيع أن نحدد تكاليف القضية التى دفعها كوينكا استنادًا إلى المذكرة التى تقدم بها لكى يسترد ما دفعه ؛ لكننا لن نفعل ذلك منعًا للإطالة. الوثيقة لا تخلو من أهمية، إذ تقدم لنا فكرة عن نشاط كوينكا والتحريات التى لا تظهر كلها فى ملفات القضية.

حتى أبريل عام ١٦٠٨ لم تكن القضية قد نُظرت أمام محكمة الاستئناف استنادًا إلى الشهادة التالية:

استلمت أنا/ لوكاس غوتيريث دى المينارا، مدعى محاكم التفتيش، من ألونسو غارثيا دى لا ثورى كاتب محكمة إيرينا ملف قضية بين السيد/ دييغو كوينكا... يتكون ملف القضية من ٦١٠ ورقة، وقد استلمت الملف لاستخراج أقوال منه. تحريرًا فى ١٦ أبريل ١٦٠٨ [٧٠] .

اتهام بتزييف العملات، اتهام بعدم تقديم القربان المقدس، اتهام بارتكاب جرائم ومحاولة إثبات ذلك بناء على طلب القسيس فى القضية التى عرضتها [٧١]. تجمعت المصائب فوق رؤوس موريسكيى أورناتشوس بسبب دسائس شخص واحد اسمه دييغو دى كوينكا.

بعد مرور عام على تحويل القضية إلى مدريد أصدر نائب محكمة الاستئناف القرار التالى:

بعد الإطلاع على الملفات، وبناء على طلب القسيس نطلب الاطلاع على استجوابات مورينو دى موريدا ... [٧٢].

إذن فقد عاد تقرير مورينو دى موريدا ليكون هو الكلام النهائى فى الأمر. سأعود إلى ذلك الموضوع فى مناسبة أخرى.

أُبلغ قرار نائب محكمة الاستئناف فى ٧ مارس عام ١٦٠٩ ولم يُفعل شىء فى الأمر [٧٣].

كانت القضية جاهزة للحكم، وكانت عملية طرد الموريسكيين تسير على قدم وساق.

الهوامش

١- انظر كتاب:

Aranda Doncel: *Demografía morisca en tierra de Cordoba: analisis y valoración de las fuentes* (1569-1610)

"وفى عام ١٥٩٤ باع مواطن من إشبيلية إلى مواطن من بداخوث لمـرأة موريسـكية اسمها كاتالينا ...وباع معها أيضاً فتاة هى ابنة كاتالينـا المـذكورة... والـثمن مائـة وخمسون دوقية" انظر:

Badajoz. AH.P.Leg. 127, fol.322.

٢- عالجت الناحيتين فى دراسات سابقة، والقضية الحالية تشير إلى الجانب الأخير هل هى أسطورة أم حقيقة؟ فى هذا المؤتمر نفسه يجرى ماركيث بيانوبيا أول تقيـيم للمشـكلة التاريخية فى بحثه بعنوان " أسطورة المؤامرة ".

٣- على المستوى المحلى أعتقد أن مجموعة أورناتشوس قد دخلت تاريخ الأدب وذلك من خلال "كوميديا موريسكيى أورناتشوس" التى تحكى الأحداث التى سبقت عملية الطـرد ثم الطرد والتى أنوى نشرها قريبًا.

٤- حول هذه الاستمرارية كتب كل من غوثالبيس بوستو وخيل غريماو وفيكيه

٥- انظر:

l enfrentamiento entre moriscos y cristianos viejos. El caso de Hornachos ı Extremadura, en Table – Ronde Internationale sur "Les Morisques et eur temps", ed. L. Cardaillac.

وهو تحت الطبع حاليًا.

٦- انظر:

AHN.OO.Militares. Archivo judicial. Santiago.Pleito nº 6381

والوثيقة تتضمن ٦١٠ ورقة موزعة على ثلاث كراسات. الأولى والثانية ٢١٤، ٣١٧ ورقة وبها معلومات مورينو دى موريدا .

أود أن أشكر هنا السيدة كونثبثيون دى لا فوينتى المسئولة عن القسم لمساعدتها لى فى العثور على الوثيقة فيما بعد سأشير إلى الوثيقة بالرمز التالى :

Cuad 1º, IIº , IIIº Dec. Suelta

٧- Cuad I, fols. 22-23

٨- المصدر السابق، ص١

٩- المصدر السابق، صفحات ١، ٣-٤ ، ١٢-١٣

١٠- المصدر السابق، ص ٣ ، ٤ ، ٥ Llerena, 22 marzo 1606

١١- المصدر السابق، ص ١٩-٢٠

١٢- Doc. Suelta. Carta de Felipe Matienzo, a marzo 1609

١٣- Cuad III, fol. 2 v.

١٤- انظر:

Javier Mur, A.L. Perez Castaneda:

Pruebas para ingreso de religiosos en la Orden de Santiago.

١٥- أشرت إلى هذه المشكلة في:

Los libro de Visitas: fuente para el estudio de las encaminadas de Ordenes Militares. La de Hornachos en 15-75, en Historia Moderna. *Actas de las II Jornadas de Metodogia y Didáctica de la Historia.* Universidad de Extremadura. Servicio de Publicaciones. (aceres 1983,pp. 341-364

١٦- AHN.OO. Militares. Santiago 1409.

١٧- Ibid, Inquisición, leg. 1988 exp. 10

١٨- A.D.B. Priorato de Llerena, leg. 894 no 30716 Hornachos, 1608.

١٩- أشار إلى قساوسة إكستريمادورا كل من:

Teston Núñez – Santillana Pérez : El clero cacereño durante los siglos XVI al XVII en Historia Moderna. Actas …pp.463-472.

٢٠- حول نموذج القسيس راجع:

Meersseman Il tipo ideale di parroco secondo la riforma tridentina nelle sue fonti letterarie , en il concilio di trento e la Riforma tridentina. Roma 1965.

حول الكنيسة والإصلاحات راجع:

Llorca: La reforma disciplinar de la iglesia y el concilio de Trento en Razón y Fe (1945).

عن الكنيسة وتنصير الموريسكيين راجع :

Historia de la Iglesia en España III BAC, Madrid 1979-80.

٢١- Cuad I, fols. 22-23 v.

٢٢- المصدر السابق ص١. أورناتشوس في ٦ أبريل ١٦٠٧ ليست لدينا للأسف أعمال

مؤتمر الأساقفة والتى أشار إلى أهميتها كابريانا ثيسار فى محاضرته.

٢٣- Cuad.I, fol 4. Hernachos 7 abril 1607

٢٤- Ibid fols.5-6 Hornachos y Llerena 8 y 11 abril

٢٥- Ibid fols. 6-7 y 11-12 Llerena 10 abril y Hornachos 11 y 12.

٢٦- Ibid fols. 8

٢٧- Ibid fols. 9, 9v, 47 – 48v.

انظر كذلك الوثيقة الأولى فى الملحق.

٢٨- Ibid fols. 12-13v.

٢٩- Cuad I, fols. 14-15

٣٠- Ibid fols. 16

٣١- Ibid fols. 19-20v.

٣٢- Ibid fols. 22-23v.

٣٣- Ibid fols. 50.

٣٤- Ibid fols. 21v. y 37-37v.

٣٥- Ibid fols. 28 y 32

٣٦- Ibid fols. 21, 24v. 51-52v.

٣٧- Ibid fols. 49-49v.

٣٨- Ibid fols. 53-109

٣٩- Ibid fols. 60v – 65

٤٠- Cuad. I.fols 35, 46-46v.

٤١- Ibid fols. 116-211

٤٢- Ibid fols. 116-121

٤٣- Ibid fols. 39.

٤٤- Doc. Suelta Madrid 18 julio 1607

٤٥- Cuad III. Fols 1-2v.

٤٦- Ibid fols. 4-5v y 10-12

٤٧- Ibid fols. 18

٤٨- Ibid III. Fols. 9-9v.

٤٩- Cuad.I. fols. 2-2v.

٥٠- Doc. Suelta. Llerena 6 September 1607

٥١- Ibid Lerena 12 septiembre 1607

٥٢- Ibis 13 y 22 septiembre

٥٣- Ibis Zarza de Alange 13 septiembre 1607

٥٤- Cuad.I, fols.113-114 CuadIII, fols 31,51-53 y 57-57v

٥٥- Cuad.III, fols. 54-74.

٥٦- Ibid III fols 32-32v.

٥٧- Ibid III. Fol. 35.

٥٨- Ibid III, fols. 33 y 34.

٥٩- Doc. Suelta.

٦٠- Cuad. II. Fol. 38v.

٦١- Ibid III, fols. 40-41v. y 42

٦٢- Doc. Suelta Llerena 23 noviembre y Madrid 10 diciembre

٦٣- Ibid Madrid 13 julio 1607

٦٤- قبل ذلك قد أشار إلى صداقته للمجلس " بدرو ماتيوس المذكور صديق حميم لهـؤلاء وعادةً ما يتواجد معهم ويأكل، معهم إنه سيفشي الأسرار قبل موعدها."
Caud.III. fols.29/29v.

٦٥- Doc. Suelta

٦٦- Ibid Madrid 10 y 17 diciembre

٦٧- Ibid Madrid 19 diciembre 1607

٦٨- Cuad. III. Fols. 75-75v

٦٩- A.B.D. Priorato de Llerena. Leg. 894 nº 30716

٧٠- A.B.D. Priorato de Lerena leg. 894.

٧١- Doc. Suelta.

٧٢- Doc. Suelta Madrid 7 marzo 1609

٧٣- Ibid.

ملحق وثائقي

استجوابات

الأول*

أسئلة يُجيب عنها الشهود الذين يقدمهم السيد/ دييغو دى كونيكا ... قسيس قرية أورناتشوس فى نزاعه ضد مجلس وأهالى القرية بسبب رفضه تقديم القربان المقدس لهم.

١	أولاً هل يعرفون كلاً من لويس ديل باركو، البارو دى ألاركون، دييغو دى بيالوبس وفرانثيسكو كوردوبيس ونواب القرية الآخرين الذين يمثلهم البارو غونثاليث ولوبى دى ثاياس، وما مدى علمهم بالقضية وعلمهم بالقانون؟
٢	هل يعلمون أن الأشخاص المذكورين سابقًا وأهالى القرية بصفة عامة يتحدثون فيما بينهم باللغة العربية بحيث لا يفهمهم المسيحيون، وأن النساء بصفة خاصة يتحدثن بالعربية، وأنهن – لذلك – أشد انغلاقًا، وأنهن لا يستطعن فهم ما يقوله القسيس، وأن اللغة العربية – لكل ذلك – عقبة فى سبيل إنقاذ أرواحهم كما أنها تؤذى المسيحيين القدامى الذين يعيشون بينهم؟
٣	هل يعلمون أن النواب المذكورين وأهالى القرية عامةً لا يأكلون لحم الخنزير، ولا ما شابهه، ولا يشربون الخمر، وأنهم يكرهونهما لدرجة أنه لم يحدث أن أحدًا منهم ربَّى خنزيرًا فى بيته أو قام يذبح خنزير، ولا أعدّ

*- A.H.N.OO.Militares . Archivo Judicial. Santiago. Pleito nº. 6381 fols. 47-480.

	خمرًا رغم أنهم لديهم مزارع العنب؟
٤	هل يعلمون أن أهالى القرية يتناولون فى أول أيام العام الجديد طعامًا اسمه غرانون عبارة عن حبات قمح مسلوق باللبن، وأن هذا الطعام عام لدرجة أن كل بيت يجب أن يتناوله حتى لو كان أهله فقراء؟
٥	هل يعلمون أن أهالى القرية يحتفلون بعيد العصير فى شهر سبتمبر، ويذهب الرجال والنساء راكبين الخيول إلى حيث مزارع العنب ويمكثون هناك عشرين يومًا لا يستمعون إلى وعظ، وأن هذه الحفلات تشبه حفلات اليهود، وهل يُبرمون عقود الزواج خلال هذه الاحتفالات؟
٦	هل يعلمون أن أهالى القرية يتحدثون اللغة العربية الممنوعة، وأنهم – هكذا – يحتفظون بدين أجدادهم المكتوب باللغة العربية، كما أنهم يحتفظون بهذا الدين بعدم شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير فى بيوتهم، وأن المحيطين بأهالى القرية يرتابون فى عاداتهم؟
٧	هل يعلمون أن أهالى القرية لا يحافظون على تعاليم الكنيسة التى تقضى بسماع الوعظ فى أيام الأعياد، وأنهم – وعددهم أكثر من ألفين وخمسمائة – لا يذهب منهم إلى الكنيسة سوى ثلاثمائة، وأن منْ يذهب إلى الكنيسة فى يوم لا يذهب فى اليوم التالى ويمكثون فى بيوتهم بحيث لا يذهب منهم إلى الكنيسة سوى العُشر؟
٨	هل يعلمون أنهم لا يذهبون إلى سماع الوعظ، وأنهم لا يحترمون الأعياد فيعملون فى الحقول أو يمكثون فى بيوتهم لصناعة بعض الأدوات الفخارية؟
٩	هل يعلمون أن اعترافات أهالى أورناتشوس ليست حقيقية، وأنهم مواظبون على عاداتهم العربية القديمة وشعائرهم المذكورة، وأنهم يموتون عليها ولا يطلبون القربان المقدس لا فى حياتهم ولا عند مماتهم، وأنهم لا يتبعون عادات الكنيسة الحميدة؛ إذ لو أن اعترافاتهم صادقة

	لكانوا قد غيروا عاداتهم؟	
١٠	هل يعلمون أن أهالى القرية لا يحافظون على تعاليم الله والكنيسة من طلب الغفران حيث لم يطلب ذلك منهم إلا عدد قليل لا يتجاوز المائتين، وأنهم لا يطلبون القربان المقدس فى وقت الحاجة (النساء الحوامل والمرضى)؟	
١١	هل يعلمون أن أهالى القرية يموتون دون أن يطلبوا القربان المقدس، وأنهم قد حُذروا وعوتبوا على ذلك حيث إنه يمثل احتقارًا للقربان المقدس؟	
١٢	هل يعلمون أن أهالى القرية ليسوا متدينين؛ ففى خلال الأسبوع لا تذهب امرأة واحدة منهم للصلاة فى الكنيسة إلا إذا كان هناك تعميد أو حالة وفاة، وأن الرجال الذين يفعلون ذلك قليلون، اثنان أو ثلاثة معروفون، وأنهم بصفة عامة لا يطلبون صلاة الغفران على الموتى إلا بالقوة، وأنهم لا يخصون الكنيسة بشيء فى وصاياهم، وأنهم عند وفاة أحدهم لا يُقيمون شعائر المسيحيين القدامى، ولا يوقدون الشموع، ولا يستدعون القسيس ولا يحضر وفاتهم أحد من المسيحيين القدامى؟	
١٣	هل يعلمون أن هناك عادة ذميمة فى القرية وهى ألا تذهب البنات إلى الكنيسة إلا بعد الزواج، وألا تذهب الأرامل إلى الكنيسة إلا بعد أن يتزوجن ثانيةً، وكذلك الأمر بالنسبة للرجال؟	
١٤	هل يعلمون أن الأهالى – بعدم إطاعتهم لأوامر الكنيسة الحميدة – قد سببوا اشمئزاز أهل القرى المجاور لدرجة أن المملكة كلها تعلم ذلك، وأن القسيس قد عنَّفهم لذلك مرات عديدة، وأنهم وعدوا بتغيير موقفهم لكنهم لم يتغيروا؟	
١٥	هل يعلمون أن كل ما سبق معروف فى القرية وفى النواحى الأخرى؟.	

الثانى*

أسئلة يجيب عنها الشهود الذين قدمهم مجلس بلدية أورناتشوس

في نزاعه مع القسيس كوينكا بسبب امتناعه عن تقديم القربان المقدس للأهالى

١	ما معرفتهم بالقضية وأطراف النزاع؟
٢	هل يعلمون أن كل أهالى القرية أتقياء، وأن منهم مسيحيين كــاثوليكيين، وأنهم منذ تعميدهم أصبحوا كالمسيحيين القدامى، وأن القسيسين – ومــنهم كوينكا – قد قدموا لهم القربان المقدس، وقد شاهدوا ذلك وسمعوا به مــن الكبار، وأن الكبار قد سمعوا بذلك من الأجداد؟
٣	هل يعلمون أن الأهالى يحافظون على أوامر الكنيسة، وأن جلالة الملــك الكاثوليكى فيليبى الثانى إزاء ذلــك قــد قــدم لهــم الرعايــة والحمايــة كالمسيحيين القدامى، وهل يعلم الشهود أن الأهالى لم يمارســوا مُطلقًــا شعائر طائفة محمد، وأنه لو حدث ذلك لعلمت محاكم التفتيش به؟
٤	هل يعلمون أن الأهالى جميعًا قد عاشوا وماتوا كمســيحيين كــاثوليكيين، وقد تلقوا القربان المقدس، وقد حضرهم عند الوفاة رجال ديــن مســيحى بناءً على طلبهم، وأنهم يوصون قبــل وفــاتهم بإقامــة صــلوات علــى أرواحهم، وأن القسيس كوينكا يتلقى أربع ريالات مقابل كل وعــظ، وأن الشهود يعلمون أن منْ مات من أهالى أورناتشوس دون أن يحضره رجل دين مسيحى فإن ذلك سببه أن الوفاة كانت فجائية أو بسبب الطاعون الذى جعل رجال الدين يعزفون عن الذهاب إلى القرية لتقديم القربان المقدس؟
٥	هل يعلمون أن أهالى القرية عادةً يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمــر، وأنه إذا كان البعض منهم لا يفعل ذلك فهذا سببه مسألة تذوق لا لســبب

*Q.N.OO.Militares.Archivo Judicial .Santiago Pleito nº 6831 fols. 113-114.

	آخر. أما أكل الغرينون فلأنه غذاء أهل القرية بما فيهم المسيحيون القدماء والقسيس كوينكا نفسه، أما احتفالات العصير فهى تستمر ثمانية أيام لجنى العنب، ويعلم الشهود أن هذه الاحتفالات ليست شعائر سيئة بل هي عامة في كل أرجاء المملكة؟
٦	هل يعلمون أن السيد كوينكا كان دائمًا خصمًا لأهالى القرية بسبب مصالحه الخاصة، وأنه يكرههم، وأنه لا يقوم بواجبه ولا يقدم لهم القربان المقدس، وأنه يحب المنازعات؟
	إضافات*
١	هل يعلمون أن أهالى القرية لديهم جمعية دينية أعضاؤها أربعمائة شخص، وأنهم يتوجهون إليها ويوقدون الشموع، وأنهم يقيمون صلاةً بها كل شهر، وأنهم يدفعون صدقة لقسيس القرية؟
٢	هل يعلمون أن أهالى القرية لهم جمعية دينية أخرى أعضاؤها أربعمائة شخص آخرين، وأنه عند موت أحد الإخوة فإنهم يدفنونه ومعه شمعة الجمعية والصليب، وأنه عندما يموت أحد الفقراء فإنهم يدفنونه كما لو كان عضوًا بالجمعية، وأنهم يقيمون صلاةً على أرواح الموتى يوم الأحد الأول من كل شهر؟
٣	وهل يعلمون أن أهل القرية لهم جمعية دينية ثالثة أعضاؤها كثيرون يقيمون صلوات على أرواح الموتى بعناية خدمةً لله وحرصًا على إنقاذ أرواحهم، وأن كل ذلك معلوم في القرية؟

*- A.HN.OO.Militares.Archivo Judicial . Santiago.Pleito nº 6831. Cuad.III fols. 57-570

تصريح للرهبان الفرنسيسكان فى محافظة سان ميغيل
بالشهـــادة فى القضية
أصـــدره الراهـــب خوان دى بارغاس
بلاسنثيا فى ٢٦ سبتمبر ١٦٠٧ *

الراهب خوان دى بارغاس المندوب الإقليمى لجمعية سان فرانثيسكو

إلى كل رجال الدين لهم السلام والصحة...

طلب منى أهالى أورناتشوس دعمًا للعدل أن أمنح تصريحًا لمنْ يرغبون من الرهبان ويرون أن بإمكانهم الإجابة على الأسئلة التى قدموها.

لهذا – وأنا أضع فى الاعتبار الصدقات التى يقدمها أهل القرية إلى دير سان إلديفونسو ولأن مطلبهم عادل – أعطى الإذن لهم بحلف اليمين والشهادة بما يعلمون أمام أى كاتب شرعى.

كُتِبَ فى دير سان فرانثيسكو دى بلاسنثيا فى ٢٦ سبتمبر ١٦٠٧

أوقع باسمى وأختم بخاتمى.

---

* AHN. OO.Militares. Archivo judicial.Santiago Pleito no 6831 Cuad.III.fol. 50.

أسطورة المؤامرة الموريسكية الكبرى

فرانثيسكو ماركيث بيانوييا

لم تتحرر المشكلة التأريخية الموريسكية من معالجات تغذيها حملة الدعاية التى قادها ومولها دوق ليرما إثر قرار الطرد[١]، وبالتالى فإنه لا يكاد يوجد كتاب يتعرض للموريسكيين إلا ويذكر أنهم كانوا متآمرين وجواسيس وحلفاء طبيعيين لكل أعداء إسبانيا الخارجيين؛ وعليه فإنهم يمثلون تهديدًا وخطرًا مميتًا. وربما لا يكاد يوجد جانب آخر فى القضية الموريسكية أكثر حاجة إلى مراجعة موضوعية من هذا الجانب.

ويبدو أن تحليل ظروف القهر التى تعرض لها الموريسكيون يكفى لإقناعنا بأنهم قدموا رد الفعل الأكثر حسمًا بالنسبة لهم، وأنه لم يكن أمامهم إلا تلك التصرفات المريبة. وقد كان رد فعل بعض الموريسكيين على هذا النحو. لكن الدراسات المتأنية تتيح لنا رؤية مختلفة للتآمر الذى اتهموا به عام ١٦٠٩والذى يُشار إليه فى الدراسات التاريخية الحديثة أيضاً.

هناك صعوبات مبدئية لتوثيق اتفاقيات تعتمد أساسًا على الكتمان. وفى معظم الأحوال لا توجد طريقة محددة لتقدير القوة الفعلية التى كان يتمتع بها بعض الأفراد أو القيادات ولا لكشف افتراءات بعض المسيحيين ولا لجو الحيطة والحذر الذى كان يدعو إلى تصديق تلك الأسطورة[٢]. وفى الوقت نفسه من الملاحظ أن تلك "المؤامرات" لم يكن لها نتائج فعلية بالرغم من الفرص المتاحة على مدى سنوات عديدة من المعارك الخارجية المستمرة. إن المشكلة لها أبعاد واضحة إلى حدٍ ما. كان هناك بالفعل نشاط تآمرى، لكن ذلك لا يعنى إطلاقًا أن كل موريسكى كان خائناً، ولا يعنى أن إسبانيا فى عام ١٦٠٩ كانت معرضة لتهديد واضح[٣] بسبب تواجد الموريسكيين بها.

ولكى نفهم الموضوع فهمًا صحيحًا علينا أن نضع فى الاعتبار أن مسلمى إسبانيا الذين كانوا يعيشون فى ممالك مسيحية كانوا على حياد تام، وكانوا متصلين بالسلطات الشرعية اتصالا وثيقًا. هذا الموقف التقليدى جعل من مملكة غرناطة إحدى البقاع الهادئة فى إسبانيا إبان حرب الجماعات[٤]، وهذا ما أكده الموريسكيون دوماً، وقد عانى الموريسكيون فى إقليم فالنسيا من المصادمات، ومن التعميد الإجبارى الذى فرضته الجماعات Comunidadesالتى كانت تهدف إلى حرمان النبلاء من قاعدتهم الاقتصادية. وقد اندلعت ثورة جبال إسبادان عام ١٥٢٦ لمجرد أن أدان كارلوس الخامس ذلك النوع من التعميد الإجبارى. وقد اتضح أن فقدان الحرية الدينية هو أهم قضية تشغل بال الموريسكيين. إن اللجوء إلى السلاح أو إلى التآمر مع أطراف خارجية كان يمثل بالنسبة لهم رد فعل على نقض إسبانيا المسيحية العهود المقطوعة معهم والتى كانت توفر لهم الحرية الدينية.

كان للموريسكيين صلات روحية مع العالم الإسلامى الذى لم يكن يفصلهم عنه إلا بضعة أميال فى بحر يسهل عبوره. كانت شواطئ البحر المتوسط يجمعها أسلوب حياة مماثل تعززه الهجرة الأندلسية المتواصلة إلى شمال إفريقيا منذ القرن الثالث عشر. كانت هناك علاقات مختلفة فى إطار الجيرة منذ السنوات الأولى لغزو غرناطة[٥] لكن هذه العلاقات تطورت وتدهورت فى حوض البحر المتوسط خلال حكم كارلوس الخامس وخاصة منذ عام ١٥٣٠. كان هناك إنزال بحرى وهجرات وعمليات قرصنة متعددة لكنها لم تكن سوى مضايقات خفت حدتها فى عهد فيليبى الثانى الذى أحسن تنظيم الدفاعات البحرية[٦] لكن فى هذه الفترة أيضاً زادت حدة المواجهة مع الأتراك الذين وصلوا حتى الجزائر، وهنا بدأت إمكانية حدوث تآمر الموريسكيين.

وخلال عصر إسبانيا الإسلامية لعب التضامن الإسلامى دورًا بارزًا، وكان ذلك التضامن يؤكد حقًا فى الحصول على أى نوع من المساعدة غير المشروطة من قبل القوى الإسلامية المزدهرة. وقد استفادت ممالك الطوائف ومملكة بنى نصر

من المؤسسة الإسلامية التى تُدعى "الغُزاة" الذين يحاربون فى جماعة ضد المسيحيين[٧]، وبعد القضاء على دولة بنى مرين كان من الطبيعى أن تتحول أنظار الموريسكيين إلى الأتراك، وهذه علاقة توثقها قصيدة غرناطية كتبت فى أوائل القرن السادس عشر ونشرها ج.ث. مونرو[٨]. إنها قصيدة[*] تملؤها الرغبة فى تأكيد إسلام الموريسكيين والاحتجاج على خداعهم والتأكيد على أن الإيمان محفوظ فى القلوب. إن مؤلف القصيدة المجهول تؤرقه فكرة إدعاء السلطات الإسبانية أن تحول المسلمين إلى المسيحية كان طواعيةً. كان أهل غرناطة مسلمين جديرين بالتعاطف، وقد استنجدوا بالأتراك. كان ذلك أمرًا منتظرًا، أما غير المنتظر فهو أن يتزامن مع المساعدة نشاط دبلوماسى وتهديد بالانتقام من المسيحيين فى القدس واحتجاج لدى البابا[٩].إن المسلم مؤلف القصيدة لا يطلب مساعدة عسكرية داخل شبه الجزيرة. وقد ظل السلطان التركى أملا يراود أحلام بعض الموريسكيين، وفى عام ١٦٠٩كان ثوار مويلا دى كورتيس قد فقدوا الأمل فى مساعدة الأتراك، وكانوا ينتظرون معجزة تتمثل فى عودة الخليفة الفاطمى على حصانة الأخضر[١٠].

زادت احتمالات حدوث هجوم تركى يسانده الموريسكيون خلال حرب غرناطة (٦٨ – ١٥٧٠) فى ظروف دولية لم تكن مواتية بالنسبة لفيليبى الثانى، وكانت تلك السنوات تمثل أوج القوة العثمانية فى البحر المتوسط، ومن العجيب أننا لا نكاد نعرف شيئًا عن هذا الجانب فى الثورة الموريسكية. إن وجود أو عدم وجود مشاركة تركية فى النزاع يشكل نقصًا ملحوظًا فى الدراسات المتعلقة بالموضوع.

البيانات الموثوق بها قليلة . كان هناك بلا شك طلب مساعدة من قبل الموريسكيين، وقد قال فرج بن فرج الموريسكى إنه تلقى وعودًا بالمساعدة من جنوفا وشمال إفريقيا والسلطان العثمانى[١١]، وقد علمت السلطات الغرناطية بالخطة

(*) القصيدة موجودة فى كتاب أزهار الرياض للمقرى، وقد أعدنا نشرها فى ترجمتنا لكتاب "الموريسكيون الأندلسيون"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١. (المترجم)

عندما ضبطت رسالة بعث بها قائد موريسكى إلى ملك الشرق "دون رد من شمال إفريقيا سوى الوعود وهى وعود مبهمة"[١٣].

إن مبدأ التضامن الإسلامى هو أساس الرسالة التى كتبها الموريسكيون إلى العشالى ملك الجزائر كما يحدثنا بيريث دى إيتا: "إن محمدًا العظيم يأمر صراحة فى شريعته أن المسلمين المحتاجين إلى معونة تجب مساعدتهم من قِبل المسلمين الآخرين، خاصة أثناء الحروب ضد المسيحيين"[١٤]. ويقول المؤلف نفسه إن سليم الثانى كتب رسالة إلى العشالى يأمره فيها بإرسال مائتى جندى وألا يلتزم بشىء آخر إلى حين تتضح رؤية أبعاد حرب الموريسكيين. ويقدم لنا بيريث دى إيتا وصول القوة الصغيرة إلى إسبانيا فى فبراير عام١٥٦٩على أنها دفعة معنوية للموريسكيين. إن الأتراك وقادتهم يمثلون شخصيات مهمة فى كتاب بيريث دى إيتا: إنهم شجعان لكن بحساب ولا يتعاطفون تعاطفًا مطلقًا مع الموريسكيين. وعندما ينهزم الموريسكيون يذهبون إلى المنفى أما الأتراك فيغادرون إسبانيا بموجب اتفاق خاص مع خوان دى أوستريا. إن الأتراك أنفسهم يقتلون الملك ابن أمية فى إطار مشكلة عاطفية[١٥]. ولقد رأى دييغو أورتادو دى ميندوثا فى مقتل ابن أمية عرضًا للسلطة وعيوبها: "كانت البداية غضب الأتراك"[١٦].

ورغم أنه كانت هناك إرساليات أخرى فإن مشاركة الأتراك والجزائريين لم تكن سوى مشاركة رمزية. كان المقاتلون الأتراك بمثابة خبراء ومستشارين موزعين بين المليشيات الموريسكية لتدريبها على نظام الجيوش التقليدية، وكان بعض هؤلاء الأتراك مرتزقة يتقاضون أجورًا عالية، وكان البعض الآخر يذهب إلى إسبانيا ضمن فرق المغازى. ولقد سمحت الجزائر بالتجارة الحرة مع الحبقى، ذلك المحاور الرائع، إلا أنه من المفاجئ أن نرى بخل السلطات الجزائرية عند الإمداد بالسلاح وهو الذى كان يحتاجه الموريسكيون. إن المشكلة تكمن إذن فى معرفة الأسباب التى جعلت العثمانيين يضيِّعون فرصة سانحة.

وقد أبرز براوديل[١٧] مشاركة الأتراك فى حرب غرناطة ورسم صورة لعمليات تجسس دقيقة شملت كل أنحاء إسبانيا وقام بها عمال نقل البضائع، ويعبِّر براوديل عن اقتناعه – غير المبنى على دليل – بأن الأتراك ساعدوا فى التخطيط للقيام بالثورة لكنه يعترف بأن مساعدة الأتراك للغرناطيين كانت عديمة القيمة.

لكن براوديل كان أكثر توفيقًا حين تناول حرب غرناطة من وجهة نظر الاستراتيجية التركية فى البحر المتوسط[١٨] وهنا يصل إلى نتائج تختلف عن النتائج التى توصل إليها قبل ذلك. لم تزد مساعدة العشالى – والى الأتراك على الجزائر – عن إرسال بعض الأسلحة بعضها بيعًا والبعض الآخر تبرع به الشعب وجمع فى المسجد[١٩]، ولابد أنه كان يعمل تحت أوامر مشددة بألا يخاطر فى سبيل الموريسكيين إذ أن المخاطرة قد تترتب عليها نتائج لم يستعد لها ولكنه قد استفاد من الظروف لكى يستولى على حصن إسبانى فى تونس فى يناير عام ١٥٧٠. كان ذلك أهم النتائج الدولية لحرب غرناطة، فالاستيلاء على الحصن لم يكن ممكنًا لو لم تنتقل القوات الإسبانية الموجودة فى صقلية إلى داخل شبه الجزيرة.

تتبع دراسة براوديل السياسة العثمانية، ولقد فاجأت حرب غرناطة السياسة العثمانية إذ كانت تركيا تخوض حروبًا فى روسيا والبحر الأحمر، وفى عام ١٥٧٠ جرت استعدادات عظيمة لإرسال الأسطول إلى إسبانيا لنجدة الموريسكيين لكن تلك المهمة كانت عسيرة إلى أقصى حد إذ كانت تتطلب التواجد خلال الشتاء فى ميناء قريب [كانت فترة العمليات البحرية قصيرة جدًا: من شهر مايو إلى شهر أكتوبر] وقد طلب العثمانيون من حلفائهم الفرنسيين استعمال ميناء طولون، وكانت هناك دعاية كبيرة لهذا الإجراء توحى بأن الأمر يتعلق بأهداف أخرى. كان الأمر يتعلق بالسيطرة على قبرص وعدم لفت انتباه فينيسيا. والحقيقة أن مساعدة موريسكيى غرناطة لم تكن ممكنة بل إن الموريسكيين هم الذين قدموا أفضل مساعدة لأهداف تركيا. ويتساءل برادويل "هل فكر الأتراك بجدية فى نجدة الموريسكيين؟".

هذه النتائج تؤكدها الوثائق التركية التى نشرها أ.س هيس فى دراسته الحديثة(٢٠). وهى عبارة عن اتصالات القسطنطينية مع والى الجزائر والتى تعبر فيها عن اهتمام السلطان التركى بثورة مسلمى إسبانيا، وهناك رسالة أخرى إلى الموريسكيين. حدث كل ذلك فى أبريل عام ١٥٧٠وهو رد فعل متأخر ويدل على معرفة هامشية بحقيقة الوضع فى غرناطة، مما يتعارض مع القول بوجود طابور خامس للأتراك فى إسبانيا. والرسالة الموجهة إلى الموريسكيين تشرح لهم الأسباب القوية التى أدت إلى الهجوم على قبرص والتى منعت تقديم مساعدة قوية لمسلمى الأندلس. ولقد ظل ثوار غرناطة على أعتاب الباب العالى ولم يكن لديهم سوى وعود غير مؤكدة بتقديم أسلحة، ولابد أن إحباط الموريسكيين تجاه السلطان التركى كان مُرًّا، وقد دعاهم السلطان إلى ثورة جديدة عام١٥٧٤(٢١) تتفق مع مخططاته، لكنها لم تلق من الموريسكيين أدنى استجابة.

لما كان الأمر يتعلق بموضوع قيد البحث؛ فإنه يكفى إلقاء الضوء على جانب التآمر عند الموريسكيين. إن القوة الإسلامية الكبرى قد تعاملت مع الموريسكيين ببرود وتركتهم لمصيرهم، وذلك خدمةً لمصالحها التى تتمثل فى التوسع لا فى التضامن الدينى، وهنا يتضح أن الموريسكيين لم يمثلوا قوة عاطفية تحرك العالم الإسلامى رغم أنهم مارسوا "التقية" عامًا بعد عام وجيلاً بعد جيل، ويبدو أن مخاوف شاعر غرناطة المجهول قد بدأت تتحقق، وقد نُظر إلى الموريسكيين على أنهم مسلمون من الدرجة الثانية أو الثالثة وكشعب وضيع، وقد علم فى ذلك الوقت أن سفارةَ شقيق ابن أميه السيد لويس دى بالور قد عوملت بفتور فى القسطنطينية(٢٢). وهناك أخبار مبهمة عام ١٦٠١تقول إن الأتراك لم يثقوا فى ثورة الموريسكيين، وإنهم عاملوا بجفاء ذلك الرسول الذى حمل إليهم الفكرة(٢٣). كل ذلك كان معلومًا لكل منْ يريد المعرفة، ولقد تحدث الراهب خايمى بليدا عن قلة احترام الأتراك للموريسكيين، إذ كانوا يفضلون التعامل مع ممثلين لدول قوية(٢٤).

كان التفاهم بين الموريسكيين والأتراك تكتنفه الصعوبات ؛ فكان هناك خلاف، ولم تكن هناك معرفة متبادلة ولا سابقة لهذا التفاهم. نعلم من كتب دييغو أورتادو دى ميندوثا وبيريث دى إيتا ومارمول أن المستشارين العسكريين الأتراك كانوا دائمًا ينصحون بالحذر والانسحاب، وكل ذلك كان ضد طبيعة أهل غرناطة التى تحبذ البطولة الفردية. وكانت مملكة بنى نصر إبان احتضارها قد حاولت إرساء علاقات مع مصر المملوكية خلال أعوام ١٣٦٤، ١٤٤١، ١٤٨٢، ١٤٦٤[٢٥]، لكن فكرة التضامن الإسلامى لم يكن لها أثر عبر المسافات الطويلة وهو نفس ما حدث عام١٥٦٨. ويجب ألا يغيب عن الأنظار هنا النزاع بين الأتراك والمغاربة وهو ما دفع الأسرة الحاكمة المغربية – وهم من أهل البيت النبوى – إلى التحالف مع فيليبى الثانى[٢٦].

لقد ذهب سدى كل ما فعله الموريسكيون من تمجيد لسليمان العظيم وتلقيبه بأنه أملهم الوحيد وتهنئته بفشل كارلوس الخامس فى حملة الجزائر عام ١٥٤١[٢٧].لا يجب أن يدهشنا إذن أن يصل الموريسكيون إلى حد المواجهة مع الأتراك كما حدث عام ١٥٥٠ عندما اشترك الموريسكيون اللاجئون فى الجزائر إلى جانب سلطان المغرب[٢٨]. إن صلف الأتراك لم يكن يقبل حتى مفهوم الحليف؛ فالباب العالى لم يكن يقبل إلا العبودية المطلقة. ومن الطبيعى أن يحتج الموريسكيون الغرناطيون على ذلك، ومن هنا نفهم تحذيرات كارديناس من الثمن الباهظ الذى سيدفعونه مقابل المساعدة:

هل ستكونون أحرارًا بذلك؟ ليست هناك إمبراطورية أكثر قسوةً من الإمبراطورية التركية حيث يسمن السلطان من غذاء رعيته. ستقولون إنه يتبع شريعة النبى. هو كذلك اسمًا، لكنه لا يتبع سوى قانون شهيته ولتشهد إفريقيا السجينة بذلك ومعها مائة ألف عربى من رعايا إسبانيا الذين هربوا من عبودية الأتراك. إذن من الأسوأ لكم أن تكونوا منتصرين[٢٩].

إن المراسلات التى درسها كل من براوديل[٣٠] وهيس تؤكد كيف أن الموريسكيين كانوا يعبرون عن اكتفائهم الذاتى من الأفراد ويطلبون الأسلحة والتنسيق الاستراتيجى. كانت كراهية الإسبان لفتح الأبواب أمام غزوات خارجية لأراضيهم وراء الحديث عن تآمر الموريسكيين، وكانت فكرة التضامن الإسلامى واشتراك المتطوعين المسلمين مع أهل غرناطة[٣١] ماثلة للعيان.

كان الموريسكيون متمسكين بفكرة التضامن الإسلامى، لكنهم كانوا يصطدمون بأنانية العثمانيين الذين تشغلهم قضية الدولة[٣٢]. كان الموريسكيون يجهلون أن فكرة التضامن الإسلامى مضى زمنها. كانوا يفترضون أن سياسة الأتراك إنما هى لصالح الإسلام ومناهضة لسياسة ملوك إسبانيا الكاثوليكية. كان الخطأ فيهم هو رؤية السلطان التركى كما لو كان فيليبى الثانى.

كانت فكرة الغزو الإسلامى كافية لبعث الكراهية الفطرية، وكان الغزو يمثل الكارثة المطلقة التى تغذيها التنبؤات والأساطير التى تتحدث عن ضياعٍ ثانٍ لإسبانيا. كان هناك إلى حدٍ ما تصديق للحديث عن تآمر الموريسكيين مع الأتراك الذين قد يهبطون من السماء فى أى يوم. ولقد عاش الناس فى إشبيلية خلال يوم من شهر يونيه عام١٥٨٠ساعات عصيبة عند إشاعة أن الموريسكيين الموجودين بجوارهم قد قاموا بثورة[٣٣] بالتعاون مع الأتراك. ومن ناحية أخرى كان الموريسكيون يتخوفون من خطة تهدف إلى القضاء عليهم[٣٤]. وكانت هناك خطة بالفعل لذلك، لكنها كانت فى وجدان قطاع من المسيحيين المتعصبين.

ومع ذلك فلم تكن الأمور على ذلك النحو من التشاؤم وسوء الظن من قِبل العامة، فقد أخبر شخص يُدعى أورتادو، أخبر الملك فيليبى الثانى عام ١٥٦٤أن الشائعات التى تتحدث عن الاستعدادات للثورة فى غرناطة هى إشاعات يروِّجها المسئولون عن الفساد والفوضى التى يشكو منها الموريسكيون[٣٥]. وعند بداية حرب غرناطة أجرى فيليبى الثانى تقييمًا للوضع الخارجى ظن البعض أنه متفائل لكن ذلك التقييم ثبت فيما بعد أنه كان صحيحًا: كان الأتراك مشغولين فى حروب

أخرى، ولم تكن المساعدة الآتية من الجزائر سهلة ولا ذات جدوى[٣٦]. وقد أصبحت إمكانية التدخل العسكرى معدومة تمامًا بعد معركة ليبانتو، ولهذا فقد تخلى الملك عن فكرة توطين الغرناطيين فى قشتالة، وهى مهمة كانت تشغله قبل ذلك[٣٧]. وفى عام ١٥٧٥كتب نائب مستشار أراغون يقول إنه بدون ميناء قريب وملاجئ تصبح مهمة الأتراك مستحيلة التحقيق، وأضاف أنه يخشى أكثر من مغامرات الموريسكيين[٣٨]. بعد ذلك بعامين انتهى مجلس الدولة إلى أنه من غير المحتمل من الناحية الفنية أن يقوم الأتراك بغزو إسبانيا بالتعاون مع الموريسكيين[٣٩]. ولقد انتهى الخطر تمامًا بعد توقيع الهدنة بين الإسبان والأتراك عام ١٥٨١وما أعقب ذلك من اتفاقيات. ولم تكن المخاوف فى الفترة بين ٨٩- ١٥٩١ مبنيةً إلا على شائعات من الجانبين[٤٠]. وقد ازدادت الاتهامات بالتجسس لحساب المسلمين مع اقتراب عام ١٦٠٩ فى وثائق وكتابات رسمية. وقد سبق قرار الطرد الحديث المدروس عن غزو إسلامى[٤١].

والدليل الأكبر على شعور الموريسكيين بالإحباط تجاه الأتراك هو اتجاههم نحو فرنسا اعتبارًا من عام ١٥٧٠، وقد انتقل هذا الاتجاه من الغرناطيين إلى أهل أراغون. إن الوعود المتبادلة المقطوعة عام١٥٧٥ لم ينفذ منها شيء، إذ بدأ الفرنسيون فى اشتراط أن يدفع الموريسكيون مبلغًا كبيرًا من المال[٤٢]. وبرغم الشائعات المستمرة عن التجسس لحساب فرنسا فإن الغزو الصغير عام ١٥٩٢والذى وُعِدَ فيه أنطونيو بيريث بالمساعدة من قِبل الموريسكيين لم يلق صدى يُذكر[٤٣].

لابد أن نصل إلى القرن السابع عشر حتى نجد الموريسكيين وقد فقدوا الأمل وعلى استعداد للتآمر لأقصى درجة مع إنريكى الرابع. كانت تلك السنوات ذات طابع تآمرى متأجج تخلت فيها الجيوش عن دورها لصالح الجواسيس وقامت خلالها إسبانيا أيضًا بمحاولة تقسيم فرنسا إلى ست ممالك مستقلة وذلك بتشجيعها لبعض النبلاء المنشقين، ورغم أن إنريكى الرابع نفسه التقى بمبعوثين موريسكيين

فإن التآمر نُسِبَ إلى دوق دى لافورس وكان صديقًا حميمًا للملك الفرنسى ومدبرًا سياسيا رائعًا. ولأول مرة تقدم وثائق ذلك الدوق أساسًا صلبًا لدراسة إحدى المؤامرات الموريسكية الأكثر خطورةً، وفى عام ١٦٠٢أعلن موريسكى من سيغوربى – ويُدعى حامدى مشرف – أنه من رعايا جلالة ملك فرنسا إنريكى الرابع باسم أهل فالنسيا وعلى وعد بأن يدخل أهل غرناطة فى الاتفاقية فيما بعد[٤٤]. وقد أعلن المبعوث الموريسكى ولاء المدجنين المعروف عنهم وأنهم سيمنحون ذلك الولاء لملك فرنسا نظرًا لأن إسبانيا تغتصب حقوقهم، ووعد مشرف بالثورة والاستيلاء على فالنسيا – كل ذلك مقابل بعض الأسلحة وقليل من الخبراء فى فنون القتال ولكنه أعلن أيضًا – وهذا أمر عجيب – اتفاقه مع منْ يدينون بدين موسى ومع المسيحيين القدامى الذين يعترضون على الاستبداد. كان الموريسكيون حينذاك قوة جذب تجمع حولها كل الساخطين على الملكية المستبدة وعلى محاكم التفتيش.

وقد أجرى الدوق مباحثات مطولة مع ممثلين آخرين للجماعات الموريسكية، وأرسل مندوبين عنه إلى إسبانيا لدراسة الوضع على الطبيعة، وقد أدهش الدوق أن يجد كميات كبيرة من الأموال لدى الموريسكيين، وأن تكون مطالب هؤلاء متواضعة ورأى أن الموريسكيين أذكياء لكن المشروع كان من وجهة نظره مستحيل التحقيق بسبب عدم القدرة على التنظيم والإجماع اللازمين للنجاح. كانت خطة إنريكى الرابع هى استخدام الموريسكيين لإحداث تمرد داخلى فى نفس وقت هجومه على الحدود الإسبانية.

كان التآمر يمثل جانبًا من جوانب حياة الموريسكيين، لكنه لا يمثل كل الجوانب كما حاول البعض أن يصور. إن ما أُشيع عن تآمر الموريسكيين لا علاقة له بواقع الأحداث. لقد استُخدم التآمر كدعاية ضد الموريسكيين، وغنى عن الذكر أن أنصار عملية طرد الموريسكيين قد طوروا تلك الدعاية، وأن أثنار كاردونا قد صاغ ذلك فى قالب روائى[٤٥]. ورغم أن فيليبى الثانى كان يُدرك تمامًا صعوبة

الغزو التركى لإسبانيا فإنه كان يتحدث عن ذلك الأمر لإثارة حمية سلطات الأقاليم أو الحصول على تبرعات من النواب[٤٦]. إن الرسالة التى تحدث فيها نبلاء فالنسيا عن عملية الطرد تتناول تلك العملية كإجراء إضطرارى فى مواجهة عملية غزو قريبة[٤٧].

كان هناك حينئذٍ قطاع لا يتأثر بالدعاية ويرفض وجهة النظر الرسمية التى تتحدث عن خطر موريسكى، وقد خصص فونسيكا المتشدد فصلا للرد على منْ يقولون إن الموريسكيين غير مسلحين ومحاطون بالمسيحيين، وإن المسلمين لا يستطيعون مساعدتهم. يقول فونسيكا إن ذلك لا يقلل من خطر الموريسكيين لأن معهم أسلحة وفيهم زعماء "وهم ليسوا ضعفاء ولا عديمى الذكاء كما يقول البعض؛ بل إنهم يعرفون أمور الدولة وكيفية تصريفها خاصة أهل غرناطة وأراغون وقشتالة"[٤٨].

وبالإضافة إلى ما تقدم كان هناك أشخاص يحكمون ببراعة فائقة على قضية تآمر الموريسكيين. إن مذكرة مانويل بونثى دى ليون فى ٢٢ أغسطس١٦٠٩ ترفض تمامًا الحجج التى جاءت فى قرار الطرد والمتعلقة بالتآمر والمسئولية الجماعية عن ذلك. إذا كان البعض قد اتصل بالمسلمين وبالمتمردين من أهل فالنسيا فليعاقب ذلك البعض وليُترك الباقى يعيش فى هدوء:

ورغم أن الميل مذموم فى المجرمين إلا أنه لا يصح الاعتقاد بأن كل الناس قد اشتركت فيه... وكما يحدث عادة فى أمور الثورات هناك عدد قليل فقط هو الذى يتحرك، وهناك الكثيرون يتبعونهم، والكل يصمت أمام الأحداث، إما لمتابعة الأخبار الجديدة أو بالعنف أو خوفًا...

قد يثير حفيظة الرعية، وقد يثير الأقاليم المجاورة، وسيشعر الناس الذين لم يشتركوا فى المؤامرة بظلم لا يُغتفر وقع عليهم[٤٩].

وفى مواجهة أسطورة التآمر؛ كان ضمن الموريسكيين مجموعة قرَّرت عدم المشاركة، انتهى فيهم مفهوم العصبية الذى نسبه ابن خلدون إلى الإسلام الأندلسى(٥٠). كان فيليبى الثانى يجهل ذلك الأمر الواضح، ولهذا ظن أن حرب غرناطة قد تنتقل إلى أماكن أخرى(٥١)، والحقيقة أنه حتى داخل مملكة غرناطة لم ينضم كل الناس إلى الثورة، بل ظل الكثيرون منهم محايدين، وكانوا معارضين لها فى بعض الأحيان. كان الموريسكيون متأثرين بالبنية الاجتماعية والنفسية للمدجنين، ولهذا لم يستوعبوا فكرة توحيد إسبانيا. إن شعورهم بذاتهم كمجموعة لم يكن يتخطى الممالك الصغيرة، بل أنهم بعد طردهم من إسبانيا كانوا متواجدين فى الخارج كمجموعات جغرافية: (أهل الحدود والأندلسيون فى تونس والجزائر).

إن واقع حياة الموريسكيين يقدم أساسًا لأسطورة التآمر، لكنه يقدم أيضًا أساسًا لما يخالف التآمر. إن شعور الموريسكيين بانتمائهم إلى إسبانيا لا جدال فيه، وأمامنا حالة أولئك الذين فضلوا العبودية لتحاشى طردهم من إسبانيا(٥٢). وكذلك عودة كثير من المطرودين فى زمن فيليبى الثالث؛ بل وأولئك الذين غادروا إسبانيا بعد غزو غرناطة(٥٣)وطوافهم بالموانئ الإسبانية، لا لشيء إلا لكى يتنفسوا هواء الوطن(٥٤). وفى عام ١٦٣١ عرض الموريسكيون تسليم حصن سلا (الرباط) إلى فيليبى الرابع مقابل أن يسمح لهم بالعيش فى إسبانيا كمسيحيين(٥٥).

إن أسطورة التآمر لا تزال تعيش بيننا. إن الجريمة التى نسبت إلى الموريسكيين فى قرار الطرد الصادر عام١٦٠٩ تؤثر حتى الآن فى كل الدراسات التى أجريت حول الموريسكيين تقريبًا(٥٦). هناك مؤرخون كبار يعترفون دون أساس بتدخل الأتراك فى حرب غرناطة، بل يتحدثون عن شبكة تجسس موريسكية تُدار فى القسطنطينية، ولقد طالعنا فى أحد الكتب أن الموريسكيين كانوا يقضون أوقاتهم فى "التآمر وتحدى طبقة الأشراف من المسيحيين القدامى"(٥٧). ورغم أن هذا الأسلوب ينتمى إلى عام١٦١٠ فإن الكتاب نُشِرَ عام ١٩٧٥. يطور البعض تلك النظرية الأسطورة لدرجة أن كلاوديو سانشيث(٥٨) لا يتحدث فقط عن تآمر

الموريسكيين مع كل أعداء إسبانيا الخارجيين؛ بل يتحدث عن الدور الذى كان سيقوم به الموريسكيون فى إسبانيا فى القرن التاسع عشر لو لم يتم طردهم.(*)

إن التحول من مدجنين إلى موريسكيين قد حول مشكلةً قديمة مستقرة إلى أمر جديد هو القدرة على إخماد أية حركة بالتأثير فى الرأى العام وبالدعاية.ومن المعلوم الآن أن التأثير فى الرأى العام يغير من وضع القضية عندما يصدق الناس ما يُشاع. إن العامة يتأثرون بأية كلمة أو بأى حادث بسيط أو يصدقون الشائعات وذلك ما حدث عند الكلام عن تفجير الموريسكيين لقلعة أيوب[٥٩]. وعندما نقرأ عن هلع أهل إشبيلية عام ١٥٨٠ يدهشنا تصديق الناس للحديث عن مؤامرة موريسكية تركية. وفى هذا الصدد "رأى" جيرونى بوجاديس فى أكتوبر عام ١٦٠٩ المبعوث التركى الذى جاء ليقود الثورة الموريسكية[٦٠]، وكيف أنه كان يتخفى فى زى راهب يونانى. إزاء ذلك الهذيان لم يكن موريسكيو أورناتشوس بحاجة إلى أتراك لإعلان جمهوريتهم الصغيرة فى إقليم إكستريمادورا.

فى مواجهة تبسيط الأمور الذى رأيناه فى التاريخ الماضى يجب علينا أن نعى فى الحاضر تركيب وتعدد وثراء التجربة الموريسكية فى كل مظاهرها. إنها المهمة التى نجتمع من أجلها اليوم والتى يجب أن ننقلها إلى الأجيال القادمة.

(*) من المعروف موقف سانشيث ألبورنوث المعادى للحضارة العربية الإسلامية، وكانت له مساجلات فى هذا الشأن مع أميريكو كاسترو المتعاطف مع الإسلام الأندلسى. (المترجم)

الهـوامش

١- تشير مقدمة كتاب الدفاع عن العقيدة Defensa Fidei للراهب خايمى بليدا الذى نشر عام ١٦١٠ فى فالنسيا أن طبع الكتاب انفق عليه مبلغ أربعمائة دوقية، وقد تلقى نفس المؤلف دعمًا آخر نظير كتابه تاريخ المسلمين فى إسـبانيا Crónica de los moros en España الذى نُشِرَ عام١٦١٨، وقد حدث نفس الشـيء مـع كـل الدراسـات المناهضة للموريسكيين. أما كتاب طرد الموريسكيين العـادل Justa expulsión de los moriscos de España الذى نُشِرَ عام ١٦١٢بالإسبانية واللاتينية فهـو كتـاب يعرض وجهة النظر الرسمية الإسبانية أمام الرأى العام العالمى. ويبدو أن الكتابـات المضادة للموريسكيين والتى نُشِرت فى عامى ١٦١٠، ١٦١١كانت بإيعاز من الدولة الإسبانية. راجع فى هذا الصدد دراستنا:

«El morisco Ricote o la hispana raza de estado», Personajes y temas del Quijote (Madrid, ed. Tauras, 1975)pp.229-335.

٢- يُسهب الراهب ماركوس دى غوادالاخارا فى وصف " الألسنة الصامتة" أو التنبؤات التى تتحدث عن عملية الطرد، وذلك فى كتابه:

Prodición y destierro de los moriscos de Castilla, hasta el valle de Ricote.

إن كلمات بدرو أثنار كاردونا اللاذعة لا تتوقف عن ذكر " خيانة " الموريسكيين: إن محاولة إحصاء خيانة الموريسكيين هى بمثابة محاولة إحصاء عدد رمال البحـر أو قطرات المطر أو أيام القرن ... وكانوا قد أعدوا العُدة لخيانتهم الكبرى فـى عيـد القديس خوان عام ١٦١٠ وحددوا أسماء الملوك فى إسبانيا..." راجع كتاب:

Expulsión justificada de los moriscos españoles

وهناك مؤلفون معاصرون يرددون قصة دق الأجراس التـى يرويهـا برونـاث اى باراتشـينا فـى كتابـه: Los moriscos españoles ys sus expulsión (Valencia,1901) انظر فى هذا الصدد أيضًا:

H.Ch.Lea: The Moriscos of Spain: Their Conversión and Expulsión (London,1901).

A.C.Hess «The Moriscos.An Ottoman Fitfh Column in Sixteenth Century Spain»,The American Historical Review, 84(1968-1969)

٣- «Vers 1600…le danger d'an soulévement general de los moréscos est proballement mythique » (p.Vilar «le temps du Quichotte», Europe,34 (1956)

٤- ذكّر فرانثيسكو نونييث مولاى محكمة غرناطة بأنه منذ ٦٦ عامًا لم تحـدث واقعـة خيانة كبيرة: "لو تحريتم عن ولاء أبناء غرناطة للملك لوجدتم أنـه خـلال حـرب الجماعات حدثت ثورات فى قشتالة وفى أندلوثيا، أما فى غرناطة فلم يتغير الـولاء للملك." انظر:

R.Foulche-Delbosc «Memoria de Francisco Nuñez Muley» Revue Hispanique, 6 (1899).

٥- كان عبور المسلمين إلى إفريقيا بشكل غير قانونى يقلق الملك عام ١٤٩٦.جاء ذلـك فى رسالة بعث بها الراهب إيرناندو دى تالابيرا نشرها لاديرو كيسادا فى كتاب:

Los mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel (Valladolid,1969)

هناك معلومة غريبة فى هذا الكتاب لا يتوقف عندها أحد عـادةً وهـى أن الملكـين الكاثوليكيين كذّبا بشكل رسمى الشائعات التى تحدثت عن طرد مسلمى قشتالة، وهى شائعات كان يرددها البعض " بهدف إثارة الناس".

٦- للحصول على ملخص لتلك الأحداث راجع:

«Dangers from Aboard »en H.ch.Lea. The Moriscos of Spain

وهناك بيانات حديثة عن مملكة غرناطة فى دراسات ن. كابريانا

Almería morisca , «Emigrante y monfies »(Universidad de Granada,1982).

أما عن مملكة فالنسيا فانظر :

García Martínez: Bandolerismo, piratería y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II (Universidad de Valencia,1977)

٧- انظر:

M.A.Ladero Quesada. Granada. Historia de un país islámico, Madrid Gredos,1969.

I de las Cagigas los mudéjares (Madrid, CSIC,1948).

٨- «A curious Morisco Appeal to the Ottoman Empire», Al-Andalus,31 (1966).

٩- ليست الفكرة غريبة كما يبدو؛ فالمسلمون اعتبروا الاتفاقيـات المبرمـة كواجبـات قانونية يجب احترامها كما يوضح ذلك الغرناطى المجهول.

«As for him who grants a treaty tnd then betrays it, that is a dead forbidden by every faith» (p.300).

ولهذا أرسل ملك مرسية إلى البابا فى القرن الثالث عشر سفارة يطلب منـه فيهـا –

كرئيس روحى للمسيحيين – أن يلزم ملك قشتالة بالوفاء بتعهداته. انظر :

Cagigas: los mudejares

وبعد غزو غرناطة طلب بعض أشراف المملكة من روما تأكيد بنود تلك الاتفاقية [راجع المصدر السابق]. إن كتاب : La Coran Crónica de Alfonso XI الذى وضع عام ١٣٤٤يتحدث عن موت الأميرين بدرو وإنريكى فى غرناطة كانتقام إلهى نتيجة نقض المعاهدة. انظر:

Menéndez Pidal: «Ideales morisco en una Crónica de 1344», Nueva Revista de Filología Hispánica,7 (1953).

كان نقض المعاهدات يمثل شكوى مستمرة لمسلمى إسبانيا ضد المسيحيين، ويذكر ميكيل دى إيبالثا شكوى لسلاطين المماليك قدمت كاحتجاج إلى الملكين الكاثوليكيين ضد الممارسات القمعية التى مورست مع المسلمين. انظر:

«Improbables orígenes islámicos de la Inquisición y opinión de musulmanes sobre ella», La Inquisición española (Madrid , Siglo XXI, 1980)

١٠- انظر :

Fr. Damian Fonseca Relación de la expulsión de los moriscos del reino de Valencia (1878).

López Baralt «Crónica de la destrucción de un mundo: la literatura aljamiado -morisca» Bulletin Hispanique, 82 (1980)

عن الأتراك ودورهم كمنتقمين للموريسكيين انظر:

J. Penella «Literature morisque en espagnol en Tunisie» en Recueil d'etudes sur les Moriscos andalus en Tunisie (Madrid,1973)

وعن الاعتقاد بنصر الإسلام الحاسم القريب فى الأدب الموريسكى راجع:

W. Honerbach «los moriscos a la luz de los documentos». Actasdel coloquio internacional sobre literatura aljamiada y morisca (Gredos, 1978)

انظر أيضًا:

N.Cohn «Medieval Millenarism: its Bearing on theContemporary Study of Millearian Movements», en Millennial Dreams in Action (New York : Shocken Books,1970).

١١- انظر:

Luis Mármol Carvajal: Historia del rebelión de los moriscos del rynode Granada (1600)

إن وجود جنوفا ضمن الحلفاء المتوقعين يُعزى إلى علاقاتها الاقتصادية مع مملكة بني نصر . انظر : Ladero : Granada

١٢- انظر : Mármol: Historia del rebelión

١٣- Guerra de Granada (Madrid, Castalia,1970)

كان Lea قد أشار إلى مشاركة القوى الإسلامية فى حرب غرناطة فى كتابه : وعندما علق T.Halperın Doughı على أحلام الموريسكيين قال " إن ذلك لا يعنى أن الغزو الإسلامى كان يمثل خطرًا كبيرًا ؛ فرغم أن الأتراك كانت لهم صلات بالموريسكيين إلا أن ظروفهم لم تكن تسمح بغزو إسبانيا ..." راجع:

Un conflicto nacional: moriscos y cristianos viejos en Valencıa. Cuadernos de Historia de España (1955).

وقد أشار كارو باروخا إلى ضعف مساعدة الأتراك فى كتابه:

Los moriscos del reino de Granada (Madrid 1557)

١٤- انظر كتاب: Guerra civiles de Granada, 2ª parto (Madrid191 ويُشير بيريث دى إيتا إلى رسالة سليم إلى العشالى المتعلقة بمساعدة الموريسكيين والرسالة اللاحقة التى بعث بها العشالى إلى ابن أميه والتى يتحدث فيها عن وعود السلطان التركى تذكر اتخاذ شقيق ابن أمية كرهينة. ومن جهة أخرى قدم ملك فاس إلى ابن أمية نصيحة ثمينة تتمثل فى التصالح مع ملكه الشرعى ووعده بالمساعدة فى حالة توفير موانئ حرة فى إسبانيا وهو أمر صعب التحقيق بالنسبة له.

١٥- حول معالجة بيريث دى إيتا وغيره لحادث اغتيال ابن أمية راجع: A.Mas: les Turcs dans la litterature espagnole du siecle d'or (Paris,1967).

١٦- انظر : Guerra de Granada, p. 291

١٧- انظر :

The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II New York, 1973) p.1662.

١٨- المصدر السابق ص ١٠٦٦

١٩- يتخيل بيريث دى إيتا أن عجوزًا جزائريًا نادى بالتضامن الإسلامى ووعد منْ يتبرع بالأسلحة لأهل غرناطة بالجزاء الأوفى ... الأمر السيئ هو أن العشالى جمع مجلسه للتشاور بشأن كمية الأسلحة الهائلة التى تم جمعها وقرر المجلس استشارة القسطنطينية، وكان قرار الأتراك هو مساعدة أهل غرناطة فى أضيق الحدود. يشير

بذلك بيريث دى إيتا إلى خيانة الأتراك لمبدأ التضامن الإسلامى.

٢٠- انظـر : The Moriscos.au Ottoman fifth Column in Sixteenth Century Spain

٢١- انظر : The Moriscos. P.17

٢٢- هناك معلومة تسبق ما ذكره لويس كابريرا دى كوردوبا فى :
Blanco González ed. Diego Hurtado de Mendoza : Guerra de Granada, p.197

٢٣- انظر : F.Janer: Condición social de los moriscos de España (1857),p. 279

٢٤- وهذه العادة لا تهم كثيرًا انظر: Crónica de los moros en España .p.927

٢٥- انظر : Ladera: Granada, p. 101

٢٦- انظر : Hess: The Forgotten Frontier

٢٧- انظر د. عبد الجليل التميمى:
«Une lettre des Morisques de Grenada au Sultan Suleiman Al-Kaumi en 1541», revue d'Histoire Haghrebine, 3 (1975)
يذكر هنا أيضًا أن أهل غرناطة طلبوا المساعدة من السلطان محمد الفاتح فى عام١٤٧٧، ويقدم هيس A.C.Hess بعض المعلومات عن إرسال كمال الريس من قِبل الأتراك إلى سواحل غرناطة، وأن اتصالات هذا الأخير قد أظهرت ضعف مملكة غرناطة. انظر: The Forgotten Frontier, p.60.

٢٨- انظر:
Ch.de la Veronne «Política de España, de Marruecos y de los turcos en los reinos de Fez y Tremecen a mediados del siglo XVI.»
كان سلطان فاس يحاول الارتباط بالعثمانيين، وكانت هناك خطة مغربية عثمانية للتدخل عام ١٥٨٠فى مشكلة البرتغال. انظر:
D. Cabanelas: «Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquía contra Felipe II» Miscelanea de Estudios Árabes y Hebraicos, 6 (1957).

٢٩- انظر : Antonio de Fuenmayor : Vida y hechos de Pío V (Madrid,1959)

طبقًا لما ذكره : Javer: Condición social de los moriscos, p. 143 ورغم أن ذلك الخطاب يصعب إثباته بطرق أخرى إلا أن السياق محتمل فى تلك الظروف وهو

يعبر عن أفكار كانت واردة حينذاك، ويذكر مارمول أن أهـل البيـازين "كـانوا لا يريدون دخول البربر إلى أراضيهم ولا أن يكونوا هم تابعين لملك مسلم" راجع:
Historia del rebelión.

٣٠- أخبر سفير جنوفا فى اسطنبول عن طلب مسـاعدة مـن قبـل الموريسـكيين، وأن المساعدة المطلوبة تتمثل فى الأسلحة. انظر : The Mediterranean II, p. 1062.

٣١- انظر : Cagigas : Los mudéjares, p.470, Ladero: Granada, p. 65

٣٢- انظر:
J.A. Maravall «La corriente doctrinal del tacitismo político en España», Cuadernos Hispano Americanos 238-240 (1969).

٣٣- انظر: C.López Martínez: Mudejares y moriscos sevillanos (Sevilla 1935)
ويعلق دومينغيث أورتيث على غرابة الثورة فى مقاله:
«Los moriscos granadinos antes de su definitiva expulsión », Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos 12-13 (1963-1964).
عن هذه المحاولة وعن تفكير إشبيلية الدائم فى الثورة الموريسكية. راجع:
R. Pike: «An Urban Minority: The moriscos of Seville», International journal of Middle Eastern Studies, 2 (1971).

٣٤- انظر: L.Cardaillac: Morisques et Chretiens.Un affrontement polemique (1492-1640), Paris, 1977 H. Pieri «L'accveil par des Tunisiens aux Morisques expulsés d'Espagne: un temoignage morisque», Recueil d'Etudes p.132

٣٥- انظر: Brandel: The Mediterranean II, p. 787

٣٦- المصدر السابق، ص ١٠٦٣

٣٧- انظر :
B. Vincent «L'expulsión des Morisques du Royaume de Granade et leur repartition en Castille (1570-1571)»

٣٨- انظر:
V.Regla «La expulsión de los moriscos y sus consecuencias», Estudios sobre los moriscos. A de la Universidad de Valencia, 37 (1963-1964) p.44

٣٩- انظر:
Boronat: Los moriscos españoles pp. 282-285

٤٠- يبدو أن تركيا فى ذلك التاريخ كانت تظن أن الموريسكيين قاموا بالثورة. انظر:
Reglá: «La cuestión morisca y la coyuntura ınternacional en tıempo de FelipeII», Estudios sobre los moriscos pp.51
وحول عجز العثمانيين فى تلك السنوات راجع:
Brandel: The Mediterranean II, pp. 1188-1195
وعن فشل عملية إنزال عام ١٥٩١ راجع:
Hess: The Forgotten Frontier

٤١- يتحدث هيس عن حملة منظمة للإشاعات التى تتحدث عن غزو شمال إفريقيا لإسبانيا فى أعقاب قرار طرد موريسكيى فالنسيا فى أبريل عام ١٦٠٩.انظر:
The last Frontier, p.154

٤٢- انظر: Cardaillac: Morısques et Chretienc

٤٣- Regla: «La expulsión de los moriscos y sus consecuencias» pp.47
G. Marañón : Antonio Perez (Madrid, Espasa Calpe 1963) II, p.630

٤٤- انظر:
Memoires authentiques de Vacques Nompar de Caument , duc de la Fonce, (Paris,1843),p.341
عن مؤامرات إنريكى الرابع ودوق دى لا فورس مع الموريسكيين الأراغونيين راجع:
Duc de La Force le marechal de la Force.Un serviteur de sept rois (1558-1652) Paris (1950) pp. 143 y 55

٤٥- بسبب حشية إحدى المحظيات من ضياع مكانتها تم اكتشاف القسيس الأرمنى المتخفى أو الجاسوس الذى أرسله الأتراك إلى إسبانيا للاتفاق على تفاصيل عملية الغزو.انظر:
Expulsión justificada, [25] parte.
S. Álvarez Gamero: «Nueve romances sobre la expulsión de los moriscos», Revue Hıspanique,35 (1915)

٤٦- من فيليبى الثانى إلى والى سردينيا فى ربيع عام ١٥٧٠.انظر:
Regla Estudios sobre los moriscos ,p.16
حول اقتراح الملك أمام مجلس البلاط المجتمع فى قرطبة فى مارس١٥٧٠ راجع:
López Mata «Burgos en la sublevación de los moriscos de Granada», Boletin de la Real Academia de la Historia 1411 (1957) p. 355

٤٧- كان أهل فالنسيا يتفاوضون مع الأتراك ومع مولاى زيدان لكى يقدموا لهم فى العـــام التالى " مسلمين محاربين ".راجـــع : Janer: Condición social de los moriscos, p.298

٤٨- انظر: Justa expulsión de los moriscos de España, p.193

٤٩- انظر: Janer: Condición social de los moriscos pp. 285-286

٥٠- انظر: Cagigas : Los mudéjares, p.481

٥١- فى الرسائل المشار إليها إلى والى سردينيا. إن عزلة الموريسكيين الكاملة لم تغــب عن بال براوديل، لكنه ينسب ذلك إلـــى فعاليـــة جهـــود الشـــرطة. راجـــع: The Mediterranean II, p.790 ورغم أنه قد اتخذت الوسائل المناسبة لمنع الاتصال بين أهل غرناطة وأهل فالنسيا فإن بعض الرسل لم يجدوا صدى هناك. راجع :

García Martínez «Bandolerismo, piratería y control de moriscos en Valencia» p. 46.

٥٢- انظر :

Domínguez Ortiz «Los moriscos granadinos antes de su definitiva expulsión», Miscelanea de Estudios Árabes y Hebraicos 12-13 (1963-1964)

من المحتمل – كما يُلاحظ هنا – أن بعض صكوك العبودية بالاختيار ليست ســوى حيلة اتبعها بعض المسيحيين المتعاطفين لإنقاذ الموريسكيين من المنفى.

٥٣- انظر: Ladero: Los mudéjares de Castılla. Pp.221-224

٥٤- بالقرب من سبته وطنجة. انظر:

J.Pignon «Une geographie de l'Espagne morisque», Recueil d'Etude p.85.

٥٥- انظر:

G.S Colin «Projet de traite entre les morisques de la casba de Rabat et le roi d'Espagne en 1613», Hesperis 42 (1955)

وحتى هناك كانوا موزعين حسب أصولهم الجغرافية فى إسبانيا، وكانت علاقاتهم مع العرب سيئة لدرجة نشوب الحروب بينهم، وكان بود ملك المغرب لو يـــدمرهم لمـــا عُرف عنهم مع أنهم كانوا مسيحيين فى السر، وفى الواقع كان المنفيـــون يشـــعرون بالإحباط. فى عام ١٦٣٧ كرروا عروضهم السابقة لإسبانيا، وفى عام ١٦٤٠كـــانوا على استعداد لتقديم ذلك لأية قوة أوروبية.

٥٦- كان هناك منْ يفكر بطريقة تدع جانبًا نظرية التآمر، ويعترف برونات نفســـه بـــأن

التآمر والمخاوف من الثورة كانت كلها مبررات ... وأن السبب الحقيقى فى عمليـــة الطرد كان ذا طابع دينى " انظر: Los moriscos españoles I, p.396 ويجــب أن نذكر هنا ذلك الموريسكى الذى قال إن ملكى فاس ومصر لم يقــدما للموريســكيين سوى الكلام. انظر:

A.Turki «Documents sur le dernier exode des Andalous vers la Tunisie» Recueil d'Etudes p. 119

٥٧- انظر :

A. Magraner Rodrigo: La expulsión de los moriscos, sus razones jurídicas y consecuencias economicas para la región valenciana, Valencia, 1975, p.43.

٥٨- انظر:

Después de leer a Lapeyre » en Miscelanea de Estudios Históricos León, 1970) pp. 509-517

هذا الحديث ليس جديدًا؛ فقد تناوله قبل ذلك كانوباس ديل كاســتيو فــى رده علــى خطاب التحاق سابيدرا بالمجمع اللغوى الإسبانى. انظر:

Memorias de la Real Academia Española, 6 (1889)

٥٩- انظر: Janer : Condición social de los moriscos pp. 269-270

٦٠- انظر:

J. Pujades Dietari ed. J.M. Casas Homs (Barcelona 1975)

إذا قارنا هذه المعلومة بما يذكره أثنار كاردونا فى هذا الصدد نعلم كيف لجأ البعض فى تلك الأيام إلى استعمال شائعة القسيس اليونانى فى أراغون.

وثائق حول الموريسكيين فى المغرب

رودولفو خيل غريماو

من الواضح أننا يجب أن نتعمق فى دراسة مشكلة الموريسكيين فى المغرب. إن الحاجة ملحة إلى بدء – استئناف – سلسلة من الدراسات حول وصول الموريسكيين إلى المغرب ونشاطهم ومركزهم الاجتماعى ولغتهم وأثرهم التاريخى. من المعلوم أن الدراسات المتعلقة بالموريسكيين فى المجتمع المغربى قليلة ومعظمها قديم، وكانت لى – مع فريق عمل – فكرة جمع الدراسات المنشورة ونشرها كلها فى مجلد واحد يسهل الحصول عليه. كانت هذه هى فكرة كل من ميكيل دى إيبالثا ورامون بتيت عند نشرهما "موجز الدراسات عن الموريسكيين الأندلسيين فى تونس" عام ١٩٧٣، وهى مهمة واصلها سليمان مصطفى زبيس ومعاونوه.

لهذا فقد قمنا بجمع نصوص الدراسات التى نشرت بالفرنسية والإنجليزية والإسبانية والعربية، وبدأنا فى ترجمة هذه الدراسات إلى الإسبانية، وأثناء ذلك فهمنا أن عدد الدراسات قليل وليس هناك مبرر لنشرها فى مجلد. كانت الفكرة الثانية تتمثل فى جمع نصوص لم تُنشر بعد وترجمتها إلى الإسبانية، وهى نصوص تتعلق بالعائلات وتاريخ تطوان (مثل دراسة محمد داود). بهذا الشكل تحولنا من جمع نصوص قديمة إلى محاولة جمع دراسات يتم إعدادها ومصادر لتلك الدراسات. وكانت الفكرة الثالثة تتمثل فى إعادة نشر الدراسات التى نشرت ثم جمع الدراسات التى يتم إعدادها والمصادر التى يتم اكتشافها. اعتقدنا أن الجانب الأخير يمثل مجالاً واسعًا فقمنا بعمل حصر مبدئى للمكتبات والمصادر الوثائقية فى الدولة والمكتبات والأرشيفات الخاصة لأسر من أصل موريسكى. لم نجد شيئًا فى المكتبات؛ أما بالنسبة للأرشيفات الخاصة فقد وجدنا عند الأسر رغبة قوية فى التعاون، إلا أن هذه الرغبة لم تُستغل نظرًا لتأجيل المشروع.

وكان تأجيل المشروع لسببين: الأول أننا - وبعض أعضاء الفريق – قد كرسنا جهودنا لمشروع آخر رأينا أنه أكثر إلحاحًا: نشر وإنشاء مكتبة إسبانية عن شمال إفريقيا وعن دول المغرب العربى بشكل خاص من المعلوم أن أول كتاب فى هذا الصدد قد نُشِرَ عام ١٩٨٢ "نحو ببليوغرافيا إسبانية عن شمال إفريقيا(١٨٥٠-١٩٨٠)" ويُشكل واحدًا من أربع أو خمس مجلدات تتضمن ٨٠٠٠٠ مرجع. إن حجم الدراسة والرغبة الملحة فى إنهائها قد جعلت من غير الممكن الاستمرار فى المشروع المذكور. السبب الثانى فى تأجيل المشروع هو أننا أدركنا الأهمية القصوى والأثر العميق الذى أحدثته الهجرة الموريسكية فى المغرب، ولهذا رأينا معالجة الموضوع من وجهة نظر جديدة أكثر شمولا.

وهكذا رأينا أن جمع الدراسات عن الموريسكيين فى المغرب يجب أن يمر بعدة مراحل ويجب أن يتم عبر منشورات متتابعة وأن يتضمن أولا الدراسات التى نُشِرت بالفعل ثم تُنشر الدراسات التى لم تُنشر، خاصة المصادر التى يتم اكتشافها. المشروع بهذا الشكل طموح ويحتاج إلى إمكانيات كبيرة. يحتاج إلى عدد كبير من الباحثين (مغاربة وإسبان) يشكلون فريق عمل لفترة طويلة تدعمه المؤسسات الحكومية والأكاديمية، يجتمع بشكل دورى وينشر ما يتم جمعه من مصادر.

وبغض النظر عن الوثائق التى سيتم جمعها هناك سلسلة من الموضوعات يمكن البدء فيها أو مواصلة ما تم عمله فيها. إن دراسة أسماء الأعلام والألقاب ذات الأصل الموريسكى فى تطوان والرباط وغيرها ستقدم لنا قائمة طويلة تكمل قائمة الأسماء التى جمعها رحومى وابن عزوز منذ ثلاثين عامًا. من بين تلك الأسماء هناك أسماء لا تزال موجودة حتى الآن، وهناك أسماء اختفت إلا أنها تركت أثرًا فى المصادر التاريخية القضائية:

ابير، ابيتيو، بويرتو، بانثى، الأبادى [من أوبيدا] ابن كلحة، أبو خرص، ابن كريس (من بنى حزمار) ابن إبراهيم [عائلتان إحداهما جبلية هى أولاد الهوارى والثانية عربية وهى ابن اثيرو] ابن الأحمر، أغزول، أبريل، الأندلسى، كاستيو،

اشعاش، بركة، البرميو، البروبى، البيتاورى، البالنسيانو، بايسا، بويز، البولو، بلاسكو، البشارى، سكيرج، البوتى، التبلين، جنينو [عائلتان واحدة من الأندلس والثانية من الريف]، الحبرى، الخطيب، داود، آل ديليرو، آل راينا، آل ريكاينا، آل ريتود، ريان، آل ريدوندو، آل رويث، آل راميريث، الزكرى، زركيك، آل توب، طنانة، آل كراسى، كريكسى، آل لالوسى، لوب، لوكاس، آل لويرى، مولينا، مدينة، آل مولاتو، آل موفق، مونتى مايور، مندوسا، موراريكس، مارين، آل نصار، النقشيش، سالاس، آل سوردو، العطار، آل عطيطار، غايو، غارسيا، الغرناطى، آل غيرسا، غيلان، الفخار، فارايا، الفزيكارى، الفكاى، فرطوط، القرطبى، الدوتى، آل كابريرو، آكسوس، كاستيو، الكرفى، قزمان، السراج، الشوربى، لوباريس [من اوليبارس]، بلافريكس، ثيرون، بوينو، بارغاس، كاسيرى، مولين، كراكسو... إلخ. يجب أن نضيف أيضًا أسماء الشخصيات التى كان لها إسهام تاريخى فى بعض فصول تاريخ المغرب مثل مؤسس تطوان سيدى محمد بن على المنظرى(*) وعائلة لوكاس وعائلة توريس وعائلة بن يعيش وعائلة بن عزوز أفيلال. لاشك فى أن الدراسة المتعمقة للوثائق القضائية والتاريخية الموجودة ودراسة المناطق القروية فى شمال المغرب خاصة منطقة جبالا مكنت من جمع أسماء ربما ارتبطت بالمهاجرين الموريسكيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

من المهم أيضًا إبراز الكلمات ذات الأصل الإسبانى فى اللهجات المغربية وبالتحديد فى المناطق التى استوطنها الموريسكيون، وقد جمع هذه الكلمات كل من بن عزوز ورحومى ومن بينها: توماتيكس، رابا، تنبوكا، توبا، طرمبة، أرغاث، غالون، غارو، غاريوتا، غانا، غانيو، كاكى، كانانيور، كافاتيرا، كوكو، كارتا،

(*) هو أبو على المنظرى. حول هذا القائد انظر كتاب "المنظـــرى الغرنـــاطى مؤســـس تطوان"، تأليف: غوثالبيث بوسيتو، ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧.

كابوت، كاب، كوتشينيا، لاباريا، لابانا، لاستيك، لارو، لاريا، ماكينه، موسايكو، دبلون، اسكويلا، فابور، فيرما، فورا، فالتا، اسبريتو، سيليا، اسكرفيلا، شوكلات، بابور، برنيطة، بارتال، برّاطا، برنيث، بطاطا، بانييثا، بوف، باغار، بانديرا، باستيلا، بورسلانا، بثكيتو، بيتو، بابوكس، بولا، راى، راينا، روبلو، ريدوما، ريال، رويدا، كوربا، سويرتى ...إلخ.

من المهم أيضًا دراسة أثر الموريسكيين - كموظفين فى المخزن – فى المفردات المستعملة فى الاستشارية المغربية على مدى قرنين، وفى هذا المجال يبرز أثر الموريسكيين اللغوى والفنى فى المفردات المستعملة فى البحرية المغربية. إن هذا الأثر لا يقتصر على الصيد وأسماء الأسماك، بل يشمل أسماء الأوانى المستعملة فى تطوان وغيرها.إن أغنيات المهد فى تطوان ذات أثر موريسكى، وهناك أمثال ذات أثر موريسكى نجدها فى تطوان وتجرى دراستها حاليًا.

ومن وجهة النظر التاريخية تجدر الإشارة إلى ضرورة التعمق فى دراسة أثر وجود الموريسكيين فى أربع مجالات رئيسية. المجال الأول يتعلق بالأندلسيين الذين أقاموا فى الرباط، وقد نُشِرَتْ دراسات عنهم لكن يجب زيادة هذه الدراسات إذ إن سياستهم كدولة مستقلة أو شبه مستقلة وعلاقاتهم مع الدول المعادية لإسبانيا لها قدر كبير من الأهمية. من المهم أيضًا دراسة اتصالات تلك الحكومة الموريسكية مع مستشارية فيليبى الرابع بهدف العودة إلى إسبانيا وتسليم الأراضى التى تحتلها فى المغرب إلى التاج الإسبانى مقابل حق المواطنة فى شبه الجزيرة. أعتقد أنه بالنسبة لهذا الموضوع يجب البحث فى وثائق كونت أوليباريس الموجودة فى الأرشيفات الوطنية أو ضمن مجموعات خاصة وفى أرشيفات مدينا سيدونيا لكى نرى إلى أى مدى لم يهتم أوليباريس كثيرًا بإمكانية عودة المهاجرين الموريسكيين إلى المغرب بشكل أو بآخر، وإلى أى مدى كانت هناك علاقة بين العودة وبين محاولات الثورة فى أندلوثيا فى نفس الوقت الذى حدثت فيه محاولات

للثورة فى البرتغال وقطالونيا. إن النشاط السياسى للموريسكيين فى الرباط كان على علاقة بسياسة موريسكيى شمال المغرب. المجال الثانى الذى تجب دراسته هو وضع الموريسكيين فى تطوان وجبالا الذين أسسوا مساكن على النمط الأندلسى وأقاموا فى منطقة مجاورة للمضيق وشكلوا حصنًا فى مواجهة المناطق التى احتلتها إسبانيا والبرتغال. والقائد الذى أسس تطوان - سيدى المنظرى - ليس موريسكيًا، لكنه غرناطى هاجر فى أواخر فترات غرناطة الإسلامية. إن حياة وأعمال هذا القائد تُعد بداية لإقامة نمط معيشى مشابه للأندلس التى كانت على وشك الضياع وبداية لإقامة حدود فى مواجهة التوسعات المسيحية. إن مولاى إبراهيم بن راشد أمير شفشاوين التاريخى والست الحرة حاكمة تطوان التاريخية كانا من أم موريسكية من بيخير دى لا فرونتيرا. وكانت مساهمة الموريسكيين فى تأسيس شفشاوين ملحوظة حسب ما يؤكد الذين قاموا بدراسة هذه الناحية فى تاريخ المغرب. المجال الثالث هو مشاركة القوات الموريسكية - وهى قوات تدربت على النمط الأوروبى فى الحرب- فى معركة الملوك الثلاثة أو وادى المخازن التى قُتِلَ فيها ملك البرتغال. إن هذا التنظيم العسكرى وتدريب القوات له علاقة بمحاولة الموريسكيين الوصول إلى إسبانيا عن طريق الحرب، وله علاقة بسياسة فيليبى الرابع وبالحروب الأوربية آنذاك. المجال الرابع يتعلق باندماج الموريسكيين فى الحياة المغربية ونشاط قراصنة تطوان وبأعمال الخبراء الموريسكيين فى إدارة المخزن وبالنشاط التجارى الذى مارسته الأسر الموريسكية على مدى القرون التالية، وبالمحافظة على الهوية الخاصة بالموريسكيين الذين تزاوجوا فيما بينهم، سواء فى الرباط أو تطوان.

ودفعًا لهذا النوع من الدراسات يجب أن نشكل اعتبارًا من هذه اللحظة خطة عمل وتعاون لتهيئة المناخ اللازم. إن خطة العمل يمكن أن تبدأ بإنشاء لجنة صغيرة من الباحثين المرتبطين بالمؤسسات الأكاديمية المغربية وبالمؤسسات الثقافية الإسبانية، ويمكن أن يكون أول أهداف العمل هو نشر الدراسات التى تمت

بالفعل عن الموريسكيين فى المغرب ثم نشر الدراسات التى لم تُنشر بعد عن هذا الموضوع والبحث فى الأرشيفات الخاصة بالعائلات عن وثائق لم تُنشر بهدف نشر هذه الوثائق.

أقترح إعداد قائمة كتب مختلفة الحجم عنوانها العام "دراسات حول الموريسكيين فى المغرب"، وأن تُنشر هذه الدراسات بلغاتها الأصلية على نفقة المؤسسات الأكاديمية المغربية والمؤسسات الثقافية الإسبانية. إن هذه الكتب التى أتحدث عنها يمكن أن تهيئ المناخ اللازم للعمل والدخول فى مجال دراسة المهاجرين الموريسكيين إلى المغرب. أقدم فيما يلى قائمة بالدراسات التى نُشِرت، وهذا هو الشىء المتاح حتى الآن. وتشكِّل هذه الدراسات أول اقتراب إلى الموضوع. من بين هذه المراجع هناك دراسات بها قوائم مراجع عن الموريسكيين بصفة عامة. والقائمة التى أقدمها ليست شاملة إنما هى مجرد بداية.

الهوامش:

ABU GANDAR (BUGENDAR),Ta'rij Ribvt al-Fath, Rabat, 1345,pp.194-197 v 202ss,etc.

أمر أصدره جلالة الملك الكاثوليكى فيليبى الثانى لطرد موريسكيى ممالك غرناطـــة ومرســيه وجيان وإشبيليه وأورناتشوس، ويوضح فيه الأسباب العادلة لهذا الطرد والطريقة التى يجب أن يتم بها. صدر فى مدريد فى ديسمبر ١٦٠٩ ونُشِرَ بأمر خوان دى مندوثا ماركيث سان فيرمين فى إشبيلية فى ١٢ يناير ١٦١٠.

BARRANTES, Vicente, Aparato para Historia de Extremadura Maghrebini, III Nápoles, 1968, pp.1-43.

SERRANO y SANZ, "Expulsión de los moriscos andaluces", Rev. Contemporánea, tomo XV, 1893.

SERRQNO y SANZ, "Vida del Capitán Alonso de Contreras", Boletín de la Real Academia de la Historia, Madrid, 1900.

TAPIAGARRIDO, José Ángel, "La costa de los piratas", Revista de Historia militar, 1972, 32, páginas 73-103.

TERRASSE Henri, "Les portes de l'arsenal de Salé", Hespéris, Rabat, s.a., t. II, 4 trim., pp.357-371.

القصة الحقيقية التى تُروى فيها الوقائع التى أحدثها القرصان بلانكيو (وهو موريسكى مرتــد من مدينة أركوس) حين كان فى سواحل إسبانيا واقتاد أسرى كثيرين، وتُروى فيهـــا المآســـى، وكيف أنه وقع فى قبضة خوان ميادو، وانتصار هذا، والعقاب الذى أوقعه بالموريسكى ورفاقه، طُبعَ فى ملقة عام ١٦٢٣.

VINCENT,Bernard. " L'explusion de morisques du royaume de Grendade et leur repartition en Castille (1570-1571)", Mélanges de la Casa de Velázquez, VI,1970, pp.210-246.

المؤلفون فى سطور:

نخبة من أبرز المتخصصين فى الدراسات الأندلسية والموريسكية

المترجم فى سطور:

- الاسم: جمال أحمد عبد الرحمن
- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

التصحيح اللغوى: رجب الصاوى
الاشراف الفنى: حسن كامل



هذا الكتاب عبارة عن دراسات موجزة لعدة مؤلفين، لم تتح لبعضهم فرصة نشر دراسته فى كتاب كامل، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول يتحدث عن موضوع لم يطرقه الباحثون كثيراً، وهو تأثر الإسلام الأندلسى بالمسيحية، ويوضح أن تسامح المسلمين مع مسيحيى الأندلس امتد ليشمل مشاركتهم فى الاحتفال بعيد الميلاد وعيد العنصرة.

مقالات القسم الثانى تتعلق بالجانب الدينى عند الموريسكيين، وتوضح أن تأثير الإسلام الأندلسى بالمسيحية واصل خطاه حتى بعد غرناطة، أما القسم الثالث فيتحدث عن جانب آخر من جوانب القضية الموريسكية ويعرض وثائق لم تتح الفرصة – على حد علمنا – لنشرها فى كتاب كامل.

تصميم الغلاف: هند سمير